أعلام العرب
٤٨

أحمد بن طولون

بقلم
الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف



المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة





مقدمة

امتدت الفتوح العربية الاسلامية منذ وفاة النبى عليه الصلاة والسلام فى سنة ١١ هـ (٦٣٢ م) حتى أواخر العصر الاموى ، أى مدة قرن وبعض القرن . وأصبحت الأراضى التى يسيطر عليها العرب تمتد الى الهند والصين شرقا والى المحيط الأطلسى أو بحر الظلمات غربا ، ومن البحر الاسود والبحر المتوسط وجبال البرانس شمالا الى بحر العرب وصحارى السودان جنوبا .

ولم يكن فتح العرب فتحا حربيا وسياسيا فقط وانما كان فتحا دينيا اذ انتشر الاسلام وأصبح دين الأغلبية فى البلاد المفتوحة لأسباب كثيرة لا يتسع المقام هنا لسردها وبحثها .

وكان فتح العرب أيضا فتحا لغويا فانتشرت اللغة العربية فى الأقطار المفتوحة ، ثم أصبحت لغة الثقافة والفكر ولغة التخاطب لأبناء معظم تلك البلاد . ولكن أهم من ذلك كله هو الاختلاط والاندماج الذى تم بين القبائل العربية الذين استقروا فى تلك الأقطار وبين أهل البلاد الأصليين سواء أكانوا من الفرس أو الشاميين أو المصريين أو الترك أو البربر أو غيرهم من الشعوب والأجناس المختلفة .

ى أن معظم الأقاليم التى سيطر عليها العرب . بدأت تتعرب وتؤثر فى العرب . ووضح الاختلاط قويا فى العصر العباسى ، وأصبحت دولة العباسيين دولة الشعوب التى أظلتها العروبة . ولم يصبح العربى هو الذى ينتسب

الى قيس ومضر ، أو الى عدنان وقحطان ، وانما أصبح العربى هو الذى يعيش فى ديار الاسلام ويتكلم العربية ويتثقف بآدابها ويفكر بلغتها . ولم يعد المجتمع العربى مجتمعا مقفلا على أبناء القبائل وانما أصبح مجتمعا مفتوحا لكل الذين يتكلمون العربية ويكتبون بها ، ويتأدبون بآدابها .

وكان عرب القبائل فى البداية يسمون أبناء البلاد التى فتحوها باسم الموالى وظلت هذه التسمية الى القرن الثالث والرابع الهجرى ولكن هذه التسمية بدأت تذوب وتختفى مع اختفاء أنساب القبائل المختلفة . وظهرت القوميات المختلفة واضحة قوية فكان هناك المصريون والايرانيون وأهل الشام والمغاربة والأتراك ولكن الكل أصبحوا عربا . أصبح الكل يشتركون فى تاريخ واحد وتقاليد واحدة وآمال واحدة وحضارة واحدة وأصبحت العروبة عروبة اللسان والفكر . ولذلك لا نندهش اذا علمنا ان أحمد بن طولون وهو تركى الأصل كان بطلا من أبطال العروبة ومؤسسا لأول دولة عربية اسلامية مستقلة فى مصر . وكان صلاح الدين الأيوبى بطلا من أبطال العروبة وهو كردى الأصل . وكان الظاهر بيبرس علما من أعلام العرب وهو مملوك تركى .

وسيتعرف القارىء من فصول هذا الكتاب على الجوانب المختلفة لشخصية أحمد بن طولون وعلى كفاحه فى سبيل تأسيس أول دولة مصرية عربية مستقلة ونجاحه فى ذلك الى أبعد الحدود .

دكتورة

سيدة اسماعيل كاشف

أستاذة التاريخ الاسلامى

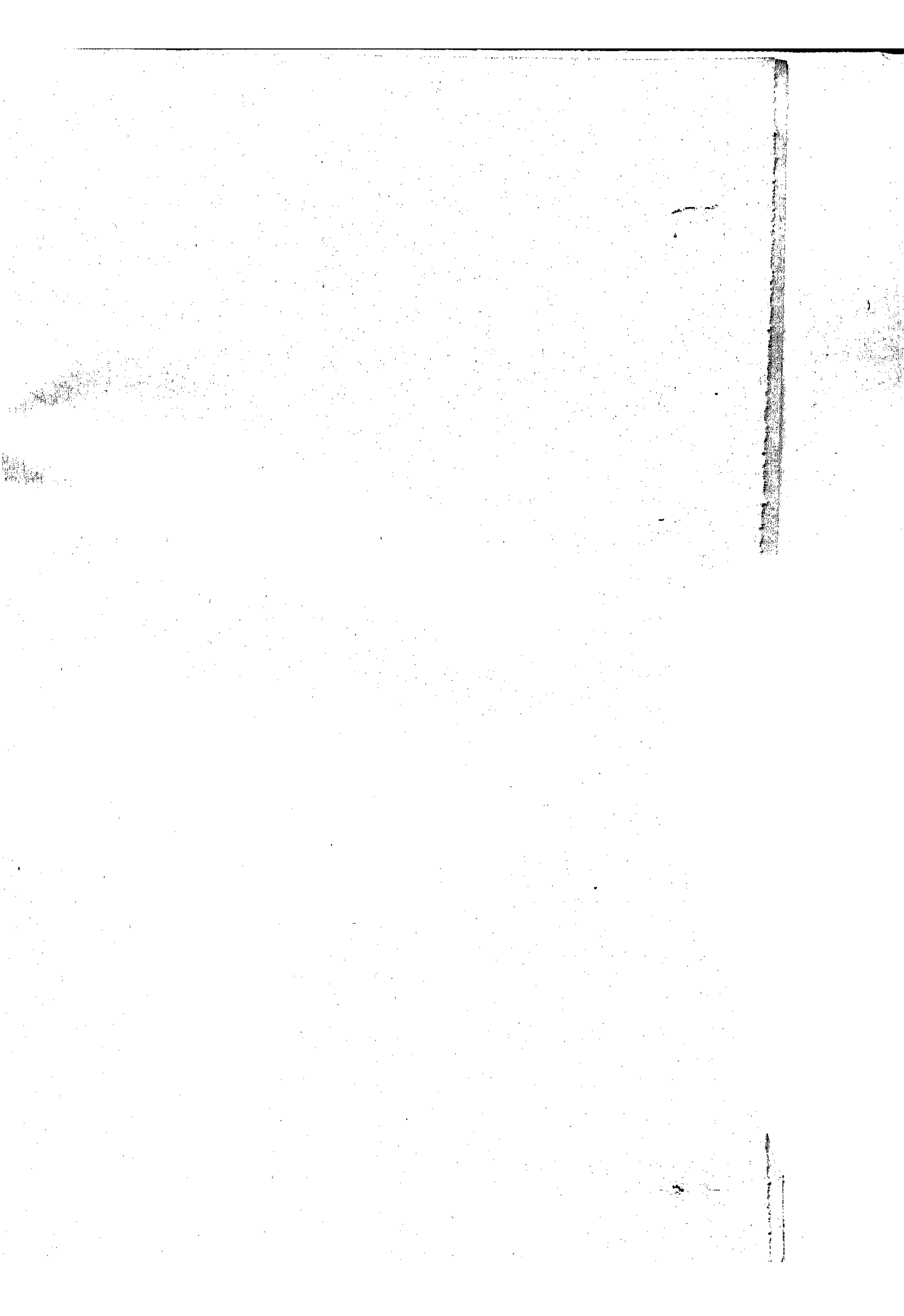
كلية البنات ـ جامعة عين شمس

٣٠ من ربيع الثانى ١٣٨٥

٢٧ من أغسطس ١٩٦٥

الفصل الأول

مصادر المؤرخ احمد بن طولون



أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية فى مصر « ٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م» شخصية جديرة بالدرس والاهتمام فهو مؤسس أول دولة عربية اسـلامية فى مصر ، وأول دولة مستقلة فى مصر الاسلامية العربية ، بل أول دولة مستقلة فى مصر منذ انتصار أغسطس قيصر على كليوبترا فى موقعة اكتيوم سنة ٣١ ق.م واستيلائه على مصر سنة ٣٠ ق.م وقضائه نهائيا على دولة البطالسة فيها .

وعنى المؤرخون القدماء باستقصاء سيرة أحمد بن طولون ودراسة دولته وذكر أخبارها وقدموا بهذا للمؤرخ الحديث مادة لها أهمية بالغة . ولم تكن أخبار المؤرخين القدماء ورواياتهم هى كل شىء فقد ترك لنا العصر الطولونى آثارا هامة من أبرزها جامع أحمد بن طولون فضلا عما عثرنا عليه من قطع السكة الأحمدية التى تنسب الى أحمد بن طولون ، وما وجدناه فى الأوراق البردية التى ترجع الى العصر الطولونى والتى نشرها المستشرقون ومن أهمهم الاستاذ النمسوى آدولف جرومان Adolf Grohmann ولعل المرجع الوحيد الحديث الذى عنى بدراسة تاريخ الدولة الطولونية دراسة علمية دقيقة مبنية على المصادر القديمة من مؤلفات وآثار ونقود وأوراق بردية هو السفر الذى أخرجه باللغة الفرنسية المرحوم الدكتور زكى محمد حسن فى باريس سنة ١٩٣٣م بعنوان «الطولونيون ـ دراسة لمصر الاسلامية فى نهاية القرن التاسع

الميلادى ٨٦٨ ـــ ٩٠٥ م » (١) .

أما المؤرخون القدماء فنذكر منهم مؤرخى المدرسة المصرية وعلى رأسهم مؤرخ معاصر للدولة الطولونية هو أحمد بن يوسف الكاتب المعروف باسم ابن الداية والمتوفى نحو سنة ٣٣٩ هـ (٩٥١م) . وابن الداية من أصل عراقى ولد أبوه يوسف بن ابراهيم فى بغداد ، ويبدو أنه كان منوطا بالاشراف على ضياع الأمير العباسى ابراهيم بن المهدى ثم اتخذ طريقه الى مصر بعد وفاة الأمير وعاصر أحمد بن طولون فى مصر بضع سنوات ، أما ابنه أحمد فقد ولد فى مصر فى منتصف القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى (٢) . وكتب أحمد بن يوسف ، أو ابن الداية ، فى التاريخ والطب والاخلاق والمنطق والفلك وغير ذلك مما يشهد بثقافته الواسعة ، وللأسف ضاعت مؤلفاته ، ولم يبق منها الا كتاب سيرة أحمد بن طولون الذى نقله لنا ابن سعيد الأندلسى فى كتاب «المغرب فى حلى المغرب» ، والذى كان قوام الكتاب الذى عقده ابن سعيد للكلام على الدولة الطولونية وسماه « كتاب الدر المكنون فى حلى دولة بنى طولون » وقد طبعت سيرة أحمد بن طولون على يد المستشرق الألمانى فولرز Vollers فى برلين ـــ فيمار ١٨٩٤ ١٨٩٥ . وجدير بالذكر أن سيرة أحمد بن طولون أعيد طبعها

(١) أنظر : Zaky Mohamed Hassan : Les Tulunides, Etude de l'Egypte musulmane à la fin du IXe Siècle, 868-905.

(٢) Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 11-12

وتحقيقها والتعليق عليها حين نشر فريق من أساتذة الجامعة الجزء الأول من القسم الخاص بمصر من مخطوطة المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد الأندلسى (١) .

وكان كتاب ابن الداية هو المرجع الأساسى لسيرة أحمد بن طولون الى أن نشر المرحوم الاستاذ محمد كرد على سنة ١٩٣٩م مخطوطة من مخطوطات دار الكتب الظاهرية فى دمشق عنوانها « سيرة أحمد بن طولون » ومؤلف هذه السيرة أبو محمد عبدالله ابن محمد المدينى البلوى ، ويرجع تصنيفها الى الثلث الثانى من القرن الرابع الهجرى . ويبدو أن المؤلف كان يرمى الى وضع كتاب فى سيرة آل طولون « يكون أكبر شرحا وأكمل وصفا » (٢) من كتاب ابن الداية . ولكننا رأينا بعد نشر كتاب « سيرة أحمد ابن طولون » للبلوى أنه اقتبس نحو الخمسين قصة من قصص ابن طولون عن ابن الداية ، ذكرها الأخير فى كتابيه « سيرة ابن طولون » و « المكافأة » (١) وزاد أربعين قصة يرجح أنها منقولة عن النسخة الأصلية من كتاب ابن الداية وهى التى لم تصل الينا ، لأن الذى نقله ابن سعيد ليس الا خلاصة هذا الكتاب ،

---

(١) انظر : ابن سعيد الاندلسى : المغرب فى حلى المغرب . عنى بنشره وتحقيقه والتعليق عليه الدكتور زكى محمد حسن والدكتور شوقى ضيف والدكتورة سيدة كاشف ـ مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣

(٢) انظر « سيرة احمد بن طولون » للبلوى ، تحقيق محمد كرد على ص ٣١ ـ دمشق ١٩٣٩م

والفرق بين البلوى وابن سعيد أن الأول لم تكن له الأمانة العلمية التى امتاز بها ابن سعيد ، فنقل عن ابن الداية من دون أن يصرح بذلك (٢) .

وكان المؤرخ اليعقوبى معاصرا لبنى طولون ، ولكن تاريخه يقف عند سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٣ م) ، ولذا فاننا لانجد فيه الا بعض البيانات عن اربع السنين الأولى من حكم أحمد بن طولون فى مصر ، ونجد مثلها فى نهاية كتابه البلدان . والمعروف أن اليعقوبى كان يحب الأسفار وأنه اتصل بالطاهريين فى خراسان والطولونيين فى مصر . بل الظاهر أنه كان عاملا على الخراج فى برقة حين ثار العباس على أبيه أحمد بن طولون . ويقال أيضا انه اتصل ببنى رستم فى بلاد المغرب وانه زار الهند أيضا .

ومهما يكن من شىء فقد كان شيعيا ، وكتب تاريخا وقف فيه عند سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٣ م) ، وتوفى اليعقوبى فى مصر سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١ م) بعد أن كتب فيها كتابه «البلدان» . ويقال أن جد اليعقوبى كان من موالى العباسيين واسمه واضح ، وكان واليا على مصر بضعة أشهر سنة ١٦٢ هـ (٧٧٩ م) ، وانه كان فيها بعد ذلك عاملا على البريد ، فسمح لادريس العلوى — بعد فراره من

---

(١) هو الكتاب الثانى الذى وصلنا من مؤلفات ابن الداية ، نشره فى القاهرة امين عبد العزيز ١٩١٤ م — ١٣٣٢ هـ

(٢) انظر مقدمة الدكتور زكى محمد حسن « م ٤٣ » فى كتاب : ابن سعيد المغرب فى حلى المغرب . مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٣ م

موقعة الفخ — بالفرار الى المغرب حيث أنشأ حكومة وأسس دولة الأدارسة .

وثمة مؤرخ آخر من مؤرخى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) هو الكندى الذى كتب عن مصر كتاب الولاة وكتاب القضاة ، وهما مصدران رئيسيان فى تاريخ مصر لأن مؤلفهما كان قريب العهد بكثير من الحوادث التى دونها ، فضلا عن أن بين أيدينا طبعة جيدة من هذين الكتابين نشرت بعناية المستشرق الانجليزى جست Guest . ومن مؤرخى المدرسة المصرية أيضا ابن دقماق فى القرن الثامن الهجرى — الرابع عشر الميلادى — وهو من كتاب الخطط ، وله كتاب « الجوهر الثمين فى سيرة الملوك والسلاطين » مخطوط فى الخزانة التيمورية وقد وقف فيه المؤلف عند سنة ٨١٣ هـ (١٤١٠ م) . وله كتاب « الانتصار لواسطة عقد الأمصار » لم يصلنا منه الا الجزء الرابع والخامس وقد طبعا فى مجلد واحد سنة ١٨٩٣ م على يد المستشرق الألمانى فولرز Vollers ، وفيهما ذكر كور البلاد المصرية ، أى أقسامها ، ومدنها وغريب مافيها من التحف والآثار .

وقد أخذ المقريزى (٧٦٦ — ٨٤٥ هـ = ١٣٦٤ — ١٤٤٢م) عن ابن دقماق ، ولكن مصادر الأخير كانت أدق وأوثق من مصادر تلميذه ومع ذلك فقد نبغ المقريزى فى كتابة الخطط بنوع خاص . وكان الجزء الأكبر من مؤلفاته عن تاريخ مصر مع ميل الى ناحيتى

الآثار والطوبوغرافيا . ويعتمد المقريزى فى أحاديثه عن فجر الاسلام فى مصر على ماكتب ابن عبد الحكم والكندى ثم القضاعى (من كتاب القرن الخامس الهجرى ـ الحادى عشر الميلادى) ، كما يظهر أنه انتفع الى حد كبير بما كتبه مؤلف آخر من أصحاب الخطط عاش فى القرن ٨ هـ (١٤م) وهو الأوحدى .

وأثمن ماوصلنا من مؤلفات المقريزى هو كتاب « المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » . ولكن له كتابا آخر فيه بيانات وافرة عن تاريخ مصر وأمرائها وهو كتاب « المقفى » الذى لم يستطع أن يكمل منه الا ستة عشر جزءا والذى توجد بعض مخطوطات منه فى مكتبتى ليدن وباريس .

أما كتاب التاريخ الاسلامى العام فلا يمكن اعتبارهم مصادر ذات قيمة كبيرة فى تاريخ الدولة الطولونية . وفى الواقع أن أهمهم وهو الطبرى (٢٢٥ ـ ٣١٠ هـ = ٨٣٩ ـ ٩٢٣ م) كان معاصرا لبنى طولون ويقال انه زار مصر فى عصر أحمد بن طولون ، أو قبيل قيامه ، ومع ذلك فاننا لا نجد فى تاريخ الطبرى شيئا كبير القيمة فى تاريخ بنى طولون . وطبيعى أن المؤرخين الذين أخذوا عن الطبرى ، مثل المسعودى فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، ومسكويه فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) ، وابن الأثير فى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) وغيرهم من المتأخرين ، نقول ان هؤلاء وغيرهم ممن

اعتمدوا على النقل من الطبرى ، لم يأتوا ببيانات وافية وصحيحة دائما عن تاريخ الطولونيين .

وهناك فئة ثالثة من المؤرخين ، حاول أفرادها ، فيما يختص بتاريخ بنى طولون ، أن يوفقوا بين ماذكره المؤرخون المصريون وماذكره كتاب التاريخ الاسلامى العام ، وعلى رأس هذه الفئة النويرى والذهبى وابن خلدون والعينى .

أما النويرى فقد ولد بمصر نحو سنة ٦٧٧ هـ (١٢٧٩ م) ، وتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م) ، وأعظم مؤلفاته شأنا كتاب « نهاية الأرب فى فنون العرب » وهو فى ثلاثين مجلدا مخطوطا ومما يلفت النظر أن ماجاء به عن بنى طولون يمتاز بما فيه من نظام ونقد فى البحث .

أما الذهبى فقد عاش بين عامى ٦٧٣ و ٧٤٨ هـ (١٢٧٤ و ١٣٨٤م) وولد فى دمشق ورحل منها الى مصر ثم عاد الى دمشق ثانية ، وأعظم شهرته فى علوم الحديث ، ولكن له مؤلفا مخطوطا هو : تاريخ الاسلام وقف فيه عند سنة ٧٠٠ هـ وقسمه سبعين طبقة (كل طبقة عشر سنوات) تشمل كل منها الحديث عن طبقة من الرجال مرتبين ترتيبا أبجديا . ثم كتب ملحقا له عن المدة الواقعة بين سنتى ٧٠١ هـ و ٧٤٠ هـ . واختصر الذهبى هذا المؤلف العظيم الذى توجد مخطوطات متفرقة من أجزائه فى مكتبات العالم ، فكتب منه أربعة مؤلفات متوسطة الطول . وعلى

كل حال فان مؤلفه التاريخي ليست له قيمة عظيمة الا في بعض البيانات عن تراجم مشاهير الرجال . وفائدته في تاريخ بني طولون تكاد تكون مقصورة على مايخص الحياة العقلية والأدبية والدينية .

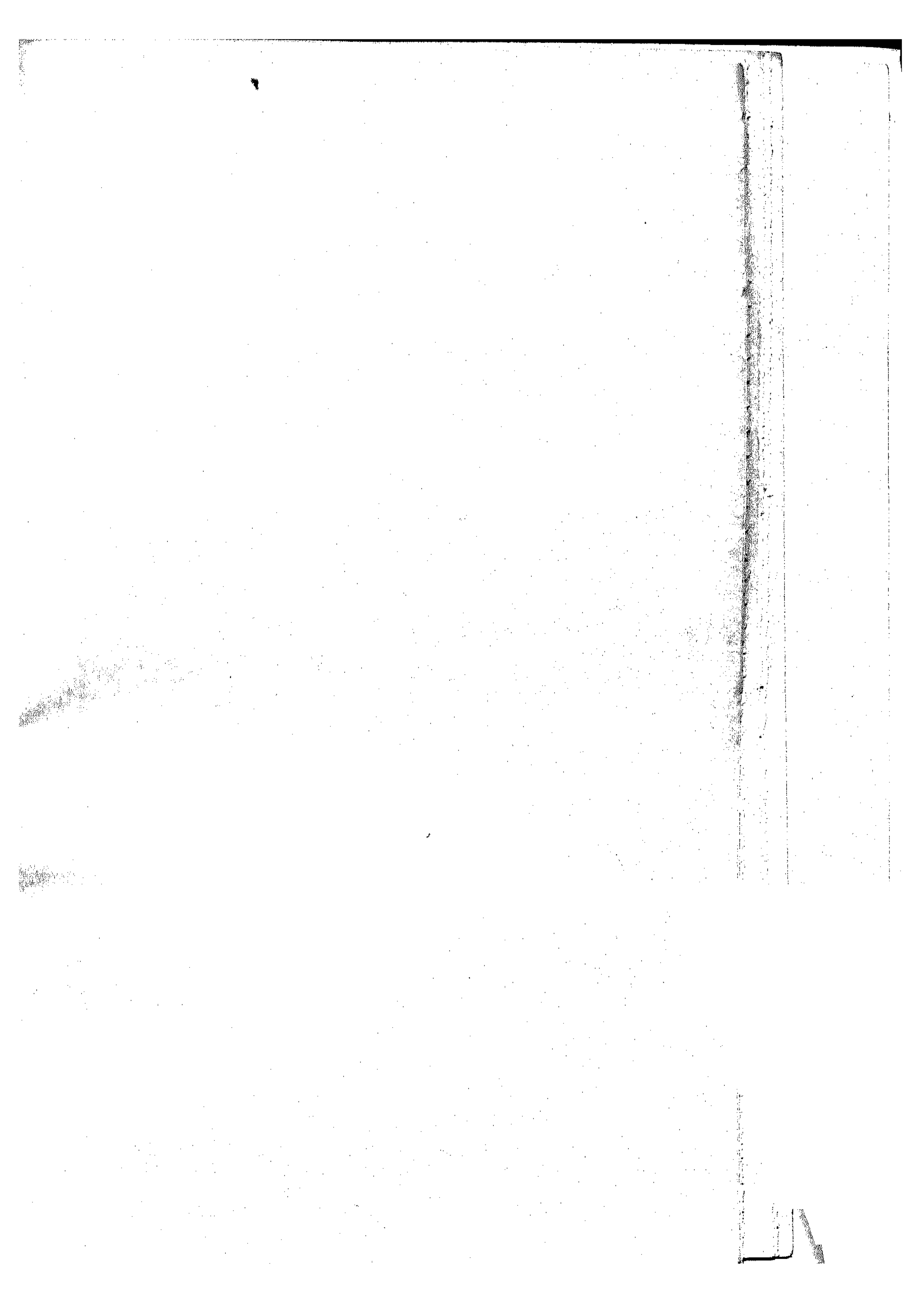
أما ابن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ = ١٣٣٢ ـ ١٤٠٦ م) فان تاريخه لا تتساوى أجزاؤه في القيمة والاتفاق ، ويظهر فيما يختص بتاريخ بني طولون أن ابن خلدون كان عالما بما كتبه مؤرخو المدرسة المصرية علما وافرا ، ولكنه كان يعتمد على ابن الداية ، ولعله كان يفعل ذلك بوساطة مانقله ابن سعيد عن هذا المؤلف.

وكان العيني(٧٦٢ ـ ٨٥٥ هـ = ١٣٦٠ ـ ١٤٥١ م) شامي الأصل وقدم الى مصر ، واتصل بالسلطان المملوكي الأشرف برسباى . ومن أعظم مؤلفاته تاريخه الذي لم يزل مخطوطا ، وهو « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » ، وفيه بيانات وافرة عن بني طولون .

وكذلك أبو المحاسن بن تغرى بردى (٨١٣ ـ ٨٧٤ هـ = ١٤١١ ـ ١٤٦٩ م) تتلمذ على المقريزى والعيني ، وألف كتاب « النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة » وهو مرتب على السنين من الفتح الى عصر المؤلف . وفيه من حكم مصر من الولاة والسلاطين ، ومن توفى من كبار الرجال ، فضلا عن حالة النيل من زيادة أو نقصان .

الفصل الثاني

أحمد بن طولون في سامرا



كان طولون مملوكا تركيا من منغوليا . ويقال انه كان ضمن الجزية التى أرسلها حاكم بخارى الى البلاط العباسى فى سنة من السنين . كما يقال أيضا أنه كان مملوكا لنوح بن أسد والى بخارى ، وان نوحا عتقه وأهداه الى الخليفة المأمون . ومهما يكن من الأمر فان طولون وصل الى البلاط فى بغداد نحو سنة ٢٠٠هـ (٨١٦ م) . أما اسمه طولون فمشتق من كلمة تركية بمعنى البدر الكامل .

ولسنا نملك من البيانات مانستطيع بوساطته أن نعرف شيئا عن تاريخ حياة طولون ، ولكن أكبر الظن أنه تقدم فى البلاد بمواهبه وصفاته العسكرية الى أن وصل الى رياسة حرس الخليفة . والظاهر أنه لم يكن له شأن عظيم فى الدسائس والثورات التى قام بها الجند الترك منذ وفاة المعتصم سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٣ م) .

وقد ولد ابنه أحمد فى رمضان سنة ٢٢٠ هـ (سبتمبر ٨٣٥ م) . وأكبر الظن أنه لم يولد فى سامرا كما ذكر ابن خلكان اللهم الا اذا كان تاريخ ولادته الذى ذكرناه ليس صحيحا تماما ، فالأرجح أنه ولد فى بغداد لأن سامرا لم تشيد الا فى السنة التالية ٢٢١ هـ (٨٣٦ م) . وهناك بعض أساطير ـ يغلب أنها نبتت بين مؤرخى مصر القدماء ـ تزعم أن أحمد بن طولون لم يكن ابنا

حقيقيا ولكن طولون تبناه « لما رأى فيه من مخايل النجـــابة »
ويذكرون فى هذه المناسبة قصة نقرؤها فى النجوم الزاهرة لأبى
المحاسن بن تغرى بردى (١) ومن عناصر هذه القصة نلحظ بعض
الشبه بينها وبين قصة سيدنا يوسف وزليخا امرأة العزيز ممـــا
يحملنا على الشك فى صحتها ، وليس هذا امرا غير عادى فى الذى
يكتبه المؤرخون عن عظماء الرجال وفيا يحيط بنشأتهم ومولدهم
من قصص وأساطير . وثمة رواية أخرى تنسب احمد بن طـــولون
الى مضـــحاك تركى كان يعيش فى بلاط العباسيين اسمه يلبخ ،
ولكننا نستبعد هذه الرواية أيضا لأننا لانعـــرف أن أعداء ابن
طولون ــ ولاسيما الموفق ــ أشاروا الى هذه القصة . وقـــد
حفظ لنا المؤرخ الكندى فى كتابه « ولاة مصر » القصائد التى
نظمها الشاعر المصرى محمد بن داوود فى هجاء أحمد بن طولون
وليس فى شعره هذا اشارة الى القصة المذكورة .

على أن البحترى ، الذى نعرف أنه نظم شعرا فى مدح خمارويه
ابن أحمد بن طولون ، قد هجا ابن طولون بأشعار فيها اشـــارة
الى صلة أحمد بن طولون بيلبخ أو تنبى طولون له ، ولـــكننا
لانستطيع أن نعتمد بسهولة على أقوال شاعر فى هذا الميـــدان
ولاسيما البحترى ، وحسبنا أن نقرأ شعره الهجائى لنتبين أن اختراع
المثالب لم يكن لديه أمرا صعبا .

(١) انظر ابو المحاسن « النجوم الزاهرة » طبعة دار الكتب المصرية ج ٣.
ص ٢

وعلى كل حال فان أحمد بن طولون أصبح يتيما فى شبابه فقد مات أبوه طولون سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٤ م) . وقد ذكر العينى فى تاريخه : « عقد الجمان فى تاريخ الزمان » أن زوج طولون وأم ولده أحمد تزوجت بعد وفاة زوجها هذا ، « بغا الأصغر » أحد زعماء الجند الترك . والمعروف أيضا أنها تزوجت لثالث مرة من « باكباك » الذى خلف بغا فى وظيفة — الأمين — بالبلاط العباسى .

والظاهر أن أحمدبن طولون وأخاه موسى لقيا الشىء الكثير من عناية الجند الترك بعد وفاة أبيهما . وأكبر الظن أنهما تلقيا التعليم العسكرى الذى اعتاد تلقيه ضباط الجند الترك فى ذلك الحين والذى كان يؤهلهما للعمل فى جند الخليفة .

وفضلا عن ذلك كله فقد درس أحمد الفقه والدين مما كان لا يعنى به أمثاله من الجند الترك . وكان بمعزل عن دسائسهم وماكانوا يحدثونه من شغب ، فانصرف الى دراسة الحديث والفقه على مذهب أبى حنيفة ، وانتظم فى الوقت نفسه فى الجندية . ثم تزوج من « خاتون ابنة عمه يارجوخ » ولسنانعرف هل كان يارجوخ شقيقا لطولون . ونحن نرجح أن كلمة « عم » ليست بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة حين نتحدث عن الجند الترك وما اليهم من المماليك .

وولد لابن طولون من ابنة عمه هذه ابنه البكر « العباس »،

ومع ذلك فان هذه الحياة الجديدة ومسئولية الأسرة لم تخففا من رغبته فى تحصيل العلم ، فطلب من الوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان أن يعين فى طرسوس ليستطيع أن يتصل بمن فيها من الأئمة والفقهاء بعيدا عن شغب الجند ودسائس البلاط . وقد سافر اليها مع صديقه أحمد بن محمد بن خاقان الذى يظهر أنه كان من أقرباء الوزير المذكور .

ولسنا نعرف شيئا يذكر عن حياته الدراسية فى تلك المدينة التى ذاع صيت علمائها فى الحديث والتفسير والفقه ولكن الذى يهمنا أنه استطاع بذهابه اليها أن يبعد عن دسائس العاصمة — وهى حينذاك سامرا — وألا يشترك فى أحزاب الجند الترك وأن تبقى علاقته طيبة مع جميع رؤسائهم . على أن الراجح أن حياة ابن طولون فى طرسوس لم تكن علمية بحتة ، ولم تكن وقفا على الدرس والتحصيل ، فان ابن الداية يذكر أن صاحبنا عين رئيسا للغزاة فيها . والمعروف أن طرسوس كانت احدى النقط الحربية الهامة الواقعة فى منطقة الحدود بين أملاك المسلمين وأملاك الروم فى آسيا الصغرى والتى كانت تعرف باسم منطقة الثغور . ويظهر من عبارة فى سيرة ابن طولون لابن الداية أن ابن طولون لم يأخذ معه أفراد اسرته الى طرسوس . ونحن لا نعرف تماما المدة التى قضاها فى طرسوس ، ولكن يتضح مما رواه البلوى فى سيرة أحمد بن طولون أنه لم يكن فى سامرا أثناء المؤامرة التى انتهت بمقتل الخليفة المتوكل سنة ٢٤٧ ، وأنه خرج من طرسوس بعد

تولية الخليفة المستعين سنة ٢٤٨ هـ (٨٦١ م) • أمـا سر عودة ابن طولون فغير معروف •

قيل ان أمه وزوجته استدعتاه وان أمه كاتبته بما أقلقه على صحتها ، وقيل ان أمه قلقت عليه وهو فى طرسوس وظنت أنهـا فقدته فى غزواته ضد الروم ، ولهذا عزم على الرحيل الى سامراء. ونحن نرجح أن مقتل الخليفة المتوكل وبيعة المستعين دعاه الى أن يكون على مقربة من مسرح الأحداث ليفيد منها •

ويروى المؤرخون حادثا وقع له فى رحلته عند العودة الى سامرا وأبدى فيه من الشهامة وعلو الهمـة ما قربه الى الخليفة المستعين مثلما كان مقربا الى الخليفة المتوكل • ففى طريق عودته من طرســوس انضــم ركبه الى قافلة قيل انها كانت مؤلفة من خمسمائة رجل وكانت هذه القافلة راجعة من بلاد الروم تحمل متاعا ثمينا للخليفة العباسى المستعين . وأغار الأعراب من قطاع الطرق على هذه القافلة على مقربة من مدينة الرها ، ورأى رجال القافلة أن من الأفضل الاعتصام بقلعة الرها لتنجو من مصيرها المحتوم ، لكن الضابط الشاب أحمد بن طولون لم يقنع بالدفاع ولكنه حارب المعتدين ، وأنقذ القافلة وحفظ متاع الخليفة واسترد ما سلبه قطاع الطرق . ولمـا وصلت القافلة الى سامرا وأخبر رئيسـها الخليفة المستعين بما حدث بعث الخليفة الى أحمد بن طولون بألف دينار سرا ووثق به وقربه اليه ، وكان ابن طولون

اذا دخل على المستعين مع الأتراك أومأ اليه الخليفة بالسلام . وتوالت على أحمد بن طولون صلات الخليفة وهباته وكان من بينها جارية اسمها مياس ولدت له أبا الجيش خمارويه . ولسنا نعرف نصيب قصة القافلة من الصحة (١) .

ولكننا لا نشك فى أن ابن طولون كانت له علاقة طيبة بالمستعين حتى أن هذا الخليفة عندما اعتزل العرش وطلب اليه أن يختار رفيقا يصحبه الى واسط ثم الى مكة وقع اختياره على احمد بن طولون فقبل الجند الترك ذلك . ومضى ابن طولون بالمستعين الى واسط وأحسن معاملته ، ولكن غلمان المتوكل خافوا من المستعين ، فطلبوا من ابن طولون أن يقتله ، فامتنع ، وكتب الى الأتراك أنه لا يقتل خليفة له فى رقبته بيعة . ويقال أن الجند انفذوا سعيدا الحاجب فتسلم المستعين وقتله فدفنه ابن طولون وعاد الى سامرا . وروى أن احمد بن طولون كان يقول بعد ولايته مصر : « كانت غاية ما وعدنا به على قتل المستعين ولاية واسط ، فتركت ذلك لله عز وجل فعوض الله ولاية مصر والشامات وسعة الأحوال معها » .

ويزعم آخرون أن ابن طولون لم يكن غريبا عن قتل المستعين ولكننا لا نعرف أن أحدا ذكر هذه الرواية دون الأولى ، وهى

---

(١) انظر أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٥ ، ولاحظ ما يدل عليه تستر الخليفة فى عطفه على أحمد بن طولون من ضعف نفوذه امام الجند .

تخبر امتناعه . واذا حكمنا بسيرة أحمد بن طولون رجحنا أنه لم يمتنع ، وأنه لا يستطيع أن يجلب على نفسه غضب الجند الترك وهم أصحاب النفـوذ فى الخلافة العباسية آنئذ ، واذا كان ابن طولون لم يشترك فى قتل المستعين فان ذلك لأن « قبيحة » أم الخليفة المعتز وأنصارها من الجند وقع اختيارهم على غيره لقضاء هذه المهمة الدقيقة .

ولا شك أن أحمد بن طولون كان يعلم بالنيـة المبيتة لقتل المستعين يوم ساومته أم الخليفة المعتز ، وكان بوسـعه أن ينبه المستعين الى ما يدبره الأتراك ، ولكنه خشى العاقبة وخشى نقمة أم الخليفة وشيعتها من الأتراك ورضى بتسليم الضحية لمن يذبحها وهو يعرف هذا المصير . ولعل مصـدر رواية امتناعه عن قتل الخليفة هو ابن الداية كاتب سيرته ولعله أراد بذلك اعلاء شأنه.

والحق اننا لا نستطيع أن نطلب من ابن طولون أن يمضى الى أبعد مما مشى اليه فيحول بين الخليفة وبين مقتله ، لكن عدم اشتراكه فى مقتل المستعين كان له أثره العظيم فى الرأى العام حينئذ الذى أكبر فيه دينه وفضائله(1) .

ومهما يكن من الأمر فان ابن طولون حين عاد الى سامرا لم يمكث فيها طويلا فقد استولى على السـلطان والنفوذ ، الجند

---

(1) قـارن : Zaky Hassan : Les Tulunides p. 33

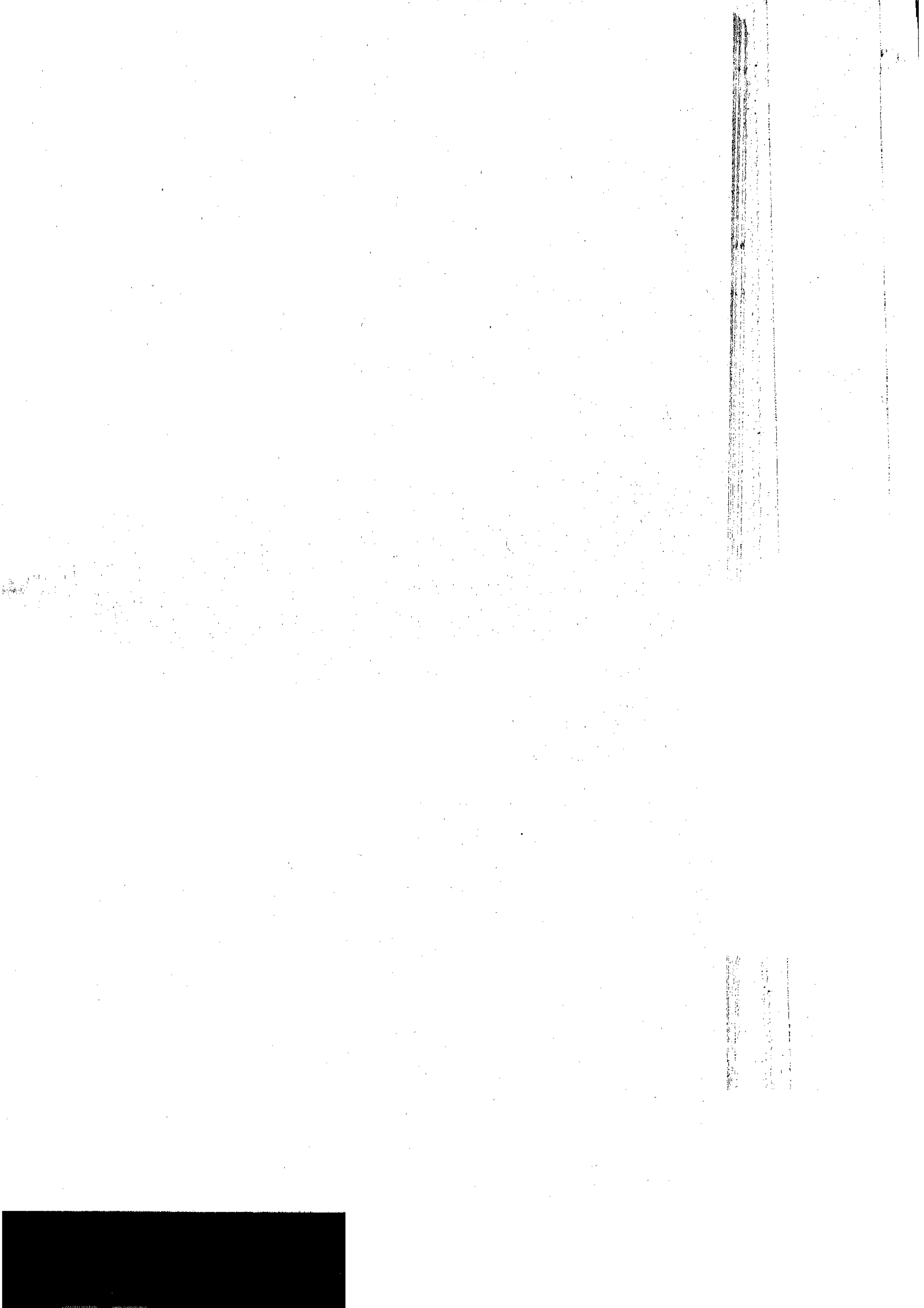
الترك الذين نصبوا المعتز على عرش الخلافة وكان أعظمهم شأنا باكباك الذى كان قد تزوج من والدة احمد بن طولون والذى أقطع مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) • والمعروف أن هؤلاء القواد الترك الذين كانت تقطع لهم الأقاليم كانوا يحرصون على البقاء فى العاصمة ليراقبوا تطور الحالة وليأمنوا دسائس خصومهم ، وليبقوا بين سائر الجند الترك ممن كانوا عصبيتهم ومصدر سلطانهم •

ووقع اختيار باكباك على احمد بن طولون ليكون نائبا عنه فى مصر • فقدم احمد بن طولون الى وادى النيل سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) كنائب بسيط عن واليها • ومن المحتمل جدا أنه منذ تلك الساعة كان يفكر فى الاستقلال بمصر ولا يتوقع فى هذا السبيل مصاعب جمة نظرا لما كان يعرفه من ضعف الخلافة العباسية واحتضارها ، فضلا عن الفوضى بين الجند الترك مما حد كبير •

الفصل الثالث

العالم الاسلامى ومصر فى القرن الثالث الهجرى

(التاسع الميلادى)



أصبحت مصر بعد قدوم عمرو بن العاص اليها فاتحا فى بداية القرن الأول الهجرى والسابع الميلادى (١٨ هـ = ٦٣٩ م) جزءا من عالم عربى اسلامى أخذ فى النمو والاتساع حتى بلغ مداه أيام الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٦ ــ ٩٦ هـ = ٧٠٥ ــ ٧١٥ م) وأصبح العالم الاسلامى يمتد من الهند وحدود الصين وايران الشرقية وآسيا الوسطى شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، ومن البحر الأسود والبحر المتوسط وجبال البرانس شمالا الى بحر العرب وصحارى السودان جنوبا • ولما قامت الدولة العباسية ونقلت العاصمة من دمشق الى بغداد كان هذا ايذانا ببدء عهد الانقسام والتفرق بين أنحاء الدولة الاسلامية • اذ كان قيام العباسيين بمساندة الفرس والخراسانيين ثورة من الفرس أو الايرانيين ضد أهل الشام الذين قامت على أكتافهم الدولة الأموية وارتفع شأن الفرس فى الخلافة الجديدة وأمسكوا بأزمة الأمور •

وكانت الخلافة قبل مجىء العباسيين تستمد قوتها السياسية من تماسك أفراد البيت الخليفى فضلا عن اعتمادها على العرب الذين كانوا يشدون أزرها ويؤمنون بأن قوة العرب فى بقاء الخلافة قوية .

أما العباسيون فقد بدؤا يفقدون مصادر هذه القوة منذ

مجيئهم الى الحكم فوضح الانقسام فى صفوف البيت العباسى منذ البداية ، ثم قام النزاع الدامى بين الخليفة الأمين وأخيه المأمون وكان لهذا أثره فى تمزيق وحدة العالم الاسلامى • وفى الوقت الذى كان البيت العباسى يفقد فيه وحدته أخذ يفقد العنصر الثانى الذى ترتكز عليه قوته ، فكانت العصبية العربية تضعف وتتداعى ، بل ان العباسيين عملوا على اضعاف هذه العصبية ، ولم يصبح العرب هو العنصر الحاكم أو المسيطر على تلك الدولة الشاسعة وانما أصبح أحد العناصر فيها . وهكذا أودى العباسيون بذلك العنصر العربى الذى كان يستطيع أن يقف وراء الخلافة العباسية وأن يسندها ويحميها فى أوقات الأزمات .

وفى الوقت نفسه لم يثق الخلفاء العباسيون بالفرس الذين كان لهم الفضل الأول فى قيام دولتهم فنكبوا الزعماء الفرس الذين ساندوهم والأسرات الفارسية التى عضدتهم . وهكذا نرى العباسيين يفقدون ثقة العرب ثم ثقة الفرس •

وراح العباسيون يلتمسون قوة جديدة ليحافظوا على خلافتهم ، فاتجهوا الى الترك . وعرف العرب الترك بعد فتح بلاد ماوراء النهر (١) فى خلافة الوليد بن عبد الملك ، ورأوا فيهم

---

(١) ما وراء النهر : اى ما وراء نهر جيحون فى آسيا الوسطى : وهى المنطقة التى تعرف الان باسم التركستان الروسية

قوما يحبون القتال والحرب ، وليست لهم عصبية العرب وليس لهم دولة أو ملك يريدون احياءه مثل الفرس .

وأخذ الاتراك يتسللون الى الحياة الاسلامية منذ عهدالخليفة هرون الرشيد ، أما الخليفة المأمون فقد رأى العرب يقفون خلفه الأمين ، ولم يطمئن هو اطمئنانا تاما الى الفرس الذين كانوا يساندونه ،فأحب أن يوجد نوعا من التوازن بين هؤلاء وهؤلاء فبدأ يستخدم المحاربين الترك على نطاق ضيق . ثم أقبل أخوه وخليفته المعتصم ـ وهو ابن أمة تركية ـ فى اسراف على استخدام الأتراك (٢١٨ ـ ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ ـ ٨٤٢ م) واستكثر منهم فى الجيش ، وضاق بهم أهل بغداد فأنشأ لهم فى سنة ٢٢١ هـ حاضرة جديدة هى سر من رأى أو سامراء بل اذالمعتصم أسقط من فى ديوان الجيش من العرب وقطع أعطياتهم . وجاوز الأتراك النطاق العسكرى وبدأوا يتسربون الى الجهاز الادارى فأسند المعتصم اليهم كثيرا من المناصب العليا فى الدولة . ووجد الاتراك الطريق خاليا لهم بعد المعتصم فاصبحوا فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى مسيطرين على شئون الدولة الحربية والمدنية ، وخضع سلائل العباسيين لهؤلاء الاتراك خضوعا تاما.

وجاء بعد المعتصم أخوه الواثق (٢٢٧ ـ ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ ـ ٨٤٧ م) وعظم نفوذ الجند الترك ولاسيما ايتاخ ووصيف اللذين يرجع اليهما انتخاب المتوكل خليفة للواثق عندما توفى هذا بعد

حكم دام خمس سنوات . ولكن المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ =
٨٤٧ - ٨٦١ م) لم يقبل أن يكون ألعوبة فى يد الجند الترا
فسجن ايتاخ مع أنه كان من اكبر زعماء الجند الترك فضلا ع
أنه كان المشرف على بيت مال الدولة . واستدعى المتوكل محمـ
ابن عبد الله الطاهرى وعينه حاكما على العراق ليتخلص بذلك م
نفوذ الترك ، ولكن كثرة الدسائس والمؤامرات حملت الخليفـ
على التفكير فى ترك سامرا ونقل العاصمة الى دمشق . ولما لـ
يوافقه جو دمشق فقد عسكر بجنده على مقربة منها . وثار الج
بحجة أن أعطياتهم المتأخرة لم تصرف اليهم . فلم ير المتوكل بدا
دفعها والرجوع الى سامرا . وقد كتب المسعودى فى كتابه مر
الذهب حديثا يستدل منه على مبلغ نفور هؤلاء الجند من الاٍ
فى الشـــــام .

والمعروف أن المتوكل ارتكب غلطة كبيرة كانت قاضية عـ
حياته فكان قد أعلن ابنه الأكبر المنتصر وليا لعرشه ولكنه رج
عن هذا الرأى ونحى المنتصر عن ولاية العهد وجعل لها ابنا آ
أصغر سنا وهو المعتز . وأدى ذلك الى تآمر المنتصر مع ال
الترك على قتل أبيه . على أن ابن طبـــاطبا (أو ابن الطقطق
صاحب كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية ، ذكر فى هذا الـ
أن المتوكل كان يضطهد العلويين وأن ابنه المنتصر تآمر على
لهذا السبب . ولكننا نرى أن هذه رواية ضعيفة ويجب ألا
فى هذه المناسبة ان ابن الطقطقى كان شيعيا .

وعلى كل حال فان الجند الترك بدأوا بتدبير مكيدة لواحد من رؤسائهم كان شديد التعلق بذات الخليفة والاخلاص له . وكان عنده اتباع يستطيعون الدفاع عن الخليفة . وأفلح سائر الجند فى اقناع المتوكل بخيانة هذا التابع الأمين فأبعده وخلا لهم الجو وفاجأ الجند المتوكل فى ليلة كان يشرب فيها مع نديمه ووزيره الفتح بن خاقان وقتلوهما معا سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١ م) ونشروا بين الناس أنهم قتلوا الفتح بن خاقان لأنه قتل الخليفة . ولكن المنتصر لم ينعم بالعرش أكثر من بضعة أشهر حرص فيهاعلى تأمين سلامة الذين تآمروا معه على قتل والده ، وكانوا يخشون ماقد يقع لهم من انتقام أبناء المتوكل الآخرين اذا تولى أحدهم العرش يوما ما . ولذا فقد جرد المنتصر اخوته من كل سلطان أو اقطاع كان فى يدهم وحملهم على امضاء تنازل عن العرش .

ولما توفى المنتصر كان زعماء الجند الترك لايزالون يخشون انتقام أبناء المتوكل الذين اضطهدهم المنتصر حرصا على سلامة شركائه فى الجريمة ، ولذا بايع الترك بالخلافة المستعين حفيد المعتصم .

ومن ناحية أخرى قام الخلاف بين الجند الترك أنفسهم وكان النزاع بين أحزابهم المختلفة مصدرا كبيرا للشغب . وقد حدث أن عمل زعيمان من زعمائهم ــ هما بغا ووصيف ــ على قتل زعيم ثالث . فأشعل ذلك الزعيم نار الثورة ضد هذين الزعيمين

لاستبدادهما وما جمعاه فى أيديهما من السلطان والدكتاتورية ،
وانتهت الثورة بفرار بغا ووصيف الى بغداد مصطحبين الخليفة ،
ولكنهما لم يأخذا معهما المعتز والمؤيد ابنى المتوكل بل القيا بهما
فى السجن بسامرا فأخرجهما الجند وبايعا المعتز بالخلافة . ونشب
القتال بين أنصار الخليفتين : المستعين والمعتز . وحوصر المستعين
فى بغداد وسلمت هذه المدينة سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) بعد أن حصل
المستعين على الأمان لنفسه ولذويه متعهدا بأن يسكن فى مكان ،
ولكنه اضطر الى البقاء فترة قصيرة فى واسط . وفى هذه الظروف
ظهر على مسرح السياسة كما رأينا أحمد بن طولون اذ وقع عليه
الاختيار لمرافقة المستعين .

وجدير بنا أن نلاحظ أن تدهور الخلافة العباسية من الناحية
السياسية لم يكن ناشئا عن ضعف الخلفاء بقدر ماكان ناشئا عن
ضعف النظام العباسى نفسه ، فقد كان هناك خلفاء أقوياء فى هذا
العصر ، لو كان زمانهم قد تقدم بهم لما كانوا أقل من المنصور أو
الرشيد أو المأمون اذ واجهوا خطر الاتراك غير معتمدين على
عصبية قوية تسندهم ولهذا لم يستطيعوا دفع سلطان الأتراك الذى
كان قد طغى على الخلافة العباسية فى جميع النواحى الحربية
والسياسية .

وفى هذا العصر وضحت الحركات الاستقلالية فى مختلف
البلدان الاسلامية ، بل ان جذور هذه الحركات بدأت قبل القرن

الثالث الهجرى وفى فجر الدولة العباسية وفى عنفوان قوتهـا .
وكان أول تفكك فى الدولة العباسية ذيلا لسقوط بنى أمية ، فان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك أفلح فى النجاة من التعذيب والاضطهاد اللذين كانا نصيب أفراد الأسرة الأموية على يد العباسيين حين تولوا الحكم . ويمم عبد الرحمن شطر مصر ثم افريقية ثم المغرب ، ولكن أنظاره اتجهت الى الأندلس واتخذها مسرحا لنشاطه السياسى . وكان النزاع قائما فى شبه جزيرة ايبيريا بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، أى بين القيسيين واليمنيين ، ونجح عبد الرحمن فى استغلال هذا الموقف بالخدعة والحـرب ونصب أميرا سنة ١٣٨ هـ (٧٥٦م) فأسس بذلك امارة قرطبة ، وهكذا انفصلت اسبانيا عن الخلافة العباسية . ولم تسـتطع الخلافة العباسية أن تتدخل تدخلا ناجحا ، وظلت أسرة عبد الرحمن — الذى لقب عبد الرحمن الداخل — تحكم البلاد فى قرطبـة متخذين لقب الامارة الى ان جاء عبد الرحمن الناصر فاتخذ لقب الخلافة سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩م) . ولم تلبث افريقية أن نسجت على منوال الأندلس ، وكان عبد الرحمن بن حبيب والى افريقية قـد ثار على الأمويين سنة ١٢٣ هـ (٧٤٠م) وطرد أتباعهم من القيروان ولمـا انتقل الحكم الى بنى العباس ثبتوا عبد الرحمن فى ولاية افريقية ، ومع ذلك فانه أبى الاعتراف بسلطان الخليفة ، ولـكنه فشل وفشلت حركته الاستقلالية . وكان البربر فى المغرب يقومون بالثورة بعد الأخرى ، وتأسست أسرات خارجية كبنى مدرار فى

سجلماسة ، وبنى رستم فى جنوب تونس والجزائر ، كما قامت دولة الادارسة العلوية فى المغرب الأقصى . ولم يبق للعباسيين فى نهاية القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) من الدولة الاسلامية فى المغرب الا افريقية ــ أو تونس الحالية ــ ولم يستطيعوا الاحتفاظ بها اسميا مدة قرن من الزمان الا بوساطة أسرةالأغالبة التى ظلت تحكمها ، مع سيادة اسمية للخليفة العباسى من سنة ١٨٤ الى سنة ٢٩٦ هـ (٨٠٠ ــ ٩٠٩ م)

وكان القتال بين الأمين والمأمون عاملا جديدا فى تقويض بناء الدولة الاسلامية ، فاستقل والى اليمن فى عصر المأمون وأسس أسرة بنى زياد التى ظلت تحكم البلاد حتى بداية القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) . وكذلك أقطع المأمون قائده الفارسى طاهر بن الحسين ولاية خراسان فلم يلبث أن استقل بها وقامت بها الأسرة الطاهرية . وعين أبو دلف واليا على همذان فى بداية القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) فاستقل بها وخلفه أفراد أسرته بعد أن استولوا على أصفهان ونهاوند .

وأخطأ العباسيون كما أخطأ الأمويون من قبل فأمعنوا فى اضطهاد العلويين فانتشرت الدعوة لهم فى الأقطار كافة ، كما ظهرت الدعوة القرمطية فى البحرين والدعوة الاسماعيلية فى سلمية بالشام وفى المغرب ، كما أن بعض العلويين نجحوا سنة ٢٥٠ هـ فى الاستيلاء على الحكم فى طبرستان وبلاد الديلم وجيلان جنوبى بحر قزوين ، وظلت هذه الأسرة العلوية تسود تلك الأقاليم

الى سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨م) حين هزم السامانيون آخر ملوكهـــا الحسن بن قاسم . على أن الشيعة أحرزوا النجاح الأعظم فى بلاد المغرب فى القرن الثالث الهجرى حين خرج الدعاة الاسماعيليون الى أرض كتامة يبشرون بمذهبهم ويدعون لخليفة من ولد على وانتهى الأمر بقيام الدولة الفــاطمية بالمغرب على يد عبيد الله المهــــدى .

على أن الفاطميين بعد أن تم لهم الأمر لم يكتفوا بالسلطان الدنيوى بل اتخذوا لأنفسهم لقب الخلافة بعد فتح القيروان فى سنة ٢٩٧ هـ (٩٠٩م) وتبعهم عبد الرحمن النــاصر فى الأندلس فتسمى بأمير المؤمنين سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩م) كما ذكرنا .

والحق أن حركات الاستقلال وضحت واتسع انتشارها منذ القرن الثالث الهجرى كما مر بنا وتتابعت تلك الحركات ، فقامت الدولة الصفارية فى فارس ، وهو الاقليم الايرانى الذى يقــع شرقى الخليج الفارسى (٢٥٤ ــ ٢٩٠ هـ) ودولة بنى ساج فى آذربيجان (٢٦٦ ــ ٣١٨ هـ) والدولة السامانية فى اقليم ماوراء النهر (٢٧١ ــ ٣٨٩ هـ) .

ولم تكن هذه الحركات الاستقلالية مجرد ظهور مغــامرين يستقلون بهذا البلد أو ذاك الاقليم وانما كانت هذه الحركات تنم عما هو أعمق من ذلك . ويرى البعض أن هذه الحركات انما هى تعبير عن انحلال وتفكك فى الدولة الاسلامية ، وانها كانت بداية

للكارثة التى أودت بوحدة العرب والمسلمين . ولكننا نرى أن هذه الحركات لم تكن تفككا لدولة العرب والمسلمين الا اذا كانت المسألة هى مجرد سيطرة خلافة بغداد سيطرة تامة على جميع العالم الاسلامى من جميع النواحى السياسية والحربية والاقتصادية والاجتماعية . وقد رأينا ان المحاولات الاستقلالية اتضحت فى فجر الدولة العباسية وفى عنفوانها ، ومع ذلك فان العالم الاسلامى كانت تجمعه وحدة الخضوع الاسمى لخليفة المسلمين ، أو وحدة الولاء العميق للاسلام والعروبة ، والرغبة الأكيدة فى الجهاد لنصرة العالم الاسلامى والوقوف فى وجه الأخطار التى تتهدده . والحق أن هذه الحركات كانت تعبيرا عن القومية وعن الاقليمية ، فقد عظمت الدولة الاسلامية واتسعت أرجاؤها وضعف تماسك اجزائها ، وكيف يمكن توحيد عالم بأسره ممتد من الصين الى المحيط الأطلسى تحت سلطة مركزها فى بغداد ؟ ونحن نعلم أن العرب بعد الرسول عليه الصلاة والسلام زمن الخلفاء الراشدين وأيام الخلفاء الأمويين ، قهروا قوميات عريقة فى التاريخ والحضارة ، قهروا الفرس والروم والمصريين والبربر والقوط ، كما ادخلوا فى طاعتهم أقاليم جغرافية متباينة جنسا ولغة وطبيعة ، وسيطرت المدينة ودمشق وبغداد على هذا العالم الشاسع ، ولكن لم يكن من المعقول أن تستكين هذه القوميات وهذه الاقاليم تحت لواء السلطة المركزية أكثر من قرن أو قرنين من الزمان فكان لابد أن تجد لها متنفسا فى هذه الحركات . وكانت هذه الحركات

الاستقلالية طليعة التنافس بين بلاد الاسلام فى الانتاج الثقافى وفى كل أسباب الحضارة . والحق ان هذه التطورات كانت انتصارا حقيقيا للدعوة الاسلامية ولروح الاسلام فلم يفرض الاسلام امتيازا لقبائل العرب على حساب غيرهم من المسلمين وغير المسلمين ، ولم يفترض الاسلام أن يستبد العرب بالسلطان أبد الدهر وأن تسيطر قريش وخلفاؤها من العرب على أزمة الأمور، واذا كانت القوميات والاقاليم الاسلامية بدأت تتطلع الى التحرر فذلك من نعمة الاسلام . وقد وافق ظهور هذه الحركات وانتشارها ضعف الخلافة العباسية كما مر بنا .

أما مصر فكان ولاتها فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين من العرب . وأعطى الخلفاء الأمويون لعمالهم على الولايات قسطا كبيرا من الحرية والاستقلال فظهر فى مصر وفى غيرها من البلاد الاسلامية ولاة لهم سلطان الملوك مثل عمرو بن العاص وعبدالعزيز ابن مروان فى مصر ، ومثل زياد بن أبيه والحجاج بن يوسف الثقفى وخالد بن عبد الله القسرى فى المشرق ، ومثل موسى بن نصير فى المغرب .

وفى العصر العباسى يتغير الحال فالدولة العباسية قامت على أكتاف الفرس ولذا نجد بين ولاة مصر من هم من عناصر فارسية وكان آخر وال عربى على مصر هو عنبسة بن اسحق (٢٣٨ — ٢٤٢ هـ) . على أن الخلفاء العباسيين بدأوا يتخذون فرقا من الجند

الاتراك ثم استكثر الخليفة المعتصم منهم وتغلغـــل نفوذهم فى الدولة كما مر بنا وتأثرت مصر بما كان يدور فى الخلافة فوليها ولاة من الترك كانأولهم يزيد بن عبد الله التـــــركى (٢٤٢ — ٢٥٣ هـ) (١)

وتميز حكم العباسيين فى مصر بكثرة تغيير الولاة ، وقد يكون هذا الأمر راجعا الى بعد مقر الخلافة العباسية ، أعنى بغداد وسامرا ، عن مصر فلم يأمن الخلفاء أن يتركوا ولاة مصر فى الحكم طويلا لئلا يطمعوا فى الاستقلال بالبلاد ، وقد يكون ذلك راجعا أيضا الى ضعف نظام الخلافة العباسية والى ضعف الخلفاء العباسيين الحقيقى بالرغم من مظاهر العظمة الخارجية وخاصة منذ عهد المعتصم ، ولذا عنى هؤلاء الخلفاء بتولية ولاة كثيرين فى مدد متقاربة قصيرة كيلا يتمكن أحدهم من الاستقلال بها أو التمكين لنفسه فيها ، كما استخدموا البريد للتجسس على أعمال هؤلاء الولاة . على أن ما كانت تخشاه الدولة العباسية من استقلال الولاة قد تحقق نتيجة لسياسة الاقطاع التىاتبعتها، فمنذ عهد الخليفة هارون الرشـــيد (١٧٠ — ١٩٣ هـ) اتبع الخلفاء العباسيون ســـياسة اقطاع بعض أقاليم الدولة العباسية لبعض الشخصيات على أن يؤدوا مالا معينا للخلافة .

---

(١) الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاة ص ٢٠٢ « طبعة جست » وابـو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٣٠٨.

ولا ريب فى أن النظام الاقطـــاعى فى الشرق كان يختلف اختلافا كبيرا عنه فى الغرب ، ولعل أكبر فرق بين النظامين الشرقى والغربى أن الاقطاع الأوربى كان يتوارث فى أسرة صـــاحب الاقطاع وفق تقاليد وراثية معروفة ، أما فى الشرق فلم يكن من حق صاحب الاقطاع أن يورث اقطاعه ، كذلك كان الســكان فى الغرب يقطعون مع الأرض بعكس النظام فى الشرق . وقد أقطع الخليفة الرشيد افريقية (تونس الحالية) لابراهيم بن الأغلب فى سنة ١٨٤ هـ .

ويذكر المؤرخ الطبرى أنه فى سنة ٢١٣ هـ ولى المأمون أخاه المعتصم الشام ومصر ، وولى ابنه العباس بن المأمون الجزيرة (١) والثغور والعواصم (٢) . وقد ثبت المعتصم من الحكام من ثبت وعزل من عزل فى البلاد الخاضعة لحكمه . وتدل أوراق البردى على أنه فى سنة ٢١٧ هـ كانت الأوامر والرسائل التى تصدر الى الولاة باسم الخليفة المأمون يذكر فيها اسم المعتصم بجـانبه .

---

(١) الجزيرة : تعنى شمالى العراق وشمالى الشام

(٢) الثغور والعواصم : هما الخطان الدفاعيان فى شمالى الشام والعراق بين بلاد الاسلام وبلاد الروم . والثغور هى الخط الامامى الذى يلى أرض العدو مباشرة ، اما العواصم فهى خط الدفاع الداخلى الذى يلى خط الثغور فى أرض الاســـلام

وقد علمنا من نص « بروتوكول » (١) تاريخه ٢١٧ ــ ٢١٨ هـ أن الأمير المعتصم كتب اسمه بعد الخليفة المأمون مع كيدر الذى كان واليا على مصر فى سنة ٢١٧ ــ ٢١٩ هـ فى حين أن كيدر هــذا كان الوالى الذى أقامه الخليفة مباشرة (٢) .

ونلاحظ أن مصر انتهزت فرصة النزاع بين الخليفة الأمين والمأمون ثم الاضطراب الذى ساد فى أوائل حكم المأمون ،وكادت تخرج من حكم الخليفة وتستقل بأمورها . واستطاع السرى بن الحكم الخراسانى الأصل ، ان يكون لنفسه ولأسرته من بعــده ملكا شبه مستقل دام نحو عشر سنوات ، ولم تسيطر هذه الأسرة على مصر طوال هذه المدة وانما سيطرت على العاصمة دائما وعلى الوجه القبلى فى الغالب . واستطاع عبد العزيز بن الوزيرالجروى فى الوقت نفسه أن يستولى على شرقى الدلتا وحاول هو وأسرته من بعده ان يمد نفوذه على الدلتا كلها وعلى الصعيد . وغلبت قبيلتا لخم وجذام على غربى الدلتا بما فى ذلك الاســـــكندرية

---

(١) كان درج البردى يتألف من عشرين ورقة ملصق بعضها ببعض وتسمى الورقة الاولى من هذه الاوراق باليونانية Protocol وكانت تشتمل على الكتــــابة الرسمية التى تسمى الطراز « جرومان : أوراق البردى العربية بدار الكتب المصرية ج ١ ص ٤ ــ القاهرة ١٩٣٤ م »

(٢) انظر : جرومان : المحاضرة الثالثة من الاوراق البردية ص ١٠١ ــ دار الكتب المصرية ــ القاهرة ١٩٣٠ م .

وأعمالها ومريوط والبحيرة . وفى تلك الأثناء أيضا رست بالقرب من الاسكندرية مراكب فريق من الأندلسيين خرجوا من وطنهم مطرودين فى عهد أميرهم الحكم بن هشام الأموى على أثر وقعة الربض بقرطبة فى رمضان سنة ١٩٨ هـ ، وكان عددهم حوالى ١٥٠٠٠ شخص اذا استثنينا النساء والأطفال . واستطاع الأندلسيون أن يستغلوا ظروف مصر آنئذ والنزاع الذى كان سائدا بين القوى الخارجة عن الخلافة ، وبينها وبين الولاة الذين كانت الخلافة تحاول تعيينهم فى مصر ، فاستقروا فى الاسكندرية ومالبثوا أن ملكوها وأصبحوا أصحاب السلطة الفعلية فيها منذ سنة ٢٠٠ هـ ، وأصبحت الاسكندرية شبه جمهورية مستقلة للأندلسيين مدة عشر سنوات . وتحولت مصر الى قطائع مقسمة بين أفراد أو جماعات مختلفة ، كل منها مستقلة عن الأخرى وهى كلها مستقلة عن الخلافة . واستطاع الخليفة المأمون بفضل مجهودات قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين أن يستعيد مصر ثانية فى سنة ٢١١ — ٢١٢ هـ بعد أن كادت تخرج من حكم الخلافة العباسية وتستقل بأمورها . وكانت أسرة السرى بن الحكم أول أسرة شبه مستقلة فى مصر الاسلامية . وكانت هذه الأسرة مقدمة لأسرة أحمد بن طولون التى استقلت بمصر .

ولما ولى المعتصم الخلافة (٢١٨ — ٢٢٧ هـ) حذا حذو الخليفة الرشيد والمأمون فى سياسة الاقطاع ، وكان الأتراك قد بدأوا يتمكنون من الخلافة العباسية فأقطع المعتصم اشناس التركى

ولاية مصر . وقد علمنا من أوراق البردى العربية أن القائد أبا جعفر اشناس تولى الامارة على مصر فى سنة ٢١٩ هـ من قبل المعتصم ثم أذن له بأن يولى الحكام بنفسه ، وكان يذكر اسمه فى خطبة الجمعة مع الخليفة . ومنذ سنة ٢٢٧ هـ كان تحت حكم اشناس دولة تمتد من بغداد الى آخر حدود المغرب . وكذلك نعرف من أوراق البردى ان السكة ضربت باسمه كما نقش اسمه على الموازين والمكاييل . وظل أشناس صاحب اقطاع مصر ويعين ولاتها من قبله الى أن توفى سنة ٢٣٠ هـ .

ثم أعطى الخليفة الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) مصر لايتاخ التركى اقطاعا له . ولم تقتصر سلطة ايتاخ على مصر ، بل نرى الخليفة المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) يفوض اليه فى سنة ٢٣٤ هـ أمر الكوفة والحجاز وتهامة ومكة والمدينة مضافا الى مصر(١) . ولكن لم يلبث المتوكل أن أمر بالقبض على ايتاخ فى المحرم سنة ٢٣٥هـ وأقطع مصر ابنه وولى عهده المنتصر الذى ظل يولى ولاة مصر الى أن توفى المتوكل وولى المنتصر الخلافة (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ) وفى مجموعة الأوراق البردية المحفوظة فى فينا والتى كونها الارشيدوق رينر ، وثيقة بردية من سنة ٢٤٢ هـ (٨٥٦م) صادرة من المنتصر الى نائب الوالى العباس بن عبد الله بولايته على مصر وبرقة والاسكندرية .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٧٥.

والراجع أنه يزيد بن عبد الله الذى كان أول وال حكمها من الترك . وظل يزيد فى هذه الوظيفة حتى ولى الخلافة المعتز سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦م) . وقد ذكر المستشرق الانجليزى ستانلى لين بول ، خطأ ، فى البيان الذى كتبه عن ولاة مصر أن مصر أقطعت الى الفتح بن خاقان فى عصر المنتصر . ولكن الحقيقة أن الفتح بن خاقان قتل مع المتوكل أثناء المؤامرة التى دبرها الجند ونجح بوساطتها المنتصر فى الاستيلاء على العرش . ويذهب بعض المؤرخين الى أن المتوكل قبيل قتله سحب اقطاع مصر من ابنه المنتصر وأقطعها للوزير الفتح بن خاقان .

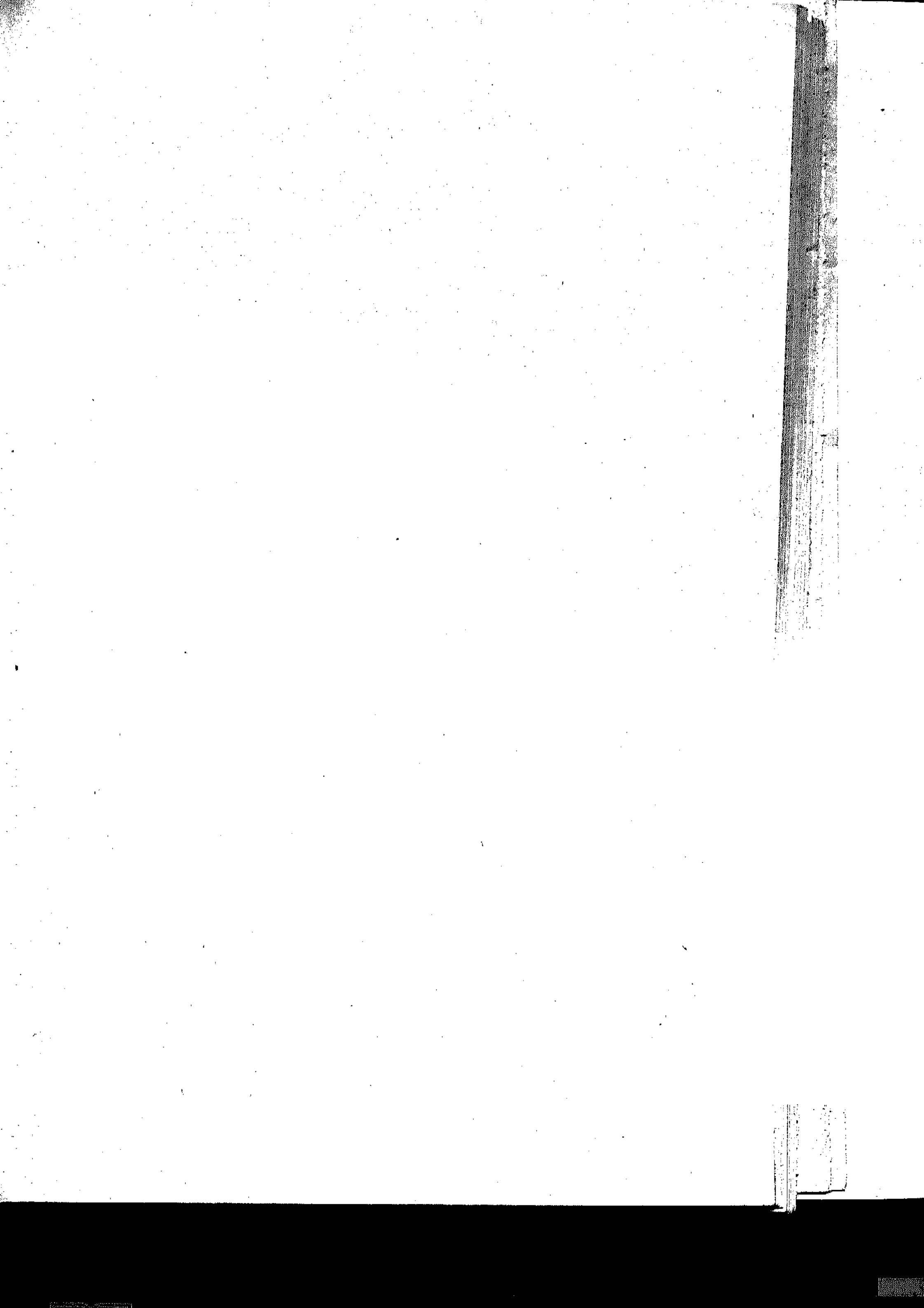
والمعروف أن الخليفة المعتز عزل والى مصر التركى يزيد بن عبد الله فى سنة ٢٥٣ هـ (٨٦٧م) وولى بدله مزاحم بن خاقان . وتوفى مزاحم فى العام التالى فعين الخليفة بدلا عنه ابنه أحمد ابن مزاحم . ثم عزل وخلفه فى العام نفسه تركى آخر هو ازجور طرخان ، ولكنه لم يحتفظ بوظيفته هذه الا بضعة أشهر نجح أثناءها فى اخماد ثورة علوية قام بها شخص اسمه بغا . وفى سنة ٢٥٤ هـ اقطعت مصر الى باكباك التركى فبعث نائبا عنه أحمد بن طولون .

وقد أدت سياسة اقطاع الاتراك ولاية مصر الى نتيجة لم تكن فى الحسبان . اذ كان هؤلاء القواد الترك يؤثرون البقاء فى عاصمة الخلافة خشية أن تدبر ضدهم الدسائس ، كما كان الخليفة نفسه

يرحب ببقائهم فى العاصمة خوفا من أن يستقلوا بالبلاد التى كانوا يحكمونها . فكان هؤلاء الأتراك لايحكمون بأنفسهم بل يستخلفون من يقوم بالأمر نيابة عنهم على أن يحمل اليهم هؤلاء النواب الأموال ويدعون لهم على المنابر كما يدعى للخليفة . واذا كان الخلفاء يراقبون أصحاب الاقطاع لئلا يستقلوا بالبلاد فانه لم يكن فى استطاعتهم ، أو لم يدر بخلدهم أن يراقبوا نوابهم.

الفصل الرابع

أحمد بن طولون في مصر



وصل ابن طولون الى مصر فى رمضان سنة ٢٥٤ هـ (منتصف سبتمبر سنة ٨٦٨ م) ومعه تابعه الشاب ، الواسطى ، الذى كان قد عهد اليه بخدمة المستعين حين كانت حراسته موكولة اليه.

والمعروف أنه اصطحب معه بعض الجند ولعله أراد بذلك أن يدافع عن نفسه فى أى ثورة قد يقوم بها الشعب ضده ، أو أن يحبط الدسائس التى قد يدبرها سائر الموظفين . ولقى ابن طولون عند وصوله احمد بن المدبر عامل الخراج ، وشقير الخادم عامل البريد ، وكان شقير من موالى قبيحة والدة المعتز . والمعروف أن عامل البريد كان موظفا فى مقر الخلافة أو السلطان ويرحل الى سائر الأقاليم والولايات ليكون عينا للحكومة المركزية على الولاة وغيرهم من الموظفين . أما ابن المدبر فانه جاء الى مصر عاملا على خراجها . ولا نعرف بالضبط متى ولى خراجها فيذكر المقريزى فى كتابه الخطط أنه ولى بعد سنة ٢٥٠ هـ ، وهناك نص فى تاريخ اليعقوبى يشير الى أنه ولى سنة ٢٤٧ هـ . ويلاحظ بيكر Becker حسب ما ورد فى أوراق البردى أن ابن المدبر ولى خراج مصر منذ سنة ٢٤٧ هـ لا كما يذكر المقريزى بعد سنة ٢٥٠ هـ [1] . وذكر ابن طباطبا حديثا لابن المدبر فى كتابه (الفخرى) يفهم

(1) Zaky M. Hassan : Les Tulunides p. 37

منه أنه كان فى السجن سنة ٢٣٣ هـ مع أحمد بن اسرائيل ، وسليمان بن وهب الذى أصبح بعد ذلك وزيرا للمهتدى (٢٥٥ ــ ٢٥٦ هـ) . وكان أحمد بن المدبر وأخواه من الأدباء ، ونسب اليه ابن النديم كتابا سماه « المجالسة والمذاكرة » . وأكبر الظن أن أسرة ابن المدبر ترجع الى أصل فارسى . وكان ابن المدبر داهية فى الحكم . ولاريب فى أنه حصل فى مصر على سلطان واسع . وكان ابن المدبر قد بدأ حياته فى وظائف الدولة فى عهد الخليفة الواثق ، وتقدم سريعا فى أعمال المالية فى عصر المتوكل . وعين سنة ٢٤٠ هـ (٨٥٦م) عاملا على الخراج فى حمص ثم جاء عاملا على الخراج فى مصر كما ذكرنا . ولجأ ابن المدبر الى بعض الأساليب ليزيد الدخل فى الميزانية ولم يكن يرمى الى [illegible] الدخل والمنصرف فحسب بل كان يريد جمع الأموال الطائلة لنفسه ، وليقدم الهدايا والأعطيات الى الحكومة المركزية حتى يأمن على مركزه ، ولذلك نراه يغتصب ثروة الأغنياء ويطمع فى أموالهم كما أدخل فى مصر ضرائب جديدة ولجأ الى القسوة فى جبايتها . وكان مما ابتدعه ابن المدبر أنه أحاط بالنطرون (كربونات الصوديوم) وحجر عليه بعد أن كان مباحا لجميع الناس ، وفرض ضريبة على الكلأ الذى ترعاه البهائم سماها «المراعى» ، وفرض ضريبة على مايستخرج من البحر سماها المصايد . وتتبين من الأوراق البردية التى نشرها الاستاذ آدولف جرومان أن ضريبة مراعى المواشى ، وضريبة الصيد فرضت

بين سنتى ٢٤٧ و ٢٥٣ هـ (١) . وانقسمت ضرائب مصر منذ مجىء ابن المدبر الى ضرائب خراجية وهى التى تجبى سنويا ، وضرائب هلالية وهى التى تجبى شهريا ، وعرفت الضرائب الهلالية باسم « المرافق والمعاون » . وزاد بؤس الشعب فى مصر وأصبح ينوء تحت عبء ثقيل من الضرائب ، وقام ببعض ثورات فى الاسكندرية وشرقى الدلتا والجيزة ، ولكنها أخمدت كلها بقسوة فظيعة . وكان مقدرا أن تظل هذه الضرائب الثقيلة حتى يعهد بأمر مالية البلاد الى أحمد بن طولون فيسعى فى الغاء الضرائب التى أدخلها ابن المدبر .

وقد لحظ ابن طولون حين وصل الى مصر أن ابن المدبر كان يعيش بها فى أبهة وفخامة ومظهر جليل يفوق ماكان للولاة أنفسهم فكان يصحبه فى غدواته وروحاته حرس من مائة غلام امتازوا بجمالهم وقوتهم البدنية ، وحسن هندامهم وابداع ملابسهم الفاخرة . وقدم ابن المدبر للقاء أحمد بن طولون محوطا بحرسه المذكور ، وقدم اليه هدية من نحو عشرة آلاف دينار فرفضها ابن طولون ، وعجب ابن المدبر لذلك ، فانه لم يتعود قبل ذلك أن ترفض هداياه . ولذا فقد طلب الى كاتبه أن يحرر رسالة الى البلاط فى مقر الخلافة ليلفت نظر أولياء الأمر الى أن مثل

---

(١) انظر : دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٥٨ وما ذكرته من مراجع « القاهرة ١٩٤٧ » .

ابن طولون لا يجب أن يولى الا فى حاضرة الدولة أو ضواحيها ، فلما استفسر منه الكاتب عن العلة فى ذلك أجاب بأن نفسا ترفض هدية عشرة آلاف دينار ليس من الحكمة أن يوكل اليها أمراقليم بعيد عن الحكومة المركزية . والمعروف أن أحمد بن طولون لم يلبث أن بعث الى زميله ابن المدبر يبلغه أنه يسره أن يتقبل منه المائة حارس الذين يحيطون به فى غداوته وروحاته لأنهم ألزم له. ولم يشأ ابن المدبر أن يخاطر بالرفض ، فاضطر الى التنازل عن هذا الحرس . وبفقده فقد قسطا وافرا من سلطانه وعظمة مظهره التى كانت لاتتفق مع ما للوالى أو لنائبه من أسبقية على العامل على الخراج .

ولا غرابة اذا رأيناه بعد ذلك يتحدث الى كاتبه قائلا ان صفة أخرى تظهر فى أحمد بن طولون فهو يرفض المتاع والمال ، ولكنه يطلب الحرس من الرجال الذين يستطيعون تأييده والدفاع عنه .

ومنذ تلك الساعة بدأ النضال بين ابن طولون وابن المدبر ، ذلك النضال الذى انتهى بفوز ابن طولون . ولكنهما كانا لايتنازعان على تفوق السلطان وعلو الكلمة فى مصر نزاعاشخصيا فى مصر بقدر ماكانا يتنازعان على ذلك بواسطة عمالهما وجواسيسهما فى سامرا .

وكانت دسائس الجند الترك فى سامرا وما أحدثوه من شغب

قد أدى الى تغيير فى العرش . فان المعتز كان قد دعا الى مساعدته الأمير الطاهرى من خراسان . فأرسل الأمير محمد عمه الى سامرا وظن الجميع أنه سيضع حدا لاستبداد الجند الترك ولكن رؤساء هؤلاء الجند أفلحوا فى حمل الخليفة على ابعاد هــذا الأمير الطاهرى . ولما تم لهم ذلك عادوا الى دسائسهم وشغبهم . وحاول المعتز أن يستغل ما كان من الخلاف بين أحزابهم ، بل اســتطاع أن يقضى على أحدهم وهو بغا ، ولكن الرؤساء الآخرين ، وعلى رأسهم باكباك ، هاجموا الخليفــة وطالبوه بأموال لم يســتطع دفعها فأساؤا معاملته واضطروه الى التنازل عن العرش ثم انتهوا الى قتله سنة ٢٥٥ هـ (٨٦٩ م) . وخلفه المهتدى ابن الواثق . ولكنا لن نترك حكم المعتز قبل أن نشير الى مرحلة جديدة من مراحل تفكك الامبراطورية بدأت فى عصره ، وهى ظهور بنى الصــفار فى الأقاليم الشرقية من الامبراطورية الاسلامية . والدولة الصفارية تنسب الى مؤسس الدولة وهو يعقوب بن ليث الصفار الــذى نشأ فى سجستان ، بجوار هراة واشتغل فى حداثته هو وأخوه عمرو بصناعة الصفر (أى صناعة النحاس الأصفر والذهب) ، ثم احترف الجهاد والقتال ولاسيما ضد الخوارج ، وصار له أتباع يدينون له بالطاعة وينصرونه ، وأعجب به الوالى العباسى فعينــه قائدا لجنده . ولما توفى الوالى العباسى وخلفه ابنه ثار الصــفار ولم يلبث أن أصبح فى سنة ٢٥٣ هـ (٨٦٧م) السيد المطــاع فى الاقليم كله ، فطلب الى الخليفة أن يعينه واليا على اقليم «فارس»

على أن يسير اليها فيخرج منها على بن الحسين الذى كان قدتغلب عليها ، بل انه تقدم فعلا الى فارس وهزم والى ذلك الاقليم ودخل شيراز عاصمته ولـكنه لم يمكث فيها طويلا . وأقلق نشاطه بال البلاط العباسى الذى كان منهمكا فى حروب الزنج ، ولذا رأى العباسيون ، رغبة فى تحويل نظره ، أن يقطعوه بلخ وطخارستان والسند ، ولكن هذا لم يحقق أطمـاعه فلم يلبث سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٣م) أن أغار على خراسان وأخضع بنى طاهر ، على أن الخليفة لم يعترف بهذا الفتح ، ويقال انه ولى الصفار على خراسـان وطبرستان وغيرها . ومهما يكن من الأمر فقد سار الصفار بجيشه الى العراق وهزمته جنود الخلافة عند دير العاقول بين بغـداد وواسط وذلك سنة ٢٦٢ هـ (٨٧٦م) ، فتراجع الى سجستان ومات فيها بعد ثلاث سنين . وخلفه أخوه عمرو فخضع للخليفة الـذى أقطعه الأقاليم التى تتكون منها ايران الحالية تقريبا ، ولـكن الكفاح ظل قائما بين الخلفاء وبنى الصـفار مرة ، وبينهم وبين أعدائهم فى ايران مرة أخرى . ولم يتح لعمرو الصفار أن ينعـم بشىء من الراحة قبل سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٦م) ومع ذلك فان هـذه الراحة لم تدم طويلا ، اذ قام القتال بينه وبين السامانيين ، وأسر سنة ٢٨٧ هـ (٩٠٠م) وأخذ الى بغداد فأعدمه الخليفة المعتضد . وخلفه حفيده ولـكنه أسر أيضا . وحاول بعض أقاربه أن يستردوا سلطان أسرتهم ، ولـكن عبثا حاولوا فقد أقطعت بلاد سجستـان

الى بنى سامان ، وظل بنو الصفار يناهضون الأمراء الجدد بعض الزمن .

أما بنو سامان فلم يكونوا من عامة الشعب كما كان بنو الصفار . فالمعروف أن سامان كان من النبلاء الفرس وأن أحفاده الأربعة ظهروا فى خدمة المأمون فولاهم حكم بعض المدن فى خراسان حيث كانوا يتبعون بنى طاهر الى حد ما . فعين أحمد على فرغانة ، ونوح على سمرقند ، والياس على هراة ، ويحيى على شاش . ولما توفى نوح استولى أخوه أحمد حاكم فرغانة على سمرقند وضم اليها كشغر ، ثم خلفه ابنه سنة ٢٦١ هـ (٨٧٤م) ، وهكذا نشأت الدولة السامانية التى قدر لها أن تحكم الى سنة ٣٨٩ هـ (٩٩٩م) حين قضى عليها هجوم الغزنويين فى الجنوب وأسرة الايلخان فى الشمال . وكان لبنى سامان شأن عظيم فانهم أخذوا خراسان من الدولة الصفارية وأخذوا طبرستان من العلويين ثم كانوا عنصرا أساسيا فى نهضة الآداب والفنون فى ايران . وفى عصرهم كانت بخارى وسمرقند من أعظم مراكز المدنية فى شرقى العالم الاسلامى .

وهكذا نرى أن الأقاليم الشرقية من الدولة العباسية كانت تفلت الواحد بعد الآخر من يد الحكومة المركزية ، بل ان العاصمة العباسية نفسها لم تكن تأمن هجوم الجند من تلك الأقاليم .

وحاول الخليفة المهتدى أن يتخلص من نفوذ الترك فى سامرا . وكان عادلا وتقيا ولكنه لم يستطع رغم ذلك أن ينجو من

أيديهم فعذبوه وأرغموه على التنازل عن العرش ثم قتلوه سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠م) .

وقامت فى عصره القصير ثورة كبيرة هى ثورة الزنج التى كان مصير أحمد ابن طولون معلقا بها ، والتى سهلت استقلاله الى حد كبير . وبلغت هذه الثورة غايتها العظمى فى حكم المعتمد الذى هجر سامرا وأعاد مقر الحكم الى بغداد .

واذا أردنا أن نصف حكم المعتمد فليس أفضل من النظر فى هذه السطور المقتبسة من كتاب الفخرى لابن الطقطقى : «كان المعتمد مستضعفا ، وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره . وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع . كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة ، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بأمرة المؤمنين ، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقود العساكر ومحاربة الأعداء ، ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء ، وكان المعتمد مشغولا عن ذلك بلذاته» . والواقع أن هذا الحكم الثنائى فى عصر المعتمد كان له خطره فى تاريخ مصر . فسنرى أن أحمد بن طولون سيناضل الموفق دون الخليفة نفسه .

وليس هذا غريبا فى شىء فقد كانت الأنظار كلها متجهة الى الموفق ولاسيما فى كفاحه ضد الزنج .

وكان هؤلاء الزنوج عبيدا من السود قدموا الى البصرة من افريقية الشرقية . ولم تكن الثورة التى شغل الموفق بقمعها أول ثورة قاموا بها فالمعروف أنهم ثاروا قبل ذلك فى عصر عبد الملك ابن مروان سنة ٧٦ هـ (٦٩٥ م) فقمع الحجاج ثورتهم فى ظرف قصير .

أما فى المرة التى نحن بصددها الآن فان علويا قام فى عصر الخليفة المهتدى وادعى أنه من نسل الحسين بن على ، ولو أن معظم المؤرخين يعتبرونه خارجيا لا تجمعه بالحسين صلة نسب أو قرابة . ومع ذلك فقد أصبح هذا العلوى محبوبا جدا فى البصرة لذكائه وقوة اقناعه . ثم أفلح فى اثارة الزنج الذين كانوا نازلين على مقربة من البصرة ، وجمع حوله كثيرا غيرهم من الساخطين أو المؤمنين بدعوته العلوية ، أو الراغبين فى السلب والغنيمة . والحق أن ثورة الزنج كانت تعبيرا عن مشكلة اجتماعية اقتصادية عميقة الجذور ، بل ان العصر العباسى حفل بمثل هذه المشكلات التى كانت وراء الفتن والثورات المختلفة والتى كانت تتخذ المظهر الدينى قناعا لها . ففى العصر العباسى انتقل المجتمع من مجتمع زراعى الى مجتمع تجارى ونشأت طبقة رأسمالية من الارستقراطية العربية والارستقراطية الفارسية ، وانقسم المجتمع على أساس اقتصادى وليس على أساس عنصرى ، وتحكمت هذه الطبقة الرأسمالية فى الحياة الاقتصادية وأصبح لها الألوف المؤلفة من الأموال استغلتها فى التجارة الدولية التى ازدهرت منذ قيام الدولة العباسية ونشأ

عن التوسع والازدهار التجارى تحســن فى أســاليب الزراعة واتجاه الى امتلاك الضياع الكبيرة . وهكذا ســيطرت فئة قليلة على موارد الرزق وتحكمت فيه وأدى هذا الى وقوع الجماهير من العرب والموالى فى وضع اقتصــادى واجتمــاعى منخفض . وكانت ثورة الزنج أول صرخة اجتماعية اقتصادية خطرة فى العصر العباسى الثانى ضد النظام الاجتماعى والاقتصادى السائد . اذ لجأ بعض أصحاب الضياع الواسعة الى استخدام العبيد فى مزارعهم ونظم التجار الحملات لاصطيادهم أو لشرائهم من شرق افريقية وأواسطها ، وخاصة من الصومال وزنجبار ، وجلبوا منهم الألوف . واستخدم الزنج فى مختلف جهات العراق ولاسيما فى الأراضى المحيطة بالبصرة . وكانوا يشتغلون عادة جماعات تتراوح بين ألف وخمسة آلاف ، وقد يكون العدد أكثر من هذا بكثير اذ بلغ عدد احدى الجماعات التى كانت تشتغل على نهر الدجيل خمسة عشر ألفا . وكانت ثورة الزنج تشبه من وجوه كثيرة ثورة العبيــد المشهورة فى التاريخ الرومانى . ولم يكن الرقيق فى الحيــاة الاسلامية مثل اخوانهم فى ظل الحياة الرومانية الذين كانوا عماد الانتاج ودعامته ، وانما اعتمد الانتاج الاسلامى فى الغالب على الفلاحين الأحرار والصناع أما العبيد فكانوا يستخــدمون فى الأعمال المنزلية أو فى الجيش . ولكن تغير الظروف الاقتصادية فى العصر العباسى كما ذكرنا غير من هذا الوضع فاستخدم العبيد فى عدد من المشروعات الواسعة مثل تجفيف المستنقعات والزراعة .

وكان الشعور بالولاء الذى يربط العبد بسيده فى المجتمع الاسلامى معدوما عند هؤلاء الزنوج ، وأدى تكتلهم على نطاق واسع الى سريان التذمر من وضعهم الاقتصادى والاجتماعى والى بعث شعور عام بينهم بالمصلحة والقيام ضد أسيادهم .

فكانت ثورة الزنج تستهدف تحرير الرقيق من الزنوج فقط كما أنها تكشف لنا عن مدى فظاعة استغلال الرقيق بشكل يخالف مبادىء الاسلام كما يمثل جشع أصحاب رءوس الأموال . وأتى الزنوج فى ثورتهم بفظائع ومنكرات أسهب الطبرى فى التحدث عنها وهى تظهر شدة حقد الزنوج على أسيادهم وحنقهم على المجتمع الاسلامى . ولم تنقض هـذه الثورة الا بعد أن خربت مزارع قسم كبير من السواد جنوبى العراق ودمرت عددا كبيرا من قراه ومدنه الهامة مثل البصرة والأبلة .

وقد سار هـؤلاء الزنج الى البصرة وعلى رأسهم زعيمهم العلوى فاستولوا عليها وبدءوا سلسلة من الغزوات أصابت وادى الفرات الأدنى بكثير من الخسائر ، ثم غزوا اقليم الأهواز (شرقى منطقة البصرة وهى عيلام القديمة) حيث سجنوا العامل على الخراج فيها وهو ابراهيم بن المدبر أخ احمد بن المدبر الذى كان يتولى مثل هذه الوظيفة فى مصر حين قدم اليها احمد بن طولون .

وظل القتال نحو أربعة عشر عاما بين هؤلاء الثوار وجند الخليفة . والحق ان جند الخليفة كانوا فى ذلك الحين لا ينقطعون

عن الحرب فى جهة الا ليحاربوا فى جهة أخرى . وقد ذكرنا أنهم هزموا الصفار فى دير العاقول . والظاهر أن الصفار ادعى أنه لم يهاجم جند الخليفة الا لافلاس الخليفة فى مهمته وعجزه عن اقرار الأمن فى البلاد . وذكر المسعودى فى هذا الصدد : « ويقال ان يعقوب بن الليث قال انه خرج منكرا على المعتمد ومن معه من الموالى اضاعتهم الدين واهمالهم صاحب الزنج فقال :

خراســـــان أحـــويها وأعمـــــال فارس
ومـــا أنـــا من مـــلك العــــراق بآيس

اذا ما أمـــور الدين ضــــاعت وأهملت
ورثت فصــــارت كالرســـوم الدوارس

خـــرجت بعـــون الله يمنـــا ونصـــرة
وصـــاحب رايات الهـــدى غـــير حارس .»

ومهما يكن من الأمر فان الحروب الطويلة بين حكومة الخليفة من ناحية ، والزنج من ناحية أخرى قاسى بسببها سكان وادى الفرات الأدنى ولا سيما أن الفريقين اتخذا لهما مراكز حصينة أعظمها معسكر صاحب الزنج وسماه المختارة ، بينما سمى الموفق معسكره الموفقية . وأخيرا نجح الموفق بعد أربعة عشر عاما فى هزيمة الزنج وحملت رأس زعيمهم الى بغداد .

وهكـــذا نرى أن الدولة العباسية كانت مهـــدده فى الشرق بمحاولة الحكام أن يستقلوا بما فى أيديهم ، وكانت مهـــددة فى

الجنوب بثورة الزنج التى شغل باخضاعها الموفق ، وهو الرجل الوحيد الذى كان يمكنه أن يقاوم أى حركة استقلالية يقوم بها احمد بن طولون . وكانت فضلا عن ذلك مهددة بما بين الخليفة وأخيه الموفق والجند الترك من نزاع ودسائس . ولاعجب اذن أن انتهز ابن طولون هـذه الفرص ليصبح صاحب الأمر فى مصر وادى النيل .

وجاء فى ابن اياس أن ابن طولون لما دخـل مصر « كان فى أضيق حال يحتقره كل من يراه ، قيل كان بمصر رجل من الأعيان يقال له على بن معبد البغدادى ، وكان فى سـعة من المال ، فلما بلغه حضور الأمير أحمد خرج الى تلقيه فلما رآه فى ضيق حال أرسل اليه عشرة آلاف دينار فقبلها ، ورأى بها موقعا . وحظى ذلك الرجل عنده فكان لا يتصرف فى شىء من الأمور الا برأى ذلك الرجل وتضاعفت عنده منزلته الى الغاية » .

ولسنا نعجب اذن من تفكير ابن المدبر حين رفض ابن طولون هديته على الرغم مما كان فيه من فقر ، ثم حين طلب منه ، بدلا من المـال ، العبيد الذين كانوا يحرسونه والذين كان يفتخر بهم ويدلون على ما كان له من حول وسلطان .

ولما أدرك ابن المدبر وشقير ان احمـد بن طولون سيكون صعب المراس ، وأن نفوذه سـيغطى على ماكانا يتمتعـان به من سلطان فقد بدءا دسائسهما وكتب شقير الى عاصمة الخلافة أن

ابن طولون يستعد للاستقلال بمصر . ولكن ابن طولون كانت له علاقة طيبة ببعض أقطاب الحكم فى سامرا . بل انه كان قد أفلح فى استمالة حسن بن مخلد ، بالهدايا وكان حسن هذا قد أصبح وزيرا للمعتمد مع بقائه كاتبا لأخيه الموفق . وأسدى حسن ابن مخلد الى ابن طولون خدمة جليلة فلم يكن يخبره بالدسائس التى كان يدبرها اعداؤه ضده فحسب بل ارسل اليه الكتاب الذى كان شقير قد أرسله الى عاصمة الخلافة . وكذلك عرف أحمد بن طولون من أعوانه وعيونه فى سامرا ماكان يدور حول قضيته . وحدث فى ذلك الوقت أن اعتزل الخليفة المعتز وقتل وبلغ ابن طولون ذلك فأدرك زوال سلطان أم المعتز التى كان شقير مولى لها ، ومن ثم أرسل فى طلبه ليسأله عما كان يدبره ضده وليجزيه على ذلك شر الجزاء . والظاهر أن الشرطة الذين وكل اليهم أمر احضار شقير أوسعوه ضربا وتعذيبا حتى لم يبق الا ارجاعه الى منزله وتركه ليموت .. وقيل فى رواية أخرى ذكرها اليعقوبى فى تاريخه أن المعتمد عزل شقيرا من منصبه فى مصر .

أما ابن المدبر فان ابن طولون لم يكن يستطيع أن يعامله بنفس الطريقة لأن الأول كان فى امكانه أن يكسب الأنصار والأعوان فى العراق بما كان يغدقه من العطايا ، وفضلا عن ذلك كله فان أخاه ابراهيم بن المدبر كان قريبا من بلاط الخليفة . وقد مر بنا الحديث عن ابراهيم وأسره على يد الزنج ثم فراره ، ونضيف هنا أنه كان شاعرا وكاتبا وأديبا ، وتولى عدة وظائف جليلة . وذكر

ياقوت الحموى فى كتابه « معجم الأدباء » أنه وزر للخليفة المعتمد على الله لما خرج من سر من رأى يريد مصر ومات فى سنة ٢٧٩ هـ (٨٩٢م) وهو يتقلد للمعتمد ديوان الضياع ببغداد .

ومهما يكن من الأمر فان سلطان ابن طولون ونفوذه بدأ فى الزيادة ، وخير دليل على ذلك موقفه مع بعض ولاة الأقاليم فى مصر . فالمعروف أن بعض هؤلاء الولاة اعتاد ألا يعنى بوالى مصر ، وأن يعمل مستقلا وبدون خضوع لأوامر العاصمة فى مصر ، اما لأنهم عينوا مباشرة من قبل صاحب الاقطاع ، واما لأنهم ظنوا أنفسهم من القوة بحيث يستطيعون أن يستبيحوا الاستهانة بالوالى . ولكن ابن طولون عمل على فرض سلطانه عليهم بشتى الوسائل .

وحدث فى العراق وفى الشام أشياء جعلت الفرصة سانحة لأن يظهر أحمد بن طولون مهارته السياسية ومكنته من تجنيد جيش كبير . والواقع أن دسائس رؤساء الجند الترك فى سامرا سهلت مهمته الى حد كبير ، فان هذه الدسائس حملت الخليفة المهتدى على معاداة باكباك فأمر بضرب عنقه والقاء رأسه على أتباعه . وأقطعت مصر الى رئيس من رؤساء الجند الترك هو يارجوخ ، وفى بعض الروايات ماجور . والظاهر أن الخليفة المهتدى أراد أن يكسب هذا الزعيم فمنحه امارة مصر . وذكر المسعودى أن زعيمين من زعماء الجند الترك لم يشتركا فى اعتداء مواطنيهما على

الخليفة ، وأحد هذين الزعيمين هو يارجوخ . ولكن الذى يعنينا بنوع خاص هو أن يارجوخ كان حما ابن طولون . ومما يلفت النظر ان ابن خلدون فى تاريخه لم يذكر هذه القرابة ، بل أشار الى المودة العظيمة التى كانت بين الرجلين .

ولم يكتف يارجوخ بتثبيت صهره أحمد بن طولون فى النيابة عنه بمصر ، بل منحه سلطانا كاملا على البلاد . وكتب المقريزى فى ذلك فى كتابه الخطط « واتفق موت المعتز فى رجب سنة خمس وخمسين وقيام المهتدى بالله محمد بن الواثق وقتل باكباك ورد جميع ما كان بيده الى ماجور التركى حمو ابن طولون فكتب اليه : تسلم من نفسك لنفسك ، وزاده الأعمال الخارجة عن قصبة مصر ، وكتب الى اسحق بن دينار وهو يتقلد الاسكندرية أن يسلمها لأحمد بن طولون ، فعظمت بذلك منزلته » . ونلاحظ هنا أن المقريزى يسمى حما ابن طولون ماجور وليس يارجوخ .

وهكذا لم يبق لأحمد بن طولون الا التخلص من أحمد ابن المدبر . حقا ان ابن المدبر — على حد قول المقريزى « كثر قلقه وغمه ودعته ضرورة الخوف من ابن طولون الى ملاطفته والتقرب من خاطره » ، ولكنه لم يقلع عن الكتابة ضد ابن طولون . وكان حسن بن مخلد وبعض أعوان ابن طولون وعيونه يرسلون اليه الكتب التى كان ابن المدبر يبعث بها الى مقر الخلافة . فلم ير ابن طولون بدا من مضاعفة الجهد حتى استطاع

أن يحصل من الخليفة المهتدى على عزل ابن المدبر من ولاية الخراج فى مصر . وعين بدله عامل آخر هو محمد بن هلال ، ولكنه كان خاضعا لابن طولون . ولدينا دليل مادى على وجوده، هو قطعة من النسيج محفوظة فى دار الآثار العربية عليها سطر من الكتابة بالخط الكوفى البسيط من الحرير الأحمر ، ونصها :

« (بركة من الله لعبد الـ) له محمد الامام المهتد (ى) بالله أمير المؤمنين أيده الله مما عمل بالسليد (؟) بالسكند (رية) على يد محمد بن هلال سنة ست وخمسين ومأتين »(١) .

ولكن هذا العامل الجديد على الخراج لم يمكث فى عمله طويلا ، لأن قتل الخليفة المهتدى أدى الى تولية المعتمد فارتفعت أسهم ابراهيم بن المدبر فى بلاطه ، وأعيد أحمد بن المدبر الى ولاية الخراج فى مصر ، ولكنه لم يستعد سلطانه الأول ، وذلك بفضل نشاط ابن طولون وقوة شكيمته .

وحدث فى هذا الوقت أن أحمد بن عيسى بن شيخ الشيبانى والى فلسطين والأردن كان قد توفى واستولى ابنه على أعماله وشق عصا الطاعة على الخليفة ، ثم استولى على سبعمائةوخمسين ألف دينار كانت مرسلة من مال مصر الى العراق . وفكر الخليفة المهتدى فى أن يكل الى ابن طولون أمر اخضاع ذلك الثائر .

---

(١) انظر : Zaky M. Hassan : Les Tulunides. p. 46 وما ذكره من مراجع .

وكان أحمد بن طولون لا يتأخر عن القيام بذلك لأن ابن الشيخ لم يكن ثائرا على الخلافة فحسب ، بل كان منافسا خطيرا وجارا مقلقا لابن طولون ، والظاهر انه كان يطمع فى ملك مصر . ونص المقريزى فى الخطط ، على ذلك بعبارة مختصرة فكتب « وكانت الأمور قد اضطربت ببغداد فطمع ابن شيخ فى التغلب على الشامات وأشيع أنه يريد مصر » .

وبادر ابن طولون بتعبئة ما لديه من الجند ، كما عنى بالاسراع فى تكوين جيش قوى يساعده فى اخضاع ابن الشيخ ويكون فى الوقت نفسه عدته فى نجاح قضيته الشخصية حين يرى الوقت مناسبا لاثارتها . ولذلك طلب ابن طولون اذن الخليفة فى شراء عدد كبير من العبيد الترك والسودان والحبش وسكان جزائر البحر المتوسط . أما ابن الشيخ فقد أبى أن يعترف بسلطان المعتمد ، وهو الخليفة الجديد . وعرض عليه المعتمد أن يوليه ارمينية اذا قبل الخضوع ونزح عن الشام فرفض ، ولعله كان يريد الجمع بين الولايتين ، وأن يضيف اليهما مصر اذا استطاع الى ذلك سبيلا . ولكن المقريزى ذكر فى هذه المسألة رواية أخرى . قال : « فلما قتل المهتدى فى رجب سنة ٢٥٦ وبويع المعتمد بالله أحمد بن المتوكل لم يدع ابن شيخ له ، ولا بايع هو ولا أصحابه ، فبعث اليه بتقليد أرمينية زيادة على ما معه من بلاد الشام وفسح له فى الاستخلاف عليها والاقامة على عمله فدعا حينئذ للمعتمد » .

وعلى كل حال فان المعتمد كتب الى ابن طولون ليتأهب لحرب ابن شيخ « وأن يزيد فى عدته ، وكتب لابن المدبر أن يطلق له من المال ما يريد ، فعرض ابن طولون الرجال ، وأثبت من يصلح واشترى العبيد من الروم والسودان ، وعمل سائر ما يحتاج اليه »

وبعد أن تم كل هذا الاستعداد كتب ابن طولون الى ابن الشيخ يدعوه الى الخضوع فلم يفعل . واستخلف ابن طولون على مصر أخاه موسى وسافر على رأس جنده الى أن وصلوا حدود فلسطين . ولعله كان حريصا كل الحرص على ابقاء جيشه سليما لينفعه فى فرص أخرى ، اذا كان فى استطاعته أن يتجنب الحرب. فاننا نرى انه كتب مرة ثانية الى ابن الشيخ يدعوه الى الخضوع والى ارجاع المال الذى كان مرسلا من مصر الى العراق والذى اغتصبه حين مروره فى أرضه . ولما لم يتلق ابن طولون من خصمه ردا مرضيا استعد لمهاجمته ، ولكنه تلقى من الخليفة أمرا بالعودة الى مصر . وعهد بأمر اخضاع ابن الشيخ الى اماجور الذى أقطع الشام . فهل أدرك الخليفة فى اللحظة الأخيرة أن من الحكمة منع ابن طولون من التوغل فى الشام لئلا يضمها الى مصر ويستقل بهما ؟ ! أو هل كان المطلوب التخلص من أماجور بتكليفه أن يخضع ذلك الثائر الخطر ؟! وعلى أية حال فقد غنم ابن طولون من الأمر كله ، اذ رجع بجيشه كاملا وصار هذا الجيش فى يده أداة قام عليها سلطانه وسلطان ابنه خمارويه من بعده .

ومر بنا أن يارجوخ أضاف لأحمد بن طولون بجانب أعمال مصر ثغر الاسكندرية . ونلاحظ أنه منذ العهد اليونانى فى مصر حتى قيام الدولة الأخشيدية فى مصر الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى كانت الاسكندرية تعتبر فى معظم الأحيان جزءا مستقلا عن مصر ، أو عملا قائما بذاته(١) . وكان يحكم ثغر الاسكندرية اسحق بن دينار ، فلما تسلم ابن طولون الأمر بتقليده الاسكندرية سافر اليها فى سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) وتسلمها من اسحق ولكنه كان من الحكمة بحيث تركه يدير شئونها من قبله .

وكذلك اعترف أحمد بن عيسى الصعيدى والى برقة بسلطان ابن طولون ، وكانت برقة تتبع مصر .

ولما رجع ابن طولون من فلسطين أسس لنفسه مقرا جديدا للحكم .

* * *

ولنلق الآن نظرة على الشام لنرى ما حدث فيها بعد عودة أحمد بن طولون . فأماجور الوالى الذى أرسله الخليفة لحكم الشام واخضاع ابن الشيخ لم يلق عناءا كبيرا فى اتمام مهمته ، اذ هزمت جيوش عيسى بن الشيخ وقتل ابنه وسجن كبير معاونيه ولكن عيسى نفسه أفلح فى الفرار الى ارمينية حيث استولى على

---

(١) انظر : دكتورة سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ٢١٩ «مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٠ م » ، سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام : ص ٣٤٤ « القاهرة ١٩٤٧ »

الحكم فيها ، وظل كذلك حتى وفاته . أما فى الشام فقد قضى أماجور على كل مقاومة وتسلم حكم البلاد ، ولم يفته أن جوار ابن طولون كان خطرا كبيرا عليه لأن سلطان ابن طولون كان يزداد بسرعة كبيرة كما كانت تزداد ثروته أيضا . وأدرك أماجور ان ابن طولون لابد وأن يمد حدود مصر الى الشام . ولذا نرى اماجور يشترك مع ابن المدبر فى تحذير الخليفة من أحمد بن طولون ، ولكن سعيهما كان متأخرا عن الوقت المناسب .

وكان أحمد بن طولون يعلم أمر هذه الدسائس أولا بأول وكان يعمل على احباطها بكل ما لديه من حيلة أو مال . وكان أماجور قد كتب الى المعتمد أن جند ابن طولون أصبحوا أوفر عددا من الجند الذين كانوا لعيسى بن الشيخ وأن ابن طولون قد أصبح السيد المطاع فى مصر ومن الراجح أنه سيعمل على الاستيلاء على الشام .

ولذا نرى الخليفة يكتب الى ابن طولون أن يترك فى مصر نائبا عنه وأن يسافر الى سامرا ليتولى منصبا فيها . وفهم ابن طولون الغرض من استدعائه وابعاده عن مصر فضلا عن أنعيونه فى سامرا أحاطوه علما بكل ما كان يجرى من المؤامرات ضده ، فلم يبادر بتنفيذ الأمر الصادر اليه ، بل بعث الى سامرا كاتبه وموضع ثقته الواسطى . وذهب الواسطى الى سامرا فى سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١ م). ومعه الهدايا والأموال لأولياء الأمر فى بلاط

الخليفة وبطانته ولا سيما الوزير حسن بن مخلد . وطبيعى أيضا أن يعمل يارجوخ على نصرة زوج ابنته ، وهكذا عمل الجميع على أن يرجع الخليفة عن رأيه فى استدعاء ابن طولون . واستطاع الواسطى أن يبشر ابن طولون بهذا النجاح العظيم . ويظهر أيضا أن أفرادا من أسرة ابن طولون كانوا لا يزالون فى سامرا ، وربما كان الغرض ابقاءهم رهينة هناك ، هؤلاء الأفراد تركوا هناك فى هذه المناسبة أحرارا يرحلون الى مصر ، وقد فعلوا ذلك .

وقلق ابن المدبر لهذا النجاح الذى أحرزه أحمد بن طولون وأدرك ألا فائدة ترجى من محاربته ومخاصمته ، فكتب الى أخيه ابراهيم بن المدبر يطلب أن يسعى فى تعيينه عاملا على الخراج فى جزء آخر من الدولة الاسلامية . فعينه الخليفة لفلسطين ودمشق والأردن . وكان ابن المدبر حكيما بعيد النظر فأدرك انه لن يكون فى منصبه الجديد بعيدا عن ابن طولون كل البعد فعمل على أن يحسن علاقته معه قبل أن يغادر مصر ، بل ان المؤرخ ابن سعيد يحدثنا أن ابن المدبر زوج ابنته الى خمارويه بن أحمد بن طولون ومهرها بما كان له من عقار ثابت فى مصر لم يكن يستطيع نقله منها . وكان ابن المدبر يظن أنه بذلك كله يستطيع أن يأمن جانب ابن طولون ، وكان الظاهر أن المودة سادت بينهما ، ولكنها كانت مودة مؤقتة فان ابن طولون لم يتأخر بعد ذلك عن عزل خصمه القديم فى أول فرصة لاحت له بعد أن احتل الشام . وخلف ابن المدبر على خراج مصر عامل أرسله المعتمد واسمه أبو أيوب

أحمد بن محمد بن أخت أبى الوزير ، ولكنه كان ضعيف السلطان حتى اننا نرى ان الخليفة المعتمد حين أراد الحصول على الخراج كتب الى ابن طولون نفسه ، ولم يكتب الى عامل الخراج المذكور .

والظاهر أن الخليفة أراد أن يحصل على خراج مصر لنفسه فينفقه فى شئونه ويكتم مقداره عن الموفق وعن الجند الترك الذين كانوا يحكمون الدولة فى ذلك الوقت . فكتب اليه ابن طولون انه لا يستطيع أن يسلم الخراج الى رسله بدون علم أولياء الأمر فى حكومة العراق الا اذا كانت بيده مقاليد الأمور المالية فى مصر .

ولذا نرى الخليفة المعتمد يرسل تابعه نسيما الى ابن طولون ومعه تقليد لابن طولون بتولى الخراج فى مصر بل وفى الثغور الشامية أيضا . ولا نعرف هل كان الخليفة يريد مكافأة أحمد ابن طولون ، أو كان يريد أن يقذف به وينهك قوته ضد البيزنطيين الذين كانوا حينئذ قد أظهروا نشاطا كبيرا ؟ .

وفى سنة ٢٥٨ هـ (٨٧٣ م) مات يارجوخ حمو احمد بن طولون ولا يتفق المؤلفون فى تعيين الشخص الذى أقطع مصر من بعده فابن خلدون يحدثنا أن ابن طولون استقل بالحكم . وكتب بعض المستشرقين مثل وستنفلد ، ولين بول ، ومرجليوث ، أن مصر أقطعت للموفق بعد وفاة يارجوخ .

والراجح أن هذا ليس صحيحا . فقد كان الموفق يدير شئون الدولة ولكنه لم يكن صاحب اقطاع مصر . والمعروف أن الخليفة المهتدى كان قد نفى الموفق الى مكة ، ولما تولى المعتمد استدعى أخاه الموفق من الحجاز وخلع عليه . ونستخلص مما كتبه المؤرخون الذين يهتمون بتاريخ مصر على الخصوص مثل ابن سعيد والكندى والمقريزى وأبى المحاسن وابن خلدون ، أن الخليفة المعتمد اعترف بأخيه الموفق وليا للعهد بعد ولى العهد الشرعى جعفر المفوض بن المعتمد . وقسم المعتمد الدولة بين وليى العهد فكان للموفق الجزء الشرقى ولجعفر المفوض الجزء الغربى وفيه مصر .

وأكبر الظن أن جعفر هو الذى خلف يارجوخ مباشرة فى اقطاع وادى النيل . حقا ان اسم الموفق كان يذكر فى الخطبة بمصر ولكن ذلك كان بوصفه وليا للعهد بعد جعفر المفوض .

على أن المفوض كان حديث السن فلم يستطع أن يدير بنفسه القسم الذى أقطع اياه واختير أحد الجند الترك ليكون مديرا لهذا القسم وهو موسى بن بغا ، وكان أبوه بغا الكبير من قواد الجيش العباسى أيام المعتصم . ولكننا لا ننكر أن هذا التقسيم كان نظريا الى حد كبير لأن السلطان كله كان فى يد الموفق .

ومهما يكن من الأمر فان هذه الفوضى فى سامرا شجعت ابن طولون على تحقيق مطامعه ولا سيما حين أصبحت له الادارة

المالية فى البلاد . ولكنه كان اداريا حكيما ، فلم يجمع فى يده كل الوظائف التى كان له تقليدها بل أبقى أبا أيوب أحمد بن محمد فى ادارة الخراج على أن يتولاه من قبله ، وطبيعى أن السلطان الأعلى فى الشئون المالية كان لابن طولون نفسه - بل انه عين لأبى أيوب كاتبا بخيلا اسمه عبد الله بن دشومه كما أضاف اليهما تابعا له نعيم ليكون عينا له عليهما .

واذا صح ما ذكره مؤرخو المدرسة المصرية فان أول عمل مالى عنى به ابن طولون هو الغاء المكوس والضرائب التى كان ابن المدبر قد أثقل بها كاهل الشعب .

وهكذا رأينا المرحلة الأولى فى سلطان ابن طولون منذ أتى سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) نائبا للوالى حتى استطاع بعد خمس سنوات أن يضم لنفسه ادارة الخراج فى البلاد وأن يكون أميرا على مصر كلها بما فى ذلك الأسكندرية وبرقة وأن يكون جيشا وأن يبنى عاصمة جديدة له .

ولم تكن هذه المدة عصر سلام داخلى شامل فقد لقى ابن طولون فى مصر بعض صعاب داخلية أولها ثورة بغا الأصغر التى قامت بعد قدوم ابن طولون الى مصر ببضعة شهور . والمعروف أن المؤرخين يذكرون ثلاثة أشخاص باسم بغا : بغا الكبير ، وبغا الصغير ، وبغا الأصغر . والظاهر أن بغا الأصغر كان أخا صغيرا أو ابنا لبغا الصغير الذى نعرف أنه قتل بأمر الخليفة المعتز .

وعلى كل حال فان بغا الأصغر ترك العراق منفيا أو مختارا ونزل مع فريق من أنصاره بين برقة والاسكندرية فى موضع يسمونه الكنائس ، ثم ثار واتجه مع أعوانه الى الصعيد فأرسل اليه ابن طولون جيشا هزمهم وحمل رأسه الى الفسطاط .

وكتب الكندى والمقريزى وأبو المحاسن أن بغا هـذا كان اسمه أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا . ولـكن مارسل Marcel أحد المستشرقين ذهب الى أن أحمد هذا كان ثائرا علويا آخر غير بغا . وفى رأينا أن هذا الرأى أكثر احتمالا ولكنا لا نعرف المصدر الذى اعتمد عليه مارسل فى الوصول اليه . (١)

والظـاهر أنه قامت فى مصر العليا اضطرابات وفتن على يد فريق من العلويين ولكن ابن طولون نجح فى اخمادها .

ولعل أهم هذه الفتن ما قام به ابن الصوفى والعمرى . أما ابن الصوفى فهو من نسل الامام على . وذكر الكندى والمقريزى أنه : ابراهيم بن محمد بن يحيى بن عبد الله بن محمد بن عمر ابن على بن أبى طالب . أما ابن خلدون فلم يذكر فى نسبه «عمر» فيكون والحالة هذه من نسل محمد بن الحنفية وأخا غير شقيق للحسن والحسين .

والمعروف أن ابن الصوفى ثار سنة سنة ٢٥٣ هـ (٨٦٧ م)

---

(١) انظر Zaky M. Hasdsan : Les Tuluunides p. 55

واستولى على اقليم اسنا فى مصر العليا . ثم استولى فى العام التالى على تلك المدينة نفسها واستباحها أنصاره وقتلوا من سكانها خلقا كثيرا . فبعث اليه ابن طولون جيشا بقيادة «ازداد» ولكن ابن الصوفى هزم ذلك الجيش وقتل ازداد ومثل به . فبادر ابن طولون بارسال جيش آخر بقيادة بهم بن الحسين الذى كان قد أخمد ثورة بغا . وأفلح « بهم » فى هزيمة ابن الصوفى على مقربة من اخميم واضطره الى الاعتصام باحدى الواحات فى الصحراء الغربية حيث ظل ساكنا نحو أربع سنوات .

وفى سنة ٢٥٨ هـ (٨٧١ م) خرج من عزلته وجمع حوله أنصارا جددا وصوب شطر مدينة الأشمونين (مركز ملوى محافظة أسيوط) بمصر العليا .

ولكننا نجد أن حركته تتصل بعد ذلك بحركة أخرى قام بها شخص غريب يسمونه العمرى .

وكان العمرى هذا قد وطد سلطانه فى أقصى جنوب مصر وفى حدود النوبة . والمعروف أنه من نسل الخليفة عمر بن الخطاب وأنه قضى جزءا من حياته فى القيروان ببلاط بنى الأغلب وأنه كان عالما فقيها . وأتيح له أن يجمع حوله فى أعالى الصعيد كثيرا من الأنصار ، وأن يضم اليهم من اشتراهم من الرقيق حتى أصبح لديه جيش لا يستهان بقوته . ووقف فى تلك الأصقاع موقف المدافع عن الاسلام وأخذ على عاتقه الدفاع عن كورة

أسوان ضد النوبيين . وطبيعى أن ابن الصوفى كان ينظر الى نجاح العمرى بشيء كثير من القلق ، وكان يخشى أن يلتفت اليه ويهدد نفوذه بعد أن ينتهى من تأمين حدوده الجنوبية . أما أحمد بن طولون فكان يود أن يستطيع التخلص من الثائرين .

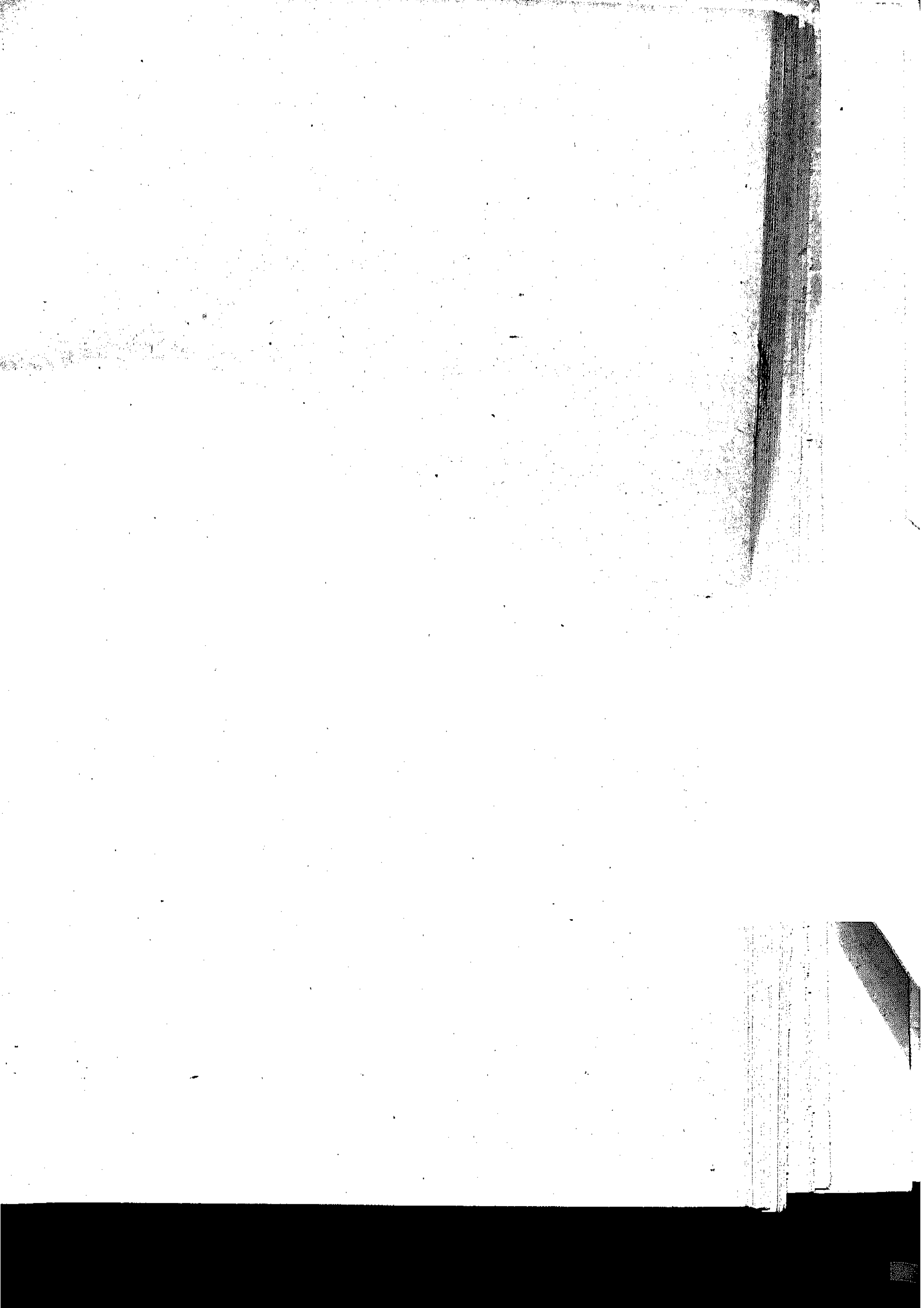
وفى سنة ٢٦١ هـ (٨٧٤ م) سار ابن الصوفى لقتال العمرى فى شمال بلاد النوبة ولكن جنوده هزموا شر هزيمة وتركوا قائدهم ففر الى أسوان . وسافر ابن الصوفى من أسوان الى ميناء عيذاب على البحر الأحمر ومنها الى مكة ، بعد أن علم أن ابن طولون قد سير جيشا لقتاله . والظاهر أنه أبعد من مكة فأعيد الى مصر وسجنه ابن طولون فترة من الزمن ثم أطلق سراحه فعاش فى المدينة المنورة حتى مات .

ولكن العمرى كان أشد خطرا على ابن طولون فقد استفحل أمره ، وبعث ابن طولون جيشا كبيرا لاخضاعه . وأراد الجند أن ينتهزوا فرصة اشتغال العمرى بقتال النوبيين ، واحتج العمرى بأنه غير ثائر وقال لرئيس الجند ان ما يعلمه ابن طولون عنه ليس صحيحا وانما هى شكوك لا أساس لها وانه لم يسىء الى أى مسلم قط وانما خرج لقتال أعداء الاسلام . وطلب العمرى الى قائد الجند أن يتريث وأن يترك له فرصة لكى يكتب الى الوالى شارحا حقيقة حاله فان قبل عذره وتركه حرا كان بها ، والا فالرجوع الى تنفيذ أوامره بالقتال . ولكن قائد الجند لم يعر

كلام العمرى آذانا صاغية وبدأ القتال بعنف شديد ، واضطر العمرى الى القتال فى جبهتين : فى الشمال ضد الطولونيين ، وفى الجنوب ضد النوبيين . ومع أن الطولونيين كانوا أوفر عددا فقد أوقع بهم العمرى هزيمة شنيعة .

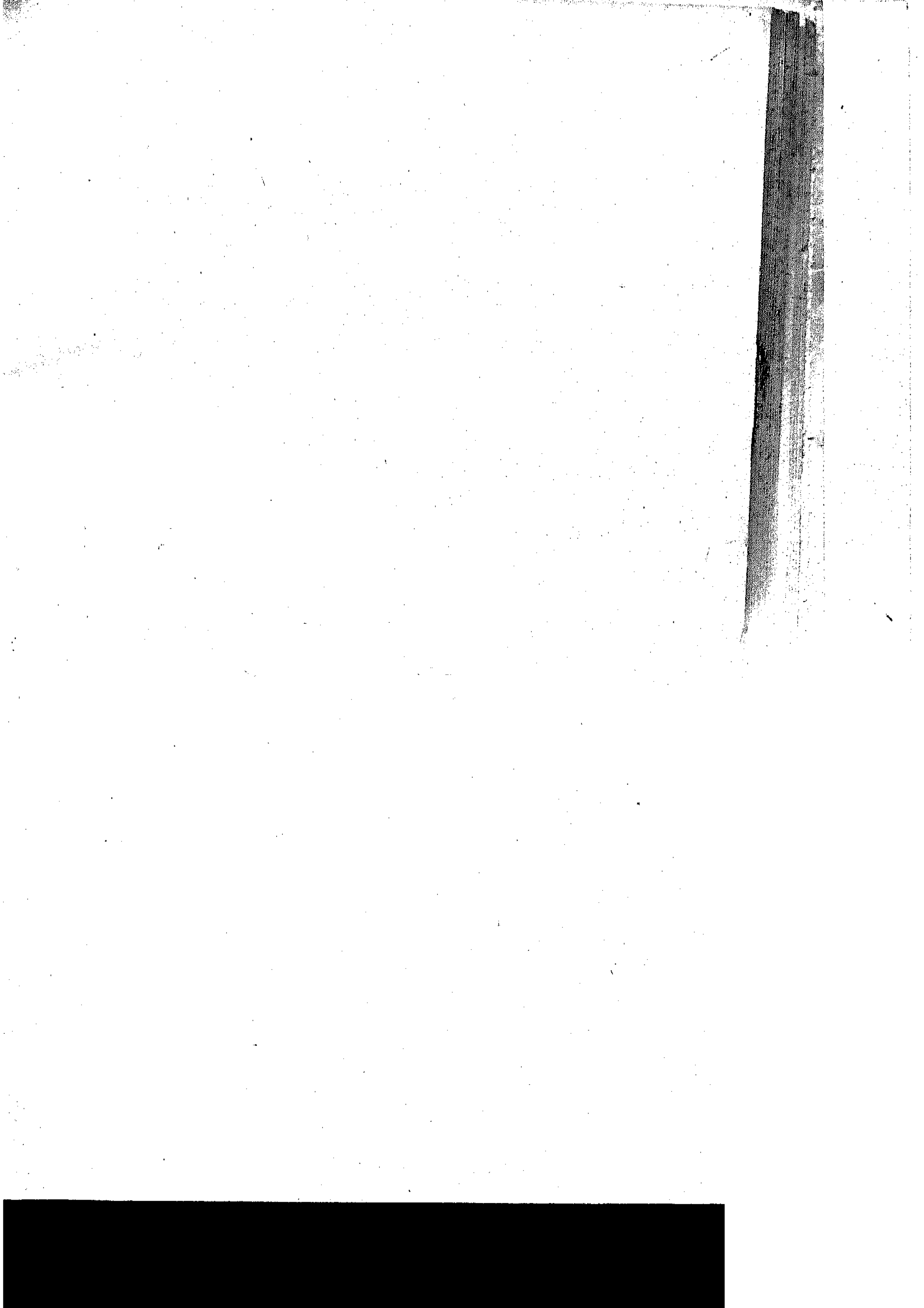
وغضب أحمد بن طولون على قائد جنده لأنه لم يترك للعمرى الفرصة للكتابة اليه ، وعنفه قائلا ان الله منح العمرى النصر لأن قواد الجند الطولونيين كانوا مستبدين ظلمة .

أما خاتمة قصة العمرى فنعرفها من نصين لابن الداية ، الأول فى كتابه المكافأة ، والثانى فى ترجمة أحمد بن طولون التى نقلها عنه ابن سعيد والنصان متفقان تقريبا ونتبين مما ذكره ابن الداية أن بعض غلمان العمرى تمكنوا من قتله وبعثوا برأسه الى أحمد ابن طولون .



الفصل الخامس

أحمد بن طولون والموفق



رأينا كيف قسم الخليفة المعتمد الدولة بين ابنه جعفر المفوض وأخيه الموفق ، وعرفنا أن الموفق كان يقوم بسلسلة حملات طويلة وباهظة النفقات لاخضاع ثورة الزنج . وطبيعى أن دخل الأقاليم الشرقية التى كان هو صاحب اقطاعها لم يكن كافيا للانفاق على تلك الحرب السجال .

ومع أن من شروط تلك القسمة أن كلا من الأميرين ينفق على أقاليمه من دخلها الخاص فاننا نرى الموفق لا يتأخر عن أن يطلب من مصر ما كان يحتاج اليه من نفقات . ولعله كان يعتقد بحق أن الزنج كانوا أعداء الدولة كلها وأنه بوصفه القائد الأعلى لجنـد الامبراطورية الاسـلامية كان له الحق فى الحصول على المعونة المالية من جميع أقاليم الدولة ، وليس من الأقاليم التى كان هو صاحب اقطاعها فحسب .

وعلى أية حال فان الموفق أرسل الى احمد بن طولون شخصا اسمه نحرير ، كان فى خدمة أبيه المتوكل مدة طويلة ، وأمره أن يطلب من والى مصر أن يرسل الى بيت المال ، وبمعنى أدق ، الى الموفق نفسه ، النقود والمنسوجات والعبيد والخيل والشمع وما الى ذلك من الجزية التى اعتادت مصر ارسالها الى العراق فى كل عام . وأكبر الظن أن نحريرا كان يحمل أوامر من المعتمد تأييدا

لطلب الموفق . ولكن الذى يهمنا هو أن المعتمد أرسل فى الوقت نفسه رسالة سرية الى ابن طولون يحذره فيها من نحرير ويخبره بأنه لم يرسل الى مصر الا بارادة الموفق ، وبأنه جاسوس مكلف بتدبير الدسائس ضد ابن طولون نفسه بين ضباط الجند فى مصر.

فتنبه ابن طولون للأمر واستقبل نحريرا فى قصره وعمل على ألا يمكنه من الاتصال بأحد أثناء اقامته فى مصر فضـــلا عن أنه استولى على كل الرسائل التى كان نحرير يحملها من قبل الموفق الى أعيان مصر وكبار رجالها

وأجاب ابن طولون مطالب الموفق بكتاب رقيق سـلمه الى نحرير مع مليون ومائتى الف دينار فضلا عن الخيل والأقمشة . وطبيعى أنه لم يرسلها خفية هذه المرة كما كان يفعل حين يرسل الى الخليفة المعتمد بل عمل على أن يشهد على ذلك ، ثم رافق نحريرا الى العريش بل انه أوصله الى عمال أماجور والى الشام.

وفحص ابن طولون بعد عودة نحرير الرسائل التى صادرها عنده وأوقع بأصحابها أشد العقاب لعلاقتهم بالموفق .

أما الموفق نفسه فالظاهر أنه كان يتوقع أن يرسل ابن طولون اليه مبلغا يفوق ما وصله فغضب من قلة ما أرسله والى مصر ، ومن الطريقة التى عومل بها رسوله ، نحـــرير ، وكتب الى ابن طولون كتابا شديدا يلومه فيه ويعنفه أشد العنف . بل انه أراد أن يعزله ولـــكنه لم يجد من يقبل وظيفته لمـــا كان يغدقه على

لبار رجال الدولة من العطايا ، ولما عرف عنه من القوة والسلطان
فطلب الموفق الى موسى بن بغا عزل ابن طولون وتولية أماجور
على مصر ، ولكن أماجور كان يشعر بضعفه وعـدم استطاعته
مناضلة ابن طولون فتنحى أماجور ، بل انه لم يبلغ ابن طولون
خطاب عزله . ولذلك نرى موسى بن بغا يعقد عزمه على أن يخضع
ابن طولون بنفسه بالنظر الى شدة الحاح الموفق .

وفى تلك الأثناء كان ابن طولون يستعد لاتخاذ قرار حاسم
بشأن الكتاب العنيف الذى وصله من الموفق . واتخذ أحمد بن
طولون قراره وذلك بأن جمع مجلسا حربيا من أعوانه ورجال
الشرع فى البلد وكتب ردا على كتاب الموفق . وظهر فى كتـاب
ابن طولون براعة ومهارة كاتبه ، ابن عبد كان . وحفظ لنا ابن
سعيد نص هذا الكتاب نقلا عن ابن الداية ، كمـا أن المقريزى
ترك لنا نصا مختصرا منه فى كتابه الخطط . والحق أن ابن طولون
كان كريما فى معاملة الموفق اذ أنه أرسل المال والخيل والأقمشة
للموفق رغم مؤامرات الموفق ضده . نعم ! لقد وقف ابن طولون
على مدى الخطر الذى هدد سلامة الدولة العباسية من ناحيـة
الزنج ، ولـكن الموفق لم يحمد لابن طولون هذا الصنيع كما
رأينا بل انه عاود الكتابة الى ابن طولون وألح فى الطلب وأظهر
الجفـاء فى كتابه لابن طولون وذكر أن الحساب يوجب عليـه
أضعاف ما سلمه الى نحرير ، وكتب اليه يعنفه ويهدده . وما كان
من احمد بن طولون الا أن رد عليه بكتاب طويل لاذع كما مر

بنا . وبرغم تأدب كاتبه فى اختيار العبارات والألفاظ الا أنه بين فضل أحمد بن طولون على الدولة العباسية ، وأنه يعمل على صيانتها والذب عنها ، كما أنه عاتب الموفق على جفائه لابن طولون ، وهو القوى الذى يجتمع عنده الجند والأبطال ، فى الوقت الذى لا يستطيع الموفق عمل شيء ازاء صاحب الزنج . وكان ابن طولون صريحا حين قال فى كتابه : « على أنى لا أعرف السبب الذى ينتج الوحشة ويوقعها ، ولا الأمر الذى يدعو اليها ويوجبها اذ لم يكن بينى وبينه (يعنى الموفق) معاملة توقع مشاجرة أو تحدث منافرة ، وكان العمل الذى أنا بسبيله ليس له ، والمكاتبة فى أموره ليست اليه ، وتقليدى ليس من قبله ولا ولاته ، والأمير جعفر قد قسم الأعمال والعمال ، وصار لكل واحد قسم تفرد له دون صاحبه ، وعمل تجرى عليه أموره دون غيره ، وشرط لكل منهما وعليه فى وقت أخذ البيعة له : من نقض عهده ، وخفر ذمته ولم يف بما أكده على نفسه ، فالأمة بريئة من بيعته ، وفى حل وسعة من خلعه . وكان ما عاملنى به الأمير أيده الله — على ما أنا بسبيله من قبل غيره — من تجهيز الجيوش نحوى ، واعمال الحيل فى افساد عملى ، ناقضا لشرطه ، ومفسدا لعهده ... »(١)

وطبيعى أن الموفق غضب من رد ابن طولون أشد الغضب فاضطر الخليفة أن يعزله عن العواصم والثغور ، وسير اليه الجند

---

(١) انظر ابن سعيد : المغرب ص ٩١ — ٩٢ « نشر الدكتور زكى حسن »

بقيادة موسى بن بغا ، ولكن هذا الجيش وصل الى مدينة الرقة ثم وقف عندها .

والحق أن خطاب ابن طولون الى الموفق كان بلغة لم نعتدها من الولاة قبل أصحاب النفوذ فى البلاط العباسى . فهى لغة أمير اطمأن الى قوته واستقل بشئونه . وهو يهاجم الموفق من حيث أحس بضعفه اذ كان وضعه القانونى لا يسمح له بالتدخل فى شئون القسم الغربى من بلاد الدولة الاسلامية . ونرى ابن طولون يحرص على أن يظهر الموفق فى صورة الناقض لشروط البيعة . ولم يكن من المعقول بعد رد ابن طولون على الموفق بمثل هذا الرد أن يستمر النزاع بينهما مجرد كلام اذ دخل العملاقان فى صراع عنيف ، صراع بين أمير اكتسب حقا له ، وصراع بين صاحب السلطان الفعلى فى الخلافة العباسية . ولم يكن الصراع بين الاثنين صراعا بين فردين ، وانما كان صراعا بين السلطة المركزية فى الخلافة العباسية التى تحاول ان تفرض سيطرتها على كل الدولة الاسلامية ، وبين السلطة الاقليمية التى تريد ان تتحرر وتستقل عن هذه السيطرة .

وكان الموفق هو البادىء ، وكان حريصا على أن يكسب اعماله صفة قانونية ، ولذا نراه يحصل على موافقة المعتمد احيانا او موسى بن بغا باعتباره وصيا على جعفر المفوض من ناحية أخرى .

ولما علم ابن طولون بتقدم جيش موسى بن بغا ضده ، بدأ فى تحصين مصر ، ولكن الظاهر انه لم ير الفرصة مناسبة لأن يبدأ بالهجوم ويشق عصا الطاعة . ولعله لم يكن يشعر بأنه من القوة بحيث يجوز له أن يتخذ هذه الخطة ، أو لعله كان يريد أن يبرر موقفه أمام الشعب ويثبت له أن السلطات فى العراق هى التى تقدم على محاربته . ومع ذلك فانه أخذ يواصل الاستعداد الحربى ولكنه لم ينقطع عن الكتابة الى حكومة العراق رغبة فى حسم النزاع . وقد خدمه الحظ مرة أخرى ، فان جند موسى بن بغا ساد بينهم الاضطراب وثاروا يطلبون أعطياتهم المتأخرة . وأحس موسى بقوة خصمه وأدرك أنه لن يستطيع أن ينال منه شيئا بمثل أولئك الجند الثائرين ، فترك موسى جند الحكومة واعتزل فى العراق حيث مات بعد شهرين .

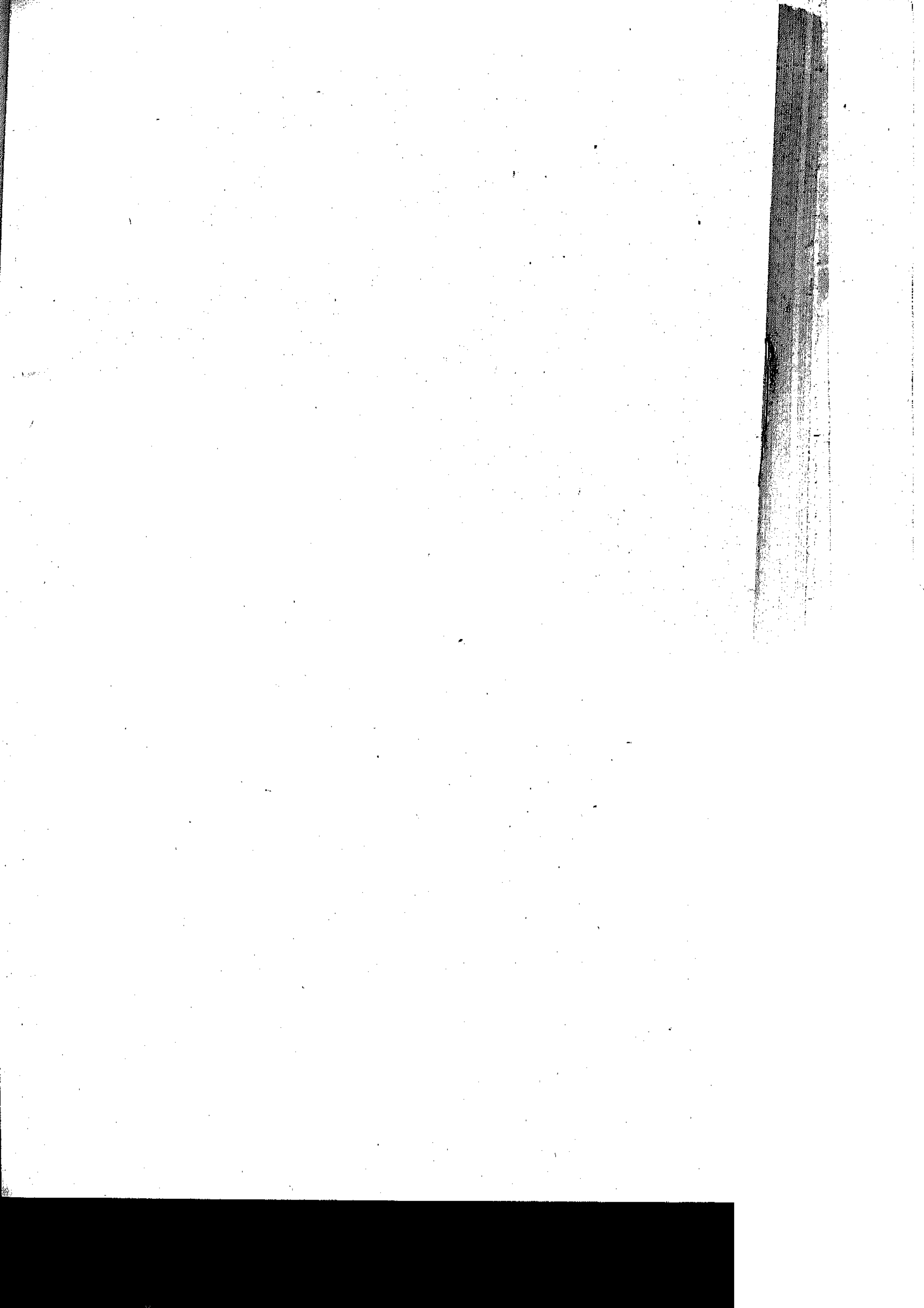
وهكذا فشلت المحاولة الوحيدة لاخضاع ابن طولون ، وعجز الموفق عن اثبات سلطانه فى وادى النيل ، فأصبح ابن طولون صاحب الأمر والنهى فيه . وكان ابن طولون قد شيد فى جزيرة الروضة حصنا لتأوى اليه أسرته ومعها الثروة والكنوز التى جمعها فى حياته ، كما شيد أسطولا لحماية عاصمته من جهة النيل ولكنه أوقف العمل فى كل ذلك عندما علم بتشتت جيش ابن بغا .

ولما كانت حروب الزنج قد أنهكت قوى الموفق فقد قعد عن تنفيذ أغراضه فى مصر واضطر الى أن يضرب صفحا عنها .

ولا ريب فى أن فشل جند العراق فى الوصول الى مصر واخضاع واليها ، يعتبر فجرا لعصر جديد فى حياة ابن طولون بل وفى تاريخ مصر الاسلامية العربية .

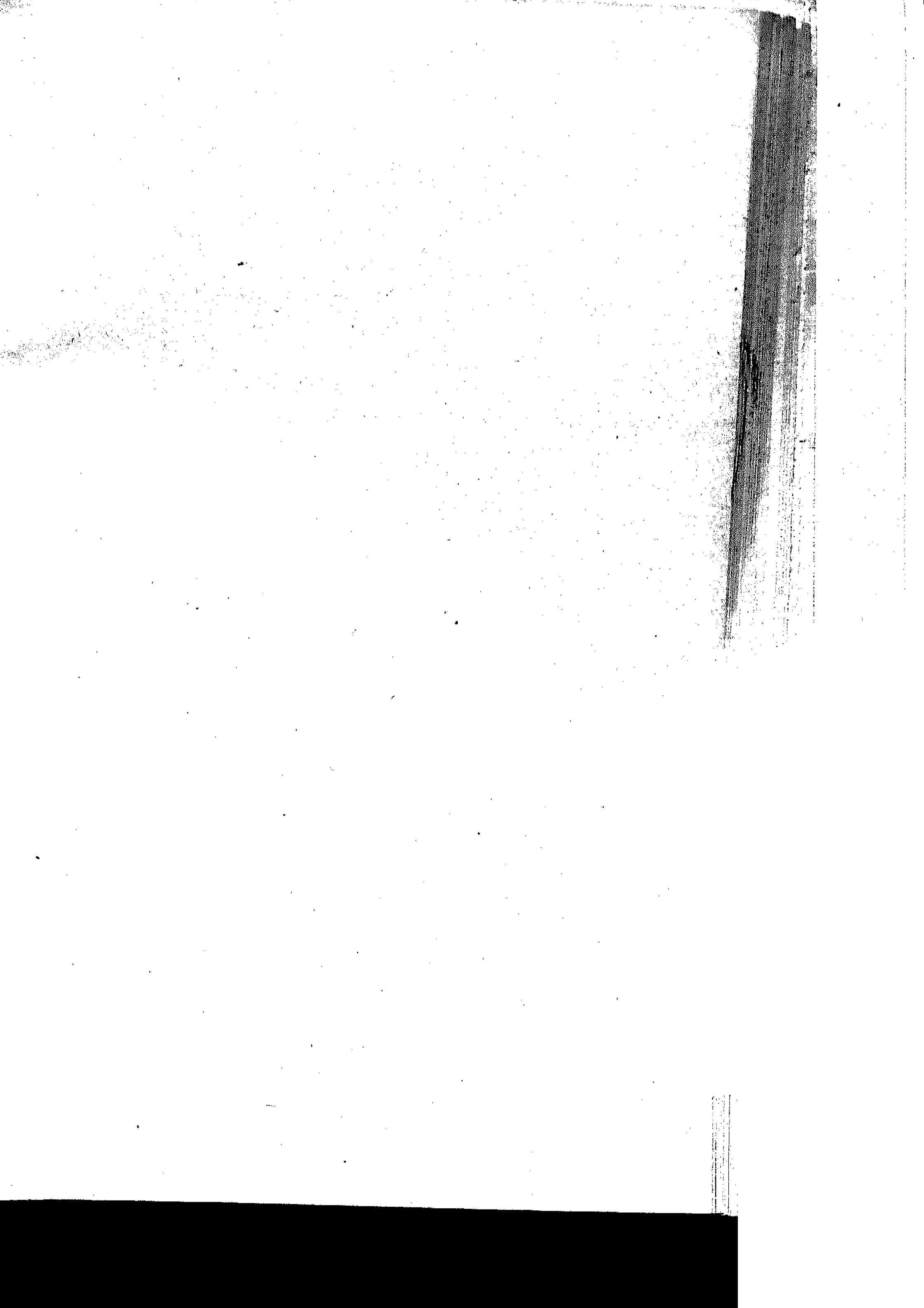
وهكذا نرى أن ابن طولون تغير مركزه كل التغيير فى مدة خمس سنوات . فقد جاء مصر سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) نائبا عن والى مصر أو صاحب اقطاعها بمعنى أدق . وقد تتبعنا خطوة خطوة تقدم هذا الضابط الكفء حتى وصل الى مرتبة الامارة التى لم يستطع أن ينازعه اياها الموفق وهو صاحب السلطان الفعلى فى الخلافة العباسية آنذاك . ولا عجب فقد أصبح لابن طولون جيش قوى العدد والعدة ، ومالية سليمة محترمة ، فأمكنه بذلك أن يمنع الحكومة المركزية من أن تملى ارادتها عليه . أما الحكومة المركزية فقد زادها ضعفا ثورة الزنج من ناحية ، ومطالب الجند الترك من خزينة خاوية من ناحية أخرى .

والواقع أن ابن طولون لم يكن ، لولا ثقته بجيشه القوى ، ليستطيع أن يكتب الى الموفق ذلك الخطاب الذى كان مقدرا أن يجر الى الحرب ، ومع ذلك فيجدر بنا ألا ننسى أنه خفف الضرائب برغم كل مشاريعه الاستقلالية .



الفصل السادس

حملة أحمد بن طولون الأولى على الشام
وثورة ابنه العباس



كان فشل قوات الحكومة المركزية فى تأديب ابن طولون أكبر مشجع له على زيادة مطامعه الواسعة . وكانت الفرصة مواتية فقد مات موسى بن بغا وكان الموفق مشغولا بحرب الزنج. وأصبح لابن طولون جيش كبير ، ولكن هذا الجيش لم يكن يستطيع أن يبدى نشاطه غربى الديار المصرية لأن بنى الاغلب حكام افريقية (تونس الحالية) كانوا فى أوج عزهم ، وما كان أحمد بن طولون مع ما عرفناه عنه من الفطنة وحسن السياسة ليخاطر بالنضال معهم . أما فى الجنوب فكانت بلاد النوبة اقليما لا يغرى الفاتح الحكيم لأن النوبيين كانوا يعودون الى حمل السلاح والى شق عصا الطاعة كلما غادرت الجيوش الفاتحة بلادهم فكان يصعب على الفاتحين توطيد سلطانهم فيها ، وذلك فضلا عن ضآلة هذه البلاد من الوجهة المادية . فلم يبق اذن الا الشام . وتشهد أدوار التاريخ المختلفة منذ العصور القديمة بأن الحكام الأقوياء فى مصر كانوا يتجهون الى الشام لتأمين سلامة وادى النيل ، فمصر والشام تربطهما مصالح تجارية وحربية واحدة . وغالبا ماخضعت مصر والشام فى العصور المختلفة لحكم دولة واحدة لأن كليهما يتمم الآخر فلا يمكن اعتبار الحدود بين القطرين حدا منيعا فاصلا ، كما أن كليهما كان يقع على طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب .

وكانت وفاة اماجور سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨ م) فرصة انتهزها ابن طولون لتحقيق أطماعه . والظاهر أنه كان شديد الحنين الى طرسوس ، حيث أمضى قسطا من شبابه ، وكان يتوق الى مد حدوده الى تلك المدينة . وقد مر بنا أن الخليفة المعتمد أضاف الى ابن طولون حكم الثغور الشامية . وأراد أحمد بن طولون أن ينيب عنه أخاه موسى حاكما على طرسوس ولكن موسى رفض هذا المنصب واضطر أحمد بن طولون الى تعيين نائب آخر ، ومع ذلك فيبدو لنا أن سلطان احمد بن طولون لم يثبت فى تلك الأقاليم قبل سيره اليها فى حملة حربية ، ولا سيما أنه عزل عن ولايتها على أثر خطابه العنيف الى الموفق فلم يبق له حق قانونى فيها .

ولما توفى أماجور أعطى اقطاعه الى ابنه على . ولكن الحوادث برهنت على أن عليا هذا لم يكن فى حكمة والده أو بعد نظره .

ومهما يكن من الأمر فان احمد بن طولون اتجه بأنظاره الى الشام ولكنه كان لا يريد أن يبدأ حملته عليها بدون سبب يستند اليه ويبرر به هذه الخطوة الجريئة . ولذا فانه أعلن رغبته فى الجهاد ، وفى حماية حدود الدولة الاسلامية ضد البيزنطيين فى آسيا الصغرى . ثم كتب كتاب تعزية الى على بن أماجور وأبلغه فيه أنه قادم الى بلاده بل طلب منه أن يستعد بالمؤونة اللازمة للجند المصريين . ولم يجد على بن أماجور واتباعه بدا من الخضوع .

وترك احمد بن طولون على مصر ابنه الأكبر العباس ومعه الواسطى يساعده بالرأى والمشورة ككاتب ووزير له .

ثم سار احمد بن طولون على رأس جنده الى الشام . وكان الموفق ، وهو الرجل الوحيد آنئذ الذى يستطيع مقاومة ابن طولون ، لايزال مشغولا بحروب الزنج .

وهنا تعترضنا مسألة دقيقة ، هى النظر فى موقف الخليفة نفسه ازاء هذه الحملة التى أقدم عليها احمد بن طولون . فالمعروف أن ابن طولون كان يود قبل ذلك اظهار قوته وحسن بلائه وذلك بقتال الروم ولكن الظاهر أن الموفق كان عقبة كأداء فى سبيل اجابة طلبه .

وذهب المستشرق ميور Muir الى أن المعتمد كلف ابن طولون بالقيام بهذه الحملة . ومع أننا نعرف أن علاقة ابن طولون بالمعتمد كانت طيبة فاننا نستبعد صحة هذا الرأى لأننا لانعرف نصا تاريخيا يثبت أن هذا الخليفة عهد الى ابن طولون بقتال الروم . وعلى كل حال فقد سار ابن طولون بجيشه حتى وصل مدينة الرملة فى فلسطين حيث قدم اليه حاكمها فروض الطاعة . ولما كان ابن طولون يريد التحبب وكسب قلوب الحكام فى الشام فقد ثبت هذا الحاكم ، واسمه محمد بن رافع ، فى حكمه .

أما فى دمشق فقد استقبله الوالى على بن اماجور ومعه أحمد بن دوغباش الذى كان وصيا على هذا الوالى لصغر سنه. وعندما اقبل أحمد بن طولون ترجل الاثنان عن مطيتيهما احتراما له بل لقد أمرا بالدعاء له فى الصلاة، معترفين اذن بخضوع اقليمهما له. اما ابن طولون فقد ندب ابن دوغباش لحكم الاقليم. وفضلا عن ذلك فانه استطاع بشخصيته وسلطانه أن يكسب لجانبه كثيرين من المتطوعين بينهم بعض أعوان اماجور. وكذلك خضعت له حمص وحماه وحلب. ولكنه فى انطاكية اضطر الى استخدام جنده وحصار المدينة بسبب مقاومة « سيما الطويل » حاكم ذلك الاقليم. وكان سيما هذا يحتل انطاكية بجند وافر من الترك فظن أنه من القوة بحيث يستطيع مقاومة ابن طولون، وخصوصا ان انطاكية كانت مدينة حصينة يسهل الدفاع عنها. وكتب ابن طولون الى سيما يدعوه الى الخضوع، ويعده بتثبيته فى ولايته، ولكن سيما لم يقبل الاتفاق.

ودام الحصار بعض الوقت لقوة أسوار المدينة، ولكن سكانها سئموا تلك الحالة واجتمع بعض الناقمين منهم على سيما فدلوا ابن طولون على موطن ضعف فى أسوار المدينة. ودخل أحمد بن طولون المدينة فى سنة ٢٦٥ هـ وقتل سيما الطويل، ودان له أهلها بالطاعة.

وكان طبيعيا أن ينتهى المطاف بابن طولون الى طرسوس، ذلك الثغر الذى أمضى فيه زمنا من شبابه بين العلماء والمجاهدين.

ويذكر ابن الداية أن أحمد بن طولون دخل طرسوس « فى خلق كثير وعز منيع » . ولم ينس ابن طولون أصدقاءه القدامى فى طرسوس ، ومما يروى انه اشتاق لزيارة صديق له من الصوفية فذهب اليه ولكن الرجل لم يكن سعيدا بسلطان ابن طولون واعتبر أن طموحه يبعده عن دينه وكان مما قاله لابن طولون « ما الذى أنكرت من ربك حتى شردت عنه هذا التشريد ؟! انك مع تباعدك منه لم تخرج من قبضته ، فارحم نفسك من تحميلها مالا تحتمل .. » (١)

ويذكر الكندى أنه عندما دخل ابن طولون طرسوس فى أتباعه وجنده غلا السعر بها ، واضطرب أهلها ، ونابذوه، فقاتلهم أحمد ابن طولون ولكنه أمر جنده أن يتظاهروا بالتخاذل أمامهم والانهزام وذلك كى يبلغ امبراطور الروم أن جيوش أحمد بن طولون القوية انهزمت أمام أهل طرسوس (٢) فلا يستخف الامبراطور بهذا الثغر المنيع المواجه للبيزنطيين .

وبلغ نفوذ أحمد بن طولون الغاية فوصلت قواته بقيادة أحمد بن جيغويه حران وما جاورها ، ووصلت قوات أخرى الى الرقة بقيادة لؤلؤ . وتذكر الروايات التاريخية أن أحمد بن طولون

(١) ابن سعيد : المغرب : ص ١١٧ « طبعة الدكتور زكى محمد حسن » .

(٢) انظر الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٢٠ « طبعة جست »

كان ينوى الغزو ضد البيزنطيين لولا مابلغه من ثورة ابنه العباس فعاد الى القطائع فى سنة ٢٦٥ هـ ليقضى على هذه الثورة .

وقد مر بنا أن أحمد بن طولون لما خرج الى بلاد الشـــام سنة ٢٦٤ هـ استخلف ابنه العباس على مصر وضم اليه كاتبـه أحمد بن محمد الواسطى ليكون ناصحا له ومشيرا . وأوصى ابن طولون ابنه العباس باتباع مشورته فقال له :« يابنى ، احمد بن محمد قد عجم أمرى ، وخبر مايصلحه فأقبل عليه ، وفوض اليه وتضافرا على حسن الأثر فيما أنتما بسبيله » . ولكن ماكاد ابن طولون يترك مصر حتى خلت بالعباس بطانته ، وكانوا يدرسون معه النحو والشعر وماجرى مجراه ، وهم جعفر بن جدار ، وأحمد ابن المؤمل ، ومحمد بن سهل المنتوف . وأراد العباس تعيينهم فى مناصب الدولة الكبرى ولكن الواسطى لم يوافقه لعدم درايتهم بالسياسة وأساليبها ، وعجزهم عن الاضطلاع بأعباء الحكم ،فحمل هؤلاء الأشخاص على الواسطى وأوغروا صدر العباس عليه فشل يده من أعمـــال الدولة .

وتذكر الروايات التاريخية أن العباس خــلا به قواد كانوا يخافون احمد بن طولون ويؤثرون الانحـراف عنه فحسنوا له التغلب على مصر والفتك بأحمد بن محمد الواسطى .

وهنا نقف لنتساءل : هل كان للحكومة المركزية فى العراق يد فى تدبير رفقاء السوء الذين التفوا حــول العباس بن احمد

ابن طولون والذين كانوا أكبر عامل فى ثورته على أبيه ؟ والجواب على ذلك أننا لانستبعد أبدا أن يكون الموفق قد عمد الى هذه الطريقة فى خلق الاضطرابات والشغب فى حكومة ابن طولون ، وطمع فى أن ينال منه بهذه الوسيلة مالم يستطع أن يناله بالقانون أو بالقوة . ولسنا ننسى فى هذه المناسبة أن الجاسوسية أو المخابرات السرية كانت معروفة فى تلك العصور وأن ابن طولون كانت له عيون فى حكومة العراق ، وكان لحكومة العراق عيون فى مصر ، ومن المحتمل أن يكون أعوان الموفق قد انتهزوا فرصة سفر ابن طولون الى الشام وعملوا على أن يتخذوا أصحاب العباس أنصارا لهم ميزينوا لهذا الأمير الثورة على أبيه .

ومهما يكن من الأمر فقد توترت العلاقات بين العباس وأصحابه من ناحية ، وبين الواسطى من ناحية أخرى . وكتب الواسطى الى أحمد بن طولون عدة رسائل يبلغه فيها حقيقة الحال وكان ابن طولون يرد عليها ويطلب الى الواسطى أن يصبر الى حين عودته . ولكن الواسطى كان مكروها عند محبوب بن رجا كاتب ابن طولون فى حملته على الشام . فكان محبوب يرسل الى العباس الكتب التى يرسلها الواسطى فى الشكوى منه ومن أصحابه . ولذا فقد أصبح الخلاف بين العباس والواسطى علنيا . وفضل الأخير أن يستقر فى بيته بعيدا عن الشئون العامة حتى يعود ابن طولون ، ولكن العباس أمر بتفتيش منزله ليعثر على كتب والده ردا على ماكان يرسله الواسطى فى الشكوى منه . وأدرك

العباس من لهجة والده فى تلك الكتب أنه كان ناقما عليه ، وألا سبيل الى اصلاح ذات البين . ولكن العباس نفسه كان ضعيف الرأى ولم يستطع أن يستقر على شيء لولا أن أصحابه كانوا يوجسون خيفة من عقاب ابن طولون فحرضوا ابنه على الثورة العلنية والاستقلال بمصر . ونظم ابن جدار كاتب العباس قصيدة أشاد فيها بشجاعة العباس واستحثه على العمل . وكان العباس يخشى عودة والده فاستولى من بيت المال على مليونى دينار واقترض من كبار التجار مائتى الف دينار وكلف ابا ايوب العامل على الخراج أن يسددها من الضرائب الجديدة . واذا لاحظنا أن العباس لم يلق صعوبة تذكر فى أخذ مافى بيت المال وفى الاقتراض من التجار بضمانة العامل على الخراج رجحنا أن أبا أيوب هذا لم يكن مخلصا لابن طولون كل الاخلاص بل ربما كانت له يد فى حركة العباس واتباعه .

وعلى كل حال فقد قبض العباس على الواسطى وأخذه معه حين سار بجيشه وعسكر عند الجيزة معلنا أنه يسير الى الاسكندرية لتنفيذ أوامر تلقاها من أبيه . ولكن الحقيقة أنه كبل الواسطى بالحديد وسار الى الاسكندرية ثم فر بجيشه واتباعه الى برقة ومعه أسيران : الواسطى ، وشخص آخر من المخلصين لأبيه وهو أيمن الأسود .

فى ذلك الوقت عاد احمد بن طولون الى مصر ودخل

الفسطاط فى رمضان سنة ٢٦٥ هـ . ولم يفقد ابن طولون كل أمل في اصلاح ابنه وأراد على عادته أن يأخذه بالحيلة واللين فأرسل اليه وفدا على رأسه بكار بن قتيبة قاضى مصر وكان الوفد يشمل قاضيا آخر اسمه الصابونى ، وتاجرا من الأعيان يسمى معمر الجوهرى ، وخطيبا اشتهر بفصاحته واسمه زياد المعرى كما جاء فى ابن الداية ، أو زياد المعدنى كما جاء فى الكندى وفى البلوى . وحمل زياد الى العباس كتابا من أبيه يدعوه فيه الى الرجوع عن خطة فيها هلاكه ، ويعده بالعفو والرضا الأبوى اذا أظهر الندم وعاد الى الفسطاط .

وقد حفظ لنا القلقشندى نص رسالة كتبها ابن عبدكان من ابن طولون الى ابنه العباس « حين عصى عليه بالاسكندرية » . ويذكر المؤرخون ان الوفد الذى ارسله احمد بن طولون الى العباس اجتمع به فى برقة وكان كلام زياد المعرى مؤثرا بدرجة كبيرة حتى بكى زياد ومن معه من الرسل ودمعت عين العباس وهم بالشخوص معهم لولا أن بطانته ، بطانة السوء ، خوفته سوء المصير وخلو به وحملوه على العدول عن رأيه ، فلم يصغ لنصح أبيه ونصح رسله ، ورد على أبيه ردا قبيحا . وعاد الوفد الذى أرسله احمد بن طولون الى الفسطاط فى اول ذى الحجة سنة ٢٦٥ هـ .

أما العباس فانه رأى أن يبعد عن أملاك أبيه وسولت له

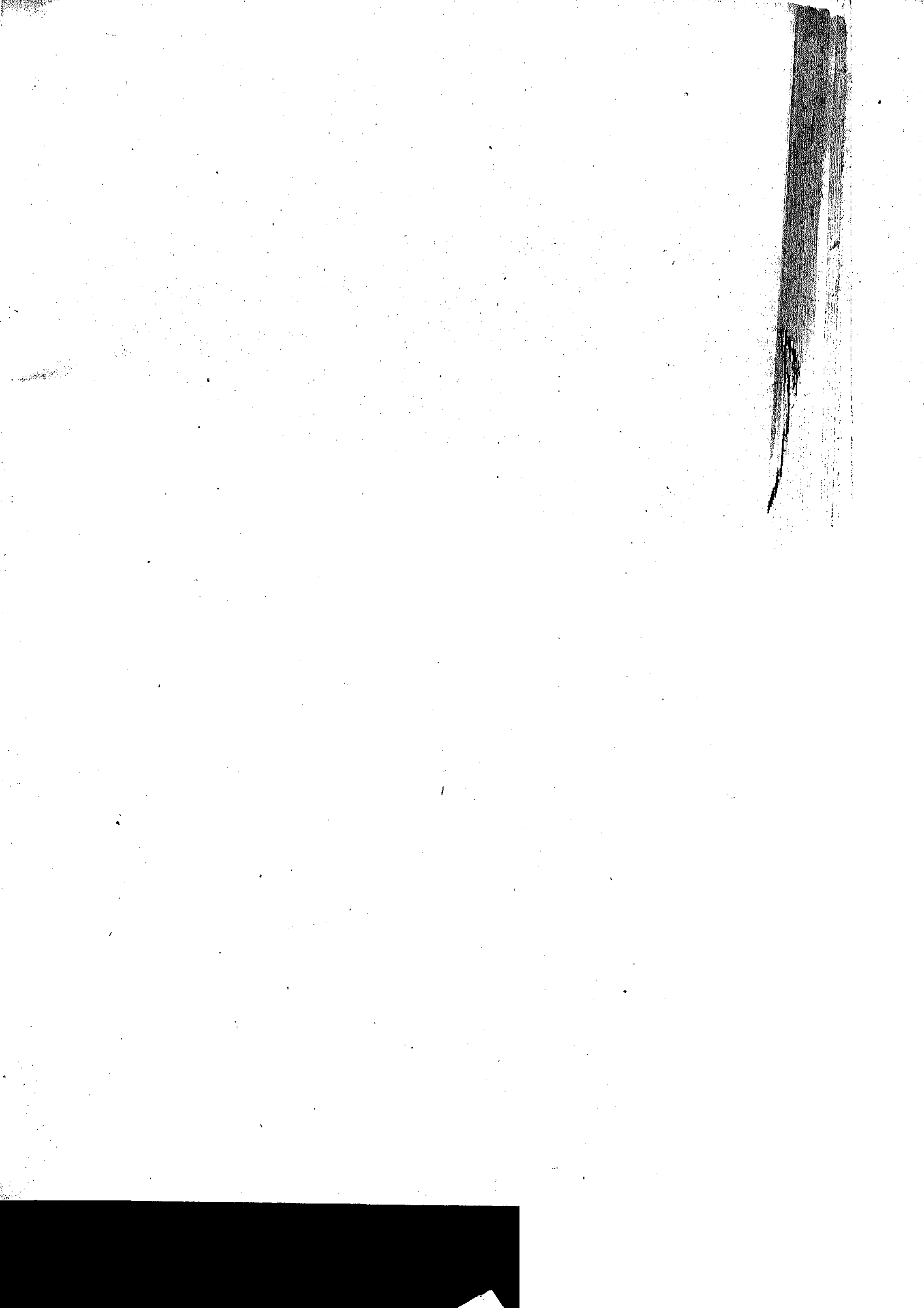
نفسه الخروج الى افريقية وصغر له أتباعه من شأن ابراهيم بن احمد بن محمد بن الأغلب صاحب افريقية . فكتب العباس الى ابراهيم الأغلبى يخبره أن كتب الخليفة العباسى المعتمد وردت عليه بتقليد افريقية ، ويأمره بالدعاء له بها ، ويخبره أنه سائر اليه وسار العباس متوجها الى افريقية فى سنة ٢٦٦ هـ حتى وصل الى مدينة لبدة فخرج اليه عامل ابن الأغلب وأهلها فتلقوه واكرموه فازداد العباس غرورا فوق غروره واباح المدينة لجنده فنهبوا الحصن وقتلوا الرجال واستباحوا النساء . واستغاثت طائفة من أهل حصن لبدة بالياس بن منصور النفوسى زعيم الخوارج الأباضية ، وكان العباس قد أرسل رسولا الى الياس النفوسى يأمره بالاذعان والطاعة فرد الياس على الرسول قائلا : قل لهذا الغلام: : أما انك أقرب الكفار منى ، وأحقهم بمجاهدتى فقد بلغنى من قبيح أفعالك مالا يسعنى التخلف معه عن جهادك ، وأنا على أثر رسالتى اليك . » (١)

وسار الياس بن منصور الى العباس فى اثنى عشر ألف مقاتل كما ان ابراهيم بن الأغلب أرسل الى عامله على طرابلس جيشا آخر من القيروان واطبق الجيشان على العباس فقتل اكثر من كان معه ، واستبيحت أمواله وذخائره وما كان حمله معه من مصر

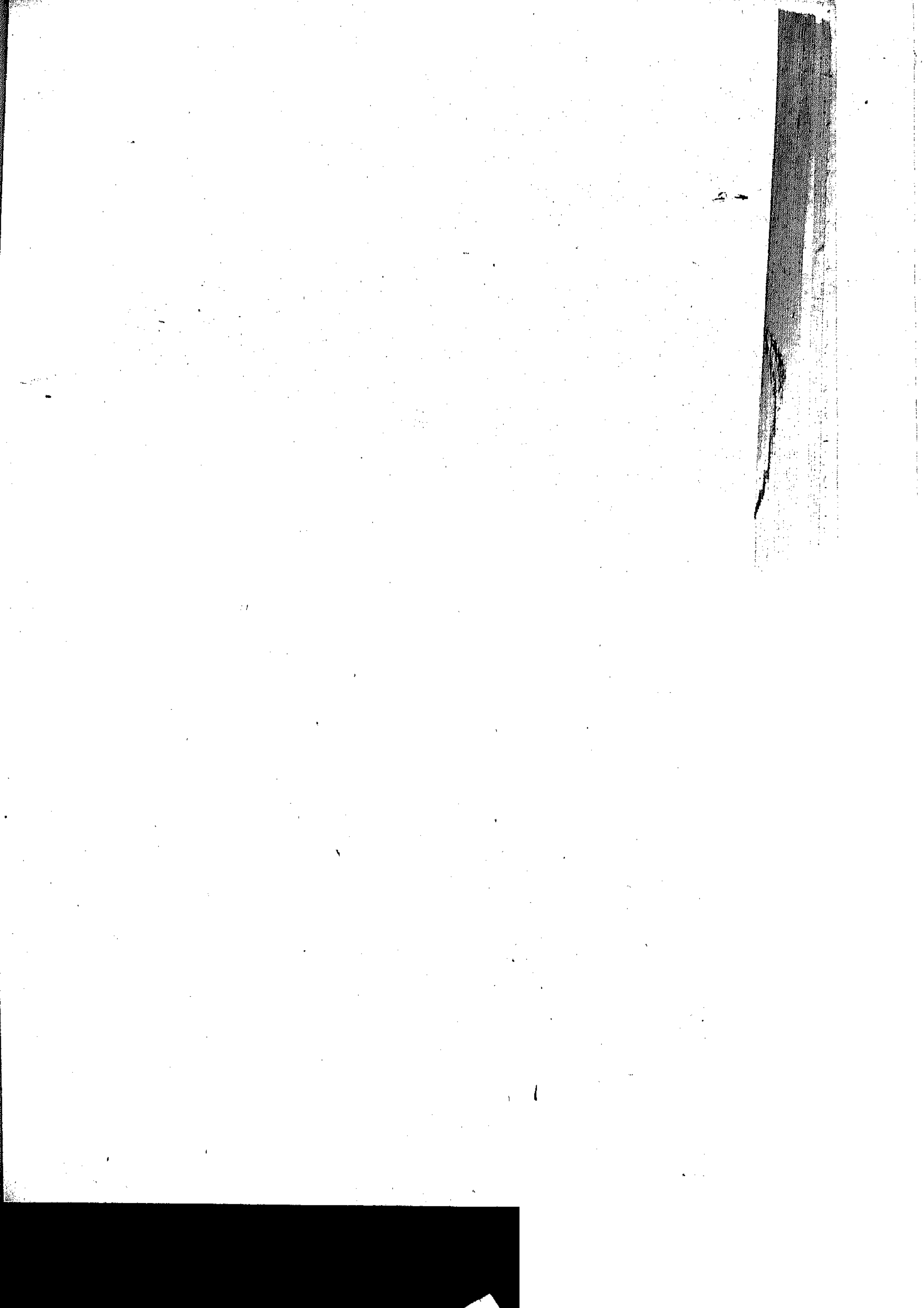
(١) انظر : ابن سعيد (نقلا عن ابن الداية) : المغرب ص ١٠٢١
(طبعة الدكتور زكى محمد حسن)

من السلاح والخيل . واستطاع العباس ان يفلت الى برقة بعد أن هزم هزيمة فادحة . وذاع فى مصر نبأ مقتل العباس فحزن احمد ابن طولون الأب على مقتل ابنه حزنا لم يستطع اخفاءه ، وتبدل هذا الحزن فرحا وسرورا حين علم بسلامته .

وارسل احمد بن طولون جيشا لمحاربة العباس فى برقة سنة ٢٦٧ هـ ثم عزم على الخروج بنفســه لمحاربته ، وفى تلك الاثناء كان الواسطى قد افلح فى الهرب من أسر العباس ولقى احمد بن طولون فى الاســكندرية سنة ٢٦٨ هـ متأهبا للخروج الى برقة لتأديب العباس ولكن الواسطى صغر أمر العباس عنده ونصحه بالرجوع الى الفسطاط . واستجاب احمــد بن طولون لنصيحة الواسطى وعــاد الى الفسطاط ، وارسل جيشا لمحاربة العباس واستطاع الجيش ان يهزم العباس واعوانه فى برقة وجىء بالعباس وبطانته الى الفسطاط فى سنة ٢٦٨ هـ . وأمر احمد بن طولون بضرب ابنه ومن أغروه على الخــروج والعصيان بالسياط حتى مات بعضهم من الضرب وزج بابنه فى السجن .



الفصل السابع
أحمد بن طولون يؤسس امبراطورية مصرية إسلامية



بلغ أحمد بن طولون أوج عظمته حين تم له النصر فى حملته على الشام وأعقب ذلك بالتوفيق فى اخضاع ابنه العباس . ولذا فقد بدأ منذ ذلك التاريخ باضافة اسمه الى اسم الخليفة على السكة . والمعروف أن النقود كانت تضرب فى مصر باسم الخليفة وحده حتى سنة ٢٦٦ هـ (٨٧٩ ــ ٨٨٠ م) ، على أن أحمد ابن طولون لم يضف الى اسم الخليفة اسم الموفق كما كان يفعل سائر الولاة فى أنحاء العالم الاسلامى . ولكن اسم الموفق كان يذكر فى مصر فى خطبة الجمعة بوصفه وليا للعهد بعد المفوض. والمعروف أن أحمد بن طولون لم يحذف اسم الموفق من الخطبة الا سنة ٢٦٨ هـ (٨٨٢م) وبذلك قضى على كل اعتراف من جهته بالموفق .

ولم يفز أحمد بن طولون بالراحة المنتظرة بعد اخضاع ابنه العباس لأن حادثا جديدا بعث النضال بينه وبين الموفق ، وذلك أن مولاه لؤلؤ الذى عهد اليه بحكم حلب وقنسرين وحمص وديار مضر انضم الى الموفق واعترف بسلطانه وبعث اليه الأموال التى كان عليه أن يرسلها الى سيده أحمد بن طولون .

ولم يتفق المؤرخون على بيان أسباب هذه الخيانة ، ففريق ينسبها الى سياسة الاقتصاد التى اضطر ابن طولون الى اتباعها .

بينما يذهب ابن سعيد ـ نقلا عن ابن الداية ـ الى أن لؤلؤ لم يكن راضيا عن تعيينه حاكما فى الشام واقصائه عن بلاط الأمير. وكان أحمد بن طولون ينسب خيانة لؤلؤ الى كاتبه محمد بن سليمان ، فان لؤلؤ كان قد استولى على جزء من الجزية الواجب ارسالها الى ابن طولون ثم خشى عقابه ونصحه محمد بن سليمان بالانضمام الى الموفق . ولسنا نظن أن لؤلؤا كان يطمع فى أن يصل مع الموفق الى مرتبة أعلى مما ناله عند أحمد بن طولون .فقد كان الأخير قد أطلق يده فى الشام حتى كان اسمه يجىء على السكة بعد اسم أحمد بن طولون كما نرى فى دينار ضرب سنة ٢٦٨ هـ (٨٨١ ـ ٨٨٣م) فى الرافقة (١) ومحفوظ فى مجموعة دار الكتب المصرية . بينما نعرف فى المجموعة نفسها دينارا ضرب فى الرافقة أيضا ولكن سنة ٢٧٠ هـ ، أى بعد ثورة لؤلؤ ، فنرى أنه مضروب باسم أحمد بن طولون وحده (٢) .

ويذكر المؤرخ ابن سعيد أن أحمد بن طولون عين صهره محمد بن فتح بن خاقان سنة ٢٦٨ هـ واليا على ديار مضر . ولعل هذا التعيين كان أساسا لسوء التفاهم بين ابن طولون وبين لؤلؤ. وعلى كل حال فان الذى لانشك فيه هو أن محمد بن سليمان

---

(١) الرافقة بلد متصل البناء بالرقة وهما على ضفة الفرات ، بناها الخليفة العباسى ابو جعفر المنصور سنة ١٥٥ هـ على بناء مدينة بغداد .

(٢) انظر : Zaky M. Hassan : Les Tulunindes p. 79
وما ذكره من مراجع

كاتب لؤلؤ كان له شأن خطير فى خروجه على ابن طولون . وذكر ابن سعيد أن ابن طولون حين عرف بخبر تلك الثورة أمر بمراقبة عبيد الله بن سليمان أخى محمد سالف الذكر . ولا يجدر بنا أن ننسى الآن أن محمد بن سليمان هذا هو الذى سيعود الى مصر على رأس جيش خليفى ليقضى على الدولة الطولونية . وقد ترك لنا بعض المؤرخين قصصا عن بداية حياته فى مصر نقرؤها فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، وهى قصص طريفة ولكنها بعيدة عن الصحة .

وصفوة القول انه أصبح كاتب لؤلؤ وان أحمد بن طولون كان لايميل اليه وكان يظنه مسئولا عن الأخطاء التى يرتكبها لؤلؤ .

وعلى أية حال فان خروج لؤلؤ على مولاه أحمد بن طولون كان أكبر حافز لابن طولون على الخروج ثانية الى بلاد الشام . وذلك فى شهر جمادى الأولى سنة ٢٦٩ هـ . وكان ابن طولون يريد أن يلحق بلؤلؤ ويؤدبه على خروجه . ولا نعتقد أن رجوع ابن طولون الى الشام فى هذه المرة كان بقصد توسع جديد ، وانما أراد ابن طولون أن يثبت سيادته فى البلاد التى ضمها الى مصر بعد أن كادت تودى بها خيانة لؤلؤ وانضمامه الى الموفق . كذلك كان الموفق قد قارب الانتصار على الزنج وأصبح من المتوقع أن يواجه أحمد بن طولون بقوته كاملة .

وكان أحمد بن طولون يأمل فى خروجه هذه المرة أيضا أن يجذب الخليفة العباسى المعتمد الى وادى النيل فينقل بذلك كرسى الخلافة الى مصر .

استخلف ابن طولون على مصر تلك المرة ابنه خمارويه وقيل انه أخذ معه ابنه العباس مقيدا . وسار أحمد بن طولون حتى نزل دمشق ، وهناك بلغته الأخبار أن يازمان الخادم تمكن من طرسوس واستمال أهلها وعزل خلف الفرغانى الذى كان قد استخلفه واليها طخشى عند وفاته . فكتب أحمد بن طولون الى خلف الفرغانى يأمره بالقبض على يازمان وبأن يحمله اليه . ولكن أهل طرسوس اتخذوا صف يازمان وولوه عليهم وأخرجوا خلفا من طرسوس . فعول أحمد بن طولون على المسير اليها بنفسه وبينا هو يتأهب ث جاءه كتاب من الخليفة المعتمد يعلمه أنه خارج اليه . وكان أحمد بن طولون يترقب ذلك النبأ العظيم الذى كان سيهز العالم الاسلامى هزا لو أنه تحقق . ففى الدوامة المستمرة لكفاح أحمد ابن طولون من أجل استقلال مصر ومن أجل الاحتفاظ بهذا الاستقلال الذى بناه بالدم والعرق ، نراه يطلع على العالم الاسلامى بأمر جديد كان له دوى كبير فى أنحاء الدولة الاسلامية طولا وعرضا . فقد اتخذ ابن طولون لنفسه صفة المدافع عن الخلافة بالسيف والسلاح . فنراه يكتب من مصر فى سنة ٢٦٨ هـ الى الخليفة المعتمد كتابا جاء فيه : « قد منعنى الطعام والشراب والنوم خوف على أمير المؤمنين أطال الله بقاءه من مكروه يلحقه ، وأصبحنا

بأصحاب أمير المؤمنين فى رده ومقارعه ، فحنث الأيمان المؤكدة له فى أعناقنا ، وقد اجتمع عندى مائة ألف عنان ، مؤلفة قلوبهم ، مجتمعة آراؤهم ، شديد بأسهم ، وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين - أدام الله عزه بالنصر والتمكين - الانجذاب الى مصر ، فان أمره يرجع بعد الامتهان الى نهاية العز ولا يمكن فيه مايخافه فى كل لحظة منه عليه » (١) .

وواضح مما رواه ابن الداية فى سيرة أحمد بن طولون ، ان أمير مصر لم يفكر فى هذه الخطوة الجريئة الا بعد ان علم بخلع لؤلؤ وانحيازه الى الموفق . ولم يكن من السهل على ابن طولون أن يرى كفاح السنين المتواصل ينهار أمـام عينيه ولذلك نراه يضرب ضربة جريئة علها تكون قاضية على الموفق وألاعيبه ، وفى الوقت نفسه تحفظ له ملك مصر ونفوذه فى الشام بل تعطى مصر حق زعامة العالم الاسلامى حينئذ .

ويذكر ابن الداية أن كتاب ابن طولون صادف هوى فى نفس الخليفة وأنه أظهر الخروج الى مصر . وقد رأى الخليفة أن خروجه فيه خلاص من تضييق الموفق وفرار مما يناله من امتهان ، وفيه ما يرضى حاجته الى المال ويضفى عليه الأمن والطمأنينة فى ظل أمير مصر القوى . وفى الوقت نفسه كان ابن طولون يريد أن يجرد

---

(١) ابن سعيد : المغرب : ص ١٢٦ - ١٢٧ (طبعة الدكتور زكى محمد حسن)

الموفق من السند الشرعى الذى يستند اليه اذ كان الموفق يجبر الخليفة على الأمر بما يريد .

ولم يكن من المعقول ان يبقى احمد بن طولون فى مصر منتظرا ما تجىء به الاحداث لذلك نراه يخرج الى الشام كما ذكرنا فى سنة ٢٦٩ هـ . وبينما كان فى دمشق أتاه كتاب الخليفة المعتمد بأنه سائر اليه . وتظاهر الخليفة بأنه خارج للصيد وكان الموفق لايزال يحارب صاحب الزنج . واتجه الخليفة صوب الرقة ولكن عيون الموفق أبلغوه الخبر فأرسل الموفق الى اسحق بن كنداج يأمره باللحاق بالخليفة لرده ويعده بالاموال والاقطاعات . وفعلا لحق اسحق بن كنداح بالخليفة عند الحديثة قبل أن يخرج من حدود العراق وهنالك أقنع اسحق الخليفة بأن ماعزم عليه هو الخطأ ، وذلك بعد ان قيد أتباعه الذين خرجوا معه وكان من بينهم ابراهيم ابن مدبر . وعاد الخليفة الى سامرا شبه سجين فى شعبان سنة ٢٦٩ هـ وعقد بعدها الموفق لاسحق بن كنداج على مصر . ولا أدل على هلع الموفق واضطرابه حينئذ مما قاله حين أرسل اسحق بن كنداج للحاق بالخليفة « اذا تم هذا الأمر استولى احمد بن طولون على أمره فلم يكن لكم ، ولا لأحد منكم مقدار ... فيكون ذلك سببا فى زوال دولة بنى العباس » (١) .

أما ابن طولون فانه كان قد رتب الأمور على أن تتم محاولة الخليفة فى أثناء وجوده فى بلاد الشام حتى يستطيع أن يكفل

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٩٠ .

للخليفة الحماية المنشودة ، وسار هو من دمشق لملاقاته ولكنه حين علم باحباط محاولته عاد ثانية الى دمشق .

ولم يكن من المعقـــول بعد ذلك أن يقف أحمد بن طولون مكتوف اليدين وذلك بعد أن اتسعت املاكه الى أبعد الحدود ولم تنل منه قوات الموفق ولم تعد فى بغداد قوة تستطيع أن تقف فى وجهه . لم يكن من المعقول أن يرضخ للموفق وان يســـتسلم لقراره بتولية ابن كنداج مصر . ولا يعقل أن يكون هذا القرار أكثر من حبر على ورق . فابن طولون لم يصبح مجرد وال على ولاية عباسية ، وانما اذا جاز لنا أن نســـتعير اللفظ ، فقد كان امبراطورا على امبراطورية واسعة امتدت الى حـدود العراق . فى الشرق وجبال طوروس فى الشمال وطرابلس فى الغـــرب . وأصبحت مصر الاسلامية حصن الاسلام وخط دفاعه الأول .

كان قرار الموفق بتولية اسحق بن كنداج على مصر بدلا من ابن طولون شــبيها بقرار أمير المؤمنين على بن أبى طالب بعزل معاوية عن الشام وهو اذ ذاك ملك غير متوج عليها . ولهذا نرى أحمد بن طولون يتصرف حينئذ تصرفا لايدهشنا ، فنـــراه يعقد مؤتمرا فى دمشق ويأمر عامله بأن يدعو القضاة والفقهاء والأشراف من كافة أنحاء امبراطوريته لأن أبا احمد الموفق نكث بيعة المعتمد

وأسره . وخرج من مصر الى دمشق فيمن خرج القاضى بكار بن قتيبة ، وخطب الخطيب فى مصر يوم الجمعة فذكر ما نال المعتمد وزاد فى خطبته « اللهم فاكفه من حصره ومن ظلمه » (١) .

وحينما اكتمل الاجتماع فى دمشق فى ذى القعدة سنة ٢٦٩هـ أمر أحمد بن طولون بكتاب خلع فيه ابا أحمد الموفق من ولاية العهد لمخالفته المعتمد وأسره له ، وكتب فى هذا الكتاب : « ان أبا أحمد خلع الطاعة وبرىء من الذمة ، فوجب جهاده على الأمة »(٢) وشهد على ذلك جميع من حضر الا بكار بن قتيبة ومحمد بن ابراهيم الاسكندرانى وفهد بن موسى . وتعلل بكار بقوله : «لم يصح عندى مافعله أبو أحمد ولم أعلمه » .

ولم يكتف ابن طولون بذلك بل جرد حملته المشهورة على الحجاز ليمنع من أن يدعى للموفق على منابر مكة (٣) .

وحين بلغ الموفق مافعله ابن طولون كتب الى عماله يأمرهم بلعن ابن طولون على المنابر فلعن فيها وكان مما يلعن به : « اللهم العنه لعنا يفل حده ، ويتعس جده ، واجعله مثلا للغابرين ، انك لاتصلح عمل المفسدين » .

وهكذا نرى الموفق ، بعد ان استنفد كل وسائل العداء نحو أحمد بن طولون وبعد أن انهكت حرب الزنج قوته ، لا يستطيع

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٢٦٦.

(٢) نفس المرجع ص ٢٦٦

(٣) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٢٩٨.

أن يرد على ابن طولون الا باللعن على المنابر . وكان الموفق أول الطرفين ميلا للتفاهم واقرارا للسلام فلم يكن قادرا على عدوان جديد . وخير دليل على ذلك أنه حين حرضه لؤلؤ غلام ابن طولون على الحرب لم يستجب (١) . وبدأ الموفق يتصل بابن طولون ، فأرسل اليه يعاتبه على المبادرة بخلعه واسقاط اسمه ويعتذر له على ماكان من لعنه على منابر بغداد . ولم يكن من أحمد بن طولون بعد أن تأكد من صدق رغبة الموفق ، الا أن جنح الى المسالمة واعتذر اليه .

وطرب الموفق لاستجابة ابن طولون ، واطلق الخليفة من محبسه وبادر بتكريم الخليفة . وكتب الخليفة لابن طولون يسأله رد الدعوة وانفذ اليه اسقاط اللعن عنه .

ولم ينس ابن طولون وسط هذه الأحداث أن يعنى بمنطقة الثغور عنايته بسائر بلاد الشام . ومر بنا أنه كان عازما على السير الى طرسوس حين ورد عليه كتاب الخليفة بالسير اليه . ولما فرغ ابن طولون من مؤتمر دمشق وما كان فيه ، سار نحو طرسوس ولما وصل الى المصيصة ارسل الى يازمان الخادم يدعوه الى طاعته والدعاء له فلم يستجب يازمان .. فزحف أحمد بن طولون الى اذنة ثم الى طرسوس فوجد يازمان قد تحصن بها ونصب المجانيق على سورها . وكان الوقت شتاء والجو باردا والمطر والثلج كثيرا ،

(١) البلوى : سيرة ابن طولون ص ٣٠٢

وارسل يازمان الماء على عسكر أحمد بن طولون من نهر البردان فغرق عسكره واضطر ابن طولون أن يرجع الى اذنة . ثم رحل ابن طولون من اذنة الى المصيصة وهناك مرض مرضه الذى أدى الى وفاته . وحين اشتدت وطـأة المرض على ابن طولون أسرع بالعودة الى مصر فوصل الفسطاط فى جمادى الآخرة سنة ٢٧٠ هـ . ولم يقف مرضه حائلا دون متابعة الاشراف على امبراطوريته فأشيع حينئذ أن اسحق بن كنداج وابن أبى الساج لما علما بمرضه طمعا فى أملاكه ، فكتب الى قواد جيشه ببلاد الشام يطلب منهم توحيد الكلمة لمواجهة العدوان المرتقب . بل انه انفذ الى الشام جيشا فيه خاقان ويلبق وأقام فى مضاربه فى منية الاصبغ (١) نحو ستة أشهر يتابع الحال حتى وافته الأنباء بزوال الخطر .

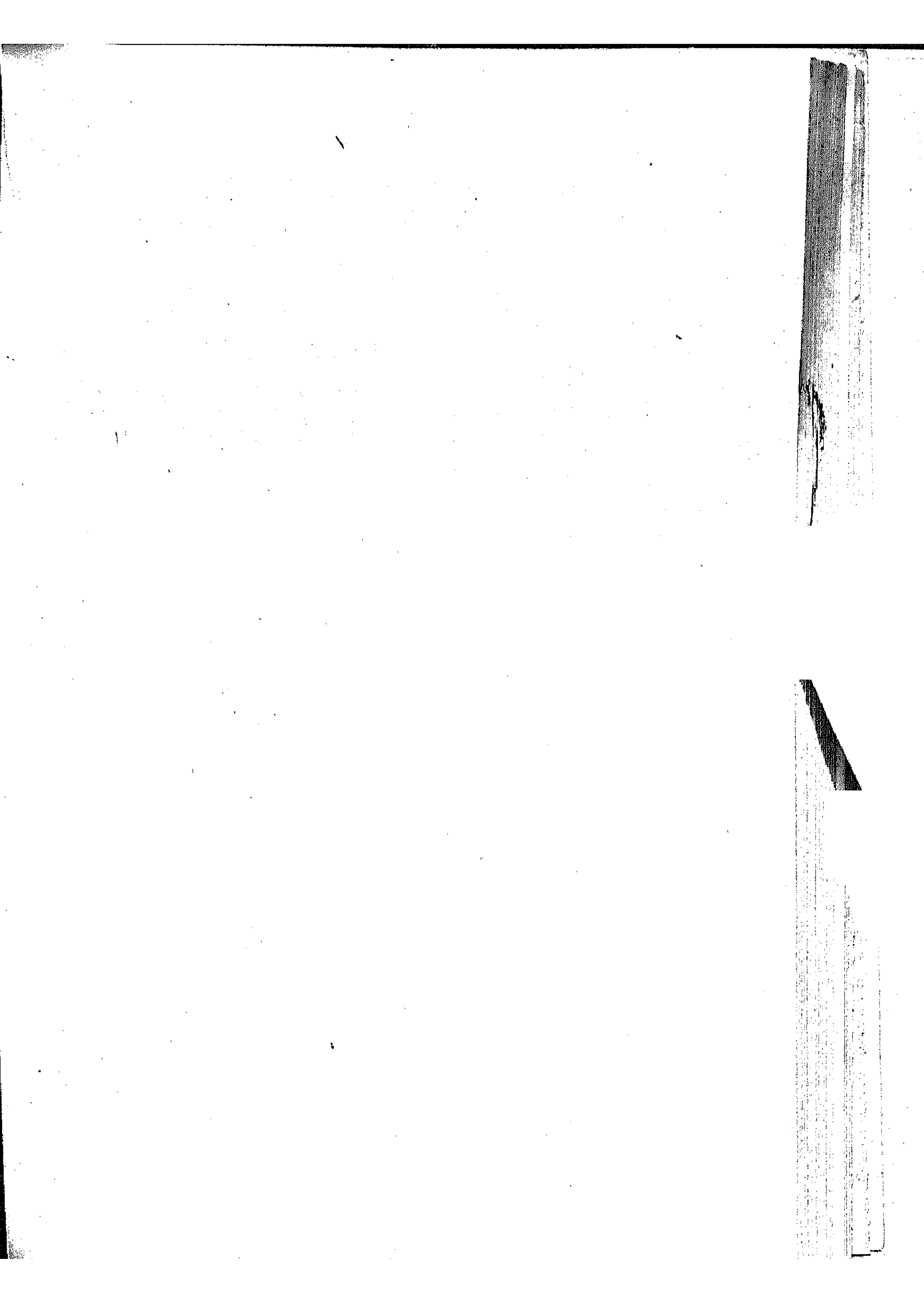
وهكذا نرى أن أحمد بن طولون استمات فى الدفاع عن حقوق اكتسبها حتى آخر رمق فى حياته فقد وافته المنية ليلة الأحد لعشر خلون من ذى القعدة سنة ٢٧٠ هـ بعد أن حكم مصر ستة عشر عاما .

---

(١) كانت اقطاعا من الخليفة عمر بن الخطاب الى الصحابى ابن سندر وبعد وفاة ابن سندر اشتراها من ورثته الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان » أما موقعها فكان شمالى الفسطاط بالقرب من ضاحية الدمرداش الحالية » « انظر : سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام . ص ٥٣ »

الفصل الثامن

علاقات مصر الخارجية في عهد أحمد بن طولون



١ ـ أحمد بن طولون والخلافة العباسية :

كان تاريخ أحمد بن طولون وتاريخ اسرته من بعده ليس فى الحقيقة الا صراعا بينهم وبين الخلافة العباسية أو الحاكمين باسم الخليفة . واذا عرضنا لمسألة التقليد والحق الشرعى بالنسبة لأحمد بن طولون نرى أن الخليفة لم يعينه قط حاكما عاما على مصر . فقد ذكرنا أنه قدم اليها نائبا عن واليها باكباك (زوج أمه) وظل فيها بعد وفاة باكباك واقطاع مصر ليارجوخ حميه . وبعد وفاة الأخير تعقدت الأمور ولم يشأ ابن طولون أن يترك حكم مصر واستغل لمصلحته الخلاف بين المعتمد والموفق واستطاع بعطاياه وهداياه أن يجعل حكومة العراق تتركه مؤقتا حتى تحين الفرصة للتخلص منه . ثم اعترف به الخليفة نائبا عن ابنه جعفر الذى كانت مصر من نصيبه فى الاقطاع ، واضاف اليه فضلا عن ذلك ولاية الخراج وحكم العواصم . ولما لم يرسل أحمد بن طولون الى الموفق المبلغ الذى كان ينتظره بل بعث اليه بكتابه المشهور اراد الموفق أن يولى على مصر أماجور بالاتفاق مع موسى ابن بغا الوصى على اقطاع جعفر المفوض . وقامت حملة الى مصر بقيادة موسى بن بغا ولكنها توقفت عند الرقة وأصبح أحمد بن طولون بذلك السيد الفعلى لوادى النيل .

والملاحظ أن أحمد بن طولون ظـــل دائما معترفا بالخليفة العباسى المعتمد ، وربما كان ذلك لأن المعتمد لم يكن فى يده من السلطان شىء . بل ان أحمد بن طولون أراد أن يظهر بمظهر المدافع عن المعتمد ضد أخيه الموفق . وهذه مسألة هامة فان أحمـــد بن طولون كان فى أكثر الأحيان أقوى من الخليفة نفسه ولكنه كان يحرص على ارضائه لأن الخليفة كان لايزال متمتعا بنفوذه الدينى.

والواقع أنه حتى القرن الرابع الهجرى « العــاشر الميلادى » حين انقسم العالم الاسلامى الى دول صغيرة منفصلة لم تفقد الخلافة معناها . وكان اعتراف الخليفة العباسى لايزال له شأنه عند العامة والخاصة ، اذ انه بالرغم من ضعف الخليفــة فى بغــداد الا أن سيادة الخليفة على الممالك والدول الاسلامية ظلت ماثلة فى الأذهان ولم يفقد معنى الخلافة حتى ذلك الحين ماكان له من القـــوة والســـلطان .

وقد رأينا كيف أراد أحمد بن طولون أن يجعل مصر مركزا للخلافة العباسية ولكن مشروعه باء بالفشل .

وقد وضحت نية أحمد بن طولون فى توريث ملكه لاولاده من بعده ، فنراه يستخلف ابنه الأكبر العباس على مصر حين خرج الى الشام والثغور فى سنة ٢٦٤ هـ .

وقبل أن يسير أحمد بن طولون الى الشام فى سنة ٢٦٩ هـ ، وحين وردت اليه موافقة الخليفة العباسى على السير الى مصر ،

نراه يستخلف خمارويه على مصر ويترك معه جماعة من شيوخ القواد لمشاركته الحكم .

غير أن رغبة ابن طولون فى توريث ملكه وضحت تماما حين عاد من بلاد الشام مريضا محمولا اذ أحس باقتراب منيته ولذا نراه يبايع ابنه أبا الجيش خمارويه بولاية الأمر من بعده .

ولم يكن ينقص ذلك الأمر الا أن يستوفى الشكل وأن توافق الخلافة العباسية على مبدأ التوريث . وكانت مبادىء التفاهم بين الموفق وبين أحمد بن طولون تمهد لاقرار الأمر الواقع لولا أن المنية عاجلت أحمد بن طولون قبل أن يستكمل الناحية الشكلية فى استقلاله بالملك وتوريثه لأبنائه من بعده .

٢ ــ أحمد بن طولون والدولة البيزنطية

لم تترك لنا المصادر التاريخية بيانات كافية عن علاقة بنى طولون بالروم . ولكن المعروف أن أحمد بن طولون اتصل بممثلى الامبراطور باسيليوس الأول عندما غزا الأول الشام . وبيان ذلك أن الامبراطور المذكور كان قد استعاد من المسلمين حصن لؤلؤة سنة ٢٦١ هـ (٨٧٥م) وقلق الخليفة لضياع هذا الحصن وغيره من الثغور ، فطلب من احمد بن طولون أن يطرد الروم وعينه حاكما على العواصم . ولكن أمير مصر كان مشغولا بتوطيد سلطانه فيها فلم يستطع أن يتفرغ لهذه المهمة التى كانت فى الواقع مما يهم الخلافة نفسها . ولذا فقد استطاع الروم أن يواصلوا بنجاح حملاتهم فى آسيا الصغرى .

وفى سنة ٢٦٤ هـ (٨٧٨م) سار أحمد بن طولون بجيشه الى الشام . وأكبر الظن أنه استطاع أن يتصل بالروم على الحدود اتصالا وديا ، ولعلهم رحبوا بذلك عندما وجدوه سياسيا بعيدا عن التعصب الأعمى . وأطلق الروم ـ عربونا لهذه الصداقة ـ سراح عبد الله بن راشد بن كاوس ، الذى كان عامل الثغور وأسره الروم ، كما أطلقوا معه سراح عدد كبير من الأسرى ، ولعل ذلك كان من قبيل تبادل الأسرى بين الروم والمسلمين مما كان يحدث كثيرا ولاسيما فى طرسوس ويعرف باسم « الفداء » عند المسلمين .

وقد روى المؤرخ العينى أن الامبراطور أهدى الى أحمد بن طولون فى هذه المناسبة بضعة مصاحف كريمة مخطوطة .

وكان الروم فى العام السابق قد طلبوا من أحمد بن طولون عقد هدنة فأجابهم الى ذلك ، وانتهز هذه الفرصة كى يصلح الحصون الاسلامية فى الثغور . ومن الطريف أنه كتب الى طخشى عامله على طرسوس يأمره بتوزيع المال والطعام على المحاربين الفقراء الذين اتخذوا الجهاد ضد الروم حرفة والذين كانوا يخسرون بهذه الهدنة كل ما اعتادوا الحصول عليه من الغنائم .

وجاء بعد طخشى فى حكم طرسوس ، خلف الفرغانى ، الذى واصل الغارات على الروم وجاء فى النجوم الزاهرة لأبى المحاسن بين حوادث سنه ٢٦٨ هـ : « وفيها غزا خلف الفرغانى

التركى نائب أحمد بن طولون ثغور الشام ، فقتل من الروم بضعة عشر ألفا ، وغنم حتى بلغ السهم أربعين دينارا » . ولكن جاء فى المصادر اليونانية أن الروم هزموا المسلمين فى البحـــر ، ومن الطريف أنهم أشاروا الى جاســـوس أرسله المســـلمون الى القسطنطينية ليقف على حقيقة قوة الروم .

والمعروف أن يازمان استولى على حكم طرسوس قبيل وفاة أحمد بن طولون . وكان يازمان هذا قد اشتهر فى الجهاد ضـد الروم . واستمرت فى عهده الغزوات السنوية ضد الروم . وكان أسطول المسلمين يغزو الجزائر اليونانية فى بحر الأرخبيل وينقض على موانى آسيا الصغرى . وكان يازمان هو صاحب اليد الطولى فى هذه الغزوات وليس خمارويه بن أحمد بن طولون وخليفته فى حـــكم مصر .

وقد مر بنا كيف خلع يازمان طاعة أحمد بن طولون ومات ابن طولون قبل أن يتم نصره عليه .ولم يعترف يازمان بسلطان خمارويه قبل سنة ٢٧٤ هـ (٨٨٨م) .

٣ ـ أحمد بن طولون وبلاد النوبة :

لم يتحدث المؤرخون العرب عن علاقة بنى طولون ببلاد النوبة اللهم الا فى مناسبة الكلام عن العمرى الذى دخل تلك البـلاد وقاتل أهلها مدة طويلة قبل أن يضطروه الى التقهقر الى أسوان حيث دار القتال بينه وبين الجيش الطولونى كما مر بنا .

٤ ـ احمد بن طولون وبنى الأغلب :

كانت مصر مركزا هاما بين بلاد الشرق الاسلامى ، وبين افريقية وبلاد المغرب ، فكانت طريقا للحجاج والرحالة والعلماء والتجار . وكان يجاور مصر فى العصر الطولونى من الغرب فى افريقية (تونس الحالية) دولة الأغالبة . وكان ابراهيم الثانى الأغلبى يحكم افريقية (٢٦١ - ٢٨٩ هـ - ٨٧٤ - ٩٠٢ م) منذ وطد احمد بن طولون سلطانه فى مصر الى السنين الأخيرة التى ضعفت فيها الدولة الطولونية وآذن نجمها بالأفول .

وكانت دولة الاغالبة تخضع للعباسيين خضوعا اسميا ، على غرار الدويلات التى استقلت عن الخلافة آنئذ . ولا نعرف ان احمد بن طولون فكر فى الاعتداء على دولة الأغالبة ، اذ انه كان مشغولا بتوطيد سلطانه فى مصر ، وبتصفية علاقته مع الخلافة العباسية ، وبتوسع سلطانه فى الشرق ولا ريب فى أن المستشرق الانجليزى وليم ميور Muir لم يكن دقيقا حين ذكر فى كتابه « الخلافة » ان احمد بن طولون حارب ابراهيم الأغلبى حاكم القيروان الذى حاز انتصارات باهرة فى صقلية ثم اتجهت مطامعه الى الشرق .

فالواقع أن أحمد بن طولون كان مقتنعا بقوة الأغالبة ولم يرد قتالهم . وكل ماحدث بينهم وبين أحمد بن طولون كان على يد العباس الذى ثار على والده ثم فر الى برقة وافريقية وقد مر بنا

الحديث عن ذلك . والطريف أن المستشرق الفرنسى فوق درهيدن الذى كتب تاريخ بنى الأغلب بالغ كثيرا جدا فى تقدير الغنائم التى حصل عليها الأغالبة عندما هزموا العباس حتى لقد كتب ان جزءا من ثروة وادى النيل انتقل الى افريقية مما يفسر ما نعرفه من غنى الأمراء الأغالبة فى نهاية دولتهم . والحق انه اذا كان ماغنموه من العباس اثر عليهم الى هذا الحد فلابد انهم كانوا قبل ذلك فقراء جدا ! .

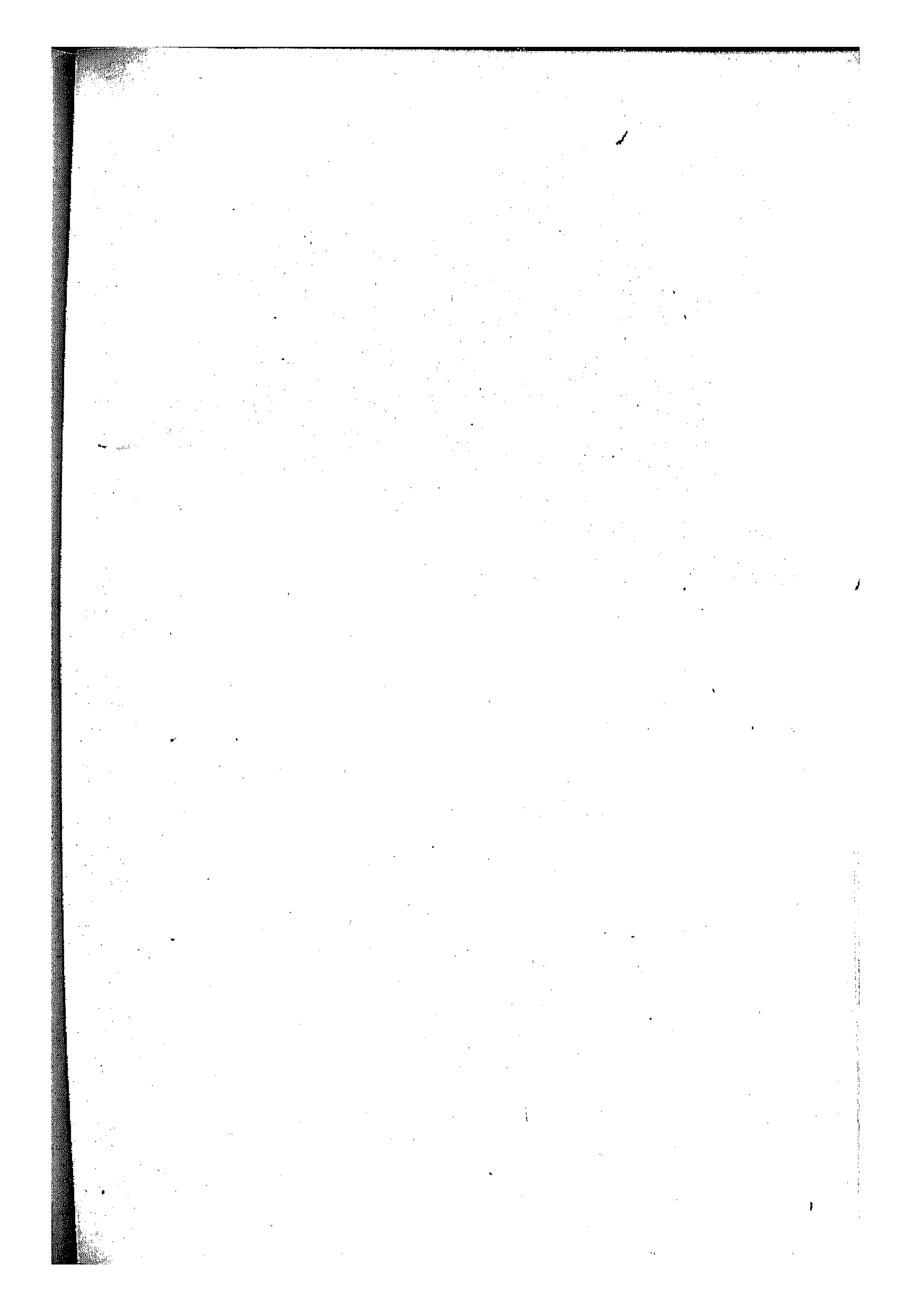
وكتب مؤرخو افريقية أن الأمير الأغلبى ابراهيم الثانى فكر بعد هزيمة العباس بست عشرة سنة فى مهاجمة مصر واعد لهذا الغرض حملة ، ولكننا لا نرى أى ذكر لهذا المشروع فى كتب التاريخ المصرية الاسلامية ،والظاهر ان الحملة المذكورة لم تكن معدة لفتح مصر ، ولاسيما اذا تذكرنا أن الأغالبة لم يكونوا ليستطيعوا ان يبقوا مصر لأنفسهم بعد فتحها ، ولم يكونوا ليتكلفوا مشقة فتحها لتقديمها الى الحكومة العراقية .

وذكر المؤرخ الأندلسى ابن الأبار ان ابراهيم الثانى تظاهر بالقيام بالحملة على مصر ليستطيع أن يسير على رأس جيشه ويمر بمدينة طرابلس حتى يتسنى له أن يقتل حاكمها وقد كان من ألد أعدائه . ومهما يكن من الأمر فان ابراهيم الثانى اعتزل العرش سنة ٢٨٩ هـ (٩٠٢ م) . وكان قد أراد قبل ذلك أن يؤدى فريضة الحج ثم عدل عن هذا المشروع مدعيا أن مروره بالأراضى

المصرية قد يكون سببا القتال بين بنى طولون وبنى الأغلب .
ولكن الواقع أن هذه الدعوى لم تكن صحيحة وان ابراهيم كان
يعرف أن أمير الدولة الطولونية التى كانت تحتضر حينئذ لم يكن
ليشغل نفسه بمنع أمير مسلم من المرور لأداء فريضة الحج .
وأكبر الظن أن ابراهيم نفسه لم يكن يريد الذهاب الى الحجاز
كى لا يضطر الى مواجهة الخليفة بعد ان بعث اليه أهل افريقية
بظلامات يرجون فيها عزل هذا الأمير لسوء سيرته وعسفه فيهم .
والمعروف على كل حال أن ابراهيم اعتزل الحكم وذهب الى
صقلية حيث ترأس حملة كانت تجاهد ضد البيزنطيين .

الفصل التاسع

جيش مصر في عهد أحمد بن طولون



شرع ابن طولون منذ البداية فى اعلاء شأنه باستقلال يكاد يكون تاما ، وبرخاء تنعم به البلاد فى عصره . واعتمد فى سبيل تحقيق هذا الغرض على جيشه العظيم . أجل ! . فلا يفوتنا انه هو الذى خلق هذا الجيش الذى كان أحسن عدة له ولابنه من بعده ، وان هذا الجيش كان على عكس سائر الجيوش الاسلامية ، وافر العدد والنظام وقائما حتى فى زمن السلم . ولم يفقد هذه المزايا الا بعد مقتل خمارويه بن أحمد بن طولون .

وكانت مهمة انشاء هذا الجيش سهلة على احمد بن طولون ، ولم تصادفه الصعوبات التى لقيها بنو الأغلب من وجود جيش عربى يعارض فى التجديد وفى ضم العناصر الغريبة . ولا غرابة فان احمد بن طولون لم يجند جندا من العرب عندما قدم الى مصر . والمعروف ان الجند الترك والمرتزقة من الأجانب كانوا قد خلفوا العرب فى الجندية منذ أمر المعتصم بشطب العرب من ديوان الجيش سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) ، ونتج عن ذلك امتزاج العرب بسائر طبقات الشعب فى مصر ففقدوا صفاتهم الحربية البحتة . والواقع أن أولئك الجند العرب كانوا مع شجاعتهم بعيدين عن النظام الى حد ما وكانوا يذكرون منازعاتهم ومنافساتهم القبلية ويتوقون الى الحرية وكان ذلك يضايق الأمراء الى أكبر درجة .

ومر بنا أن احمد بن طولون اصطحب عددا من الجند حين قدومه الى مصر . ولكن ثورة ابن الشيخ والى الشام هى التى

مكنته بمساعدة الخليفة وموافقته من انشاء جيش كبير . وأصبح لمصر لأول مرة جيش عظيم مستقل عن الخلافة . وخدمت الظروف احمد بن طولون عندما عدل الخليفة عن رأيه الأول فلم يفقد الجيش الطولونى شيئا فى قتال ابن الشيخ ، بل أعفى من هذه المهمة وتولتها جيوش عراقية أرسلها الخليفة . وكان ذلك غلطة كبيرة من حكومة العراق بقدر ما كان مكسبا كبيرا لمصر .

وذكر المقريزى أن احمد بن طولون اشترى عبيدا من الروم والسودان لانشاء هذا الجيش . وذكر فى موضع آخر أن جيش أحمد بن طولون بلغ ٢٤ ألف مملوك من الترك و ٤٠ ألفا من السود وسبعة آلاف حر مرتزق . وذكر المؤرخ ابن اياس نقلا عن ابن وصيف شاه أن الأربعة وعشرين ألف مملوك كانوا من بلاد الديلم وان سبعة الآلاف كانوا من العرب . ولكن هذين المؤرخين لا يمكن الركون اليهما فى أخبار هذا العصر . وقد يكون فى الجيش الطولونى جنود مرتزقة من العرب ولكنا لا نظن أن عددهم كان كبيرا أو أن شأنهم كان خطيرا .

أما ابن سعيد فقد ترك لنا نصا يظهر أنه غير كامل ، ففيه أن احمد بن طولون خلف عند وفاته سبعة آلاف مولى وأربعة وعشرين ألف عبد . ولسنا نعرف هل المقصود بهؤلاء أنهم خدم خصوصيون للأمير ولا علاقة لهم بالجيش ، أو انهم من الجند وأن النص غير كامل فلا ذكر فيه للجند السودان ، وهنا يحق لنا

أن نتساءل كيف أصبح السبعة آلاف حر مرتزق فى رأى المقريزى ، موالى عند ابن الداية أو ابن سعيد . ولعل هؤلاء السبعة آلاف كانوا من أبناء مصر ، وان كلمة موالى كانت تعنى أبنــاء البلاد الاسلامية التى سيــطر عليها العرب منذ القرن الأول الهجرى . وفضلا عن ذلك فقد قدر الجيش الطولونى بمائة ألف جندى فى أربع مناسبات معروفة ، الأولى الاشارة الى هذا العدد فى كتاب احمد بن طولون الى الموفق ، والثانية اشارة التجار العراقيين عند رغبتهم فى ارهاب عظماء سامرا وكبار رجال البــلاط كى لا يقبلوا منصب والى مصر ، والثالثة اشارة احمد بن طولون فى كتابه الى المعتمد عارضا عليه حماية مثل هذا العدد من الرجال وانقاذه من استبداد الموفق ، والرابعة ما ذكره الكندى من أن جنود احمد بن طولون كان عددها مائة ألف حين سار لاخضاع ابنه العباس .

وأكبر الظن أن فى هذه الأرقام بعض المبالغة . وفى رأينا أننا لا نكون بعيدين عن الصــواب اذا قدرنا الجيوش الطولونية فى أوج عزها بنحو خمسين ألف جندى . ولسنا نعرف ، لسوء الحظ ، من النصوص التاريخية ما نستطيع بوساطته البحث فى نظام هذا الجيش وعدده وغير ذلك مما يعنى به المؤرخون المحدثون بعد أن كان يهمله المؤرخون المسلمون الى حد كبير .

وحسبنا أن نذكر أن الجند من المماليك الروم كان لهم فى القطائع حى قائم بذاته . وأن الجيش كان فيه عدد كبير من عبيد

بنى طولون ولكننا نرجح أن الأغلبية فيه كانت من المماليك المعتقين أو الجنود المرتزقة ، وان بعضهم كان سودانيا ، وبعضهم من أصل رومى أو تركى . وأكبر الظن انهم كانوا كلهم يتسلمون أجورا وأعطيات ، وان المقريزى لم ينص على أن بعضهم كان « حرا مرتزقا » الا لأن هذا البعض كان من العرب ، وربما كانت مرتباتهم أعلى من مرتبات سائر الجند . ولسنا نعتقد أن فريقا من الجند لم يكن له مرتبات اللهم الا اذا كان من عبيد الأمير الخصوصيين ، وحتى هؤلاء كانوا يكافئون بطريقة ما . ولسنا نستطيع أن نكتب شيئا عن قيمة المرتبات التى كانت تدفع للجند ولكننا نظن بوجه عام أن احمد بن طولون كان يعنى بارضاء جنده من هذه الناحية أشد الرضاء ، بينما كان خصومه ضعفاء فى هذه الناحية ، فلم نسمع عن جنده أى ثورة أو فتن ، بينما رأينا جيش ابن بغا لم يستطع التقدم بعد الرقة بسبب الثورة التى قام بها جنده الذين لم يتسلموا مرتباتهم .

وقد كتب المؤرخ اليعقوبى أن كل الجنود الطولونية أقسمت يمين الطاعة لاحمد بن طولون فى سنة ٢٥٨ هـ (٨٧٢ م) .

والظاهر أن حفظ النظام بين هذه الجنود كان أمرا شاقا ، ولم يتيسر لاحمد بن طولون الوصول اليه بسهولة ، بل انه لم يصل اليه الا بفضل صفاته الشخصية وحزمه وكرمه وبعد نظره . ولا غرابة فقد كان هذا الجيش مكونا من عناصر متعددة كانت تنسى عصبيتها الجنسية أمام حزم احمد بن طولون .

أما قواد الجيش فلم يكن بينهم أحد من أقــارب احمد بن طولون نفسه اذ كان أبناؤه صغارا ولمــا كبر العباس كان مصدر شــقاء لأبيه . بينمــا لم يكن موسى بن طولون قائدا أو اداريا يستطيع أخوه احمد أن يعتمد عليه فضلا عن أن العلاقات بينهما توترت بعد مجيء احمد الى مصر بوقت قصير . فلم يبق لقيادة الجيش الا القواد من الجند الترك . وقد كان فى هؤلاء القواد نقطة ضعف خطيرة هى أنهم لم يعتقدوا بحق شرعى مقدس لبنى طولون فى الحكم ، فقد كان احمد مواطنا لهم بدأ حياته كواحد منهم ، ولم يكن لأسرته حق شرعى أو ماض مجيد . ولكن مؤسس الأسرة الطولونية فى مصر استطاع ، بمواهبه وهباته وشدته عند اللزوم ، أن يخفف من أضرار مثل هذه الحالة ، وأن يمنع القواد من القضاء على ســلطانه .

ومن أمثلة الأساليب التى اتبعها احمد بن طولون فى معاملة قواده ما ذكره الكندى من أنه بعث الى قائده بهم بعد انتصاره على ابن الصوفى « بخلع وطوق من ذهب » .

ولمــا فتح احمد بن طولون الشام انضم الى جيشــه جنود تلك الأقاليم ولكن احمد بن طولون لم يستطع أن يكون بجانبهم دائما ، ولم يمكنه أن يعودهم على نظام جيشه فى مصر . وقد ظلت هذه الجنــود الشامية أقل تعلقا بشــخص أحمد بن طولون من تعلقها بحكام الأقاليم فى الشام وخير مثال على صحة ذلك ثورة لؤلؤ . فضلا عن أن نجــاح العبــاس فى الثورة والفرار بالجند

الذين كان أبوه تركهم فى مصر يدل على ضعف العلاقة بين الجند وقائدهم الأعلى .

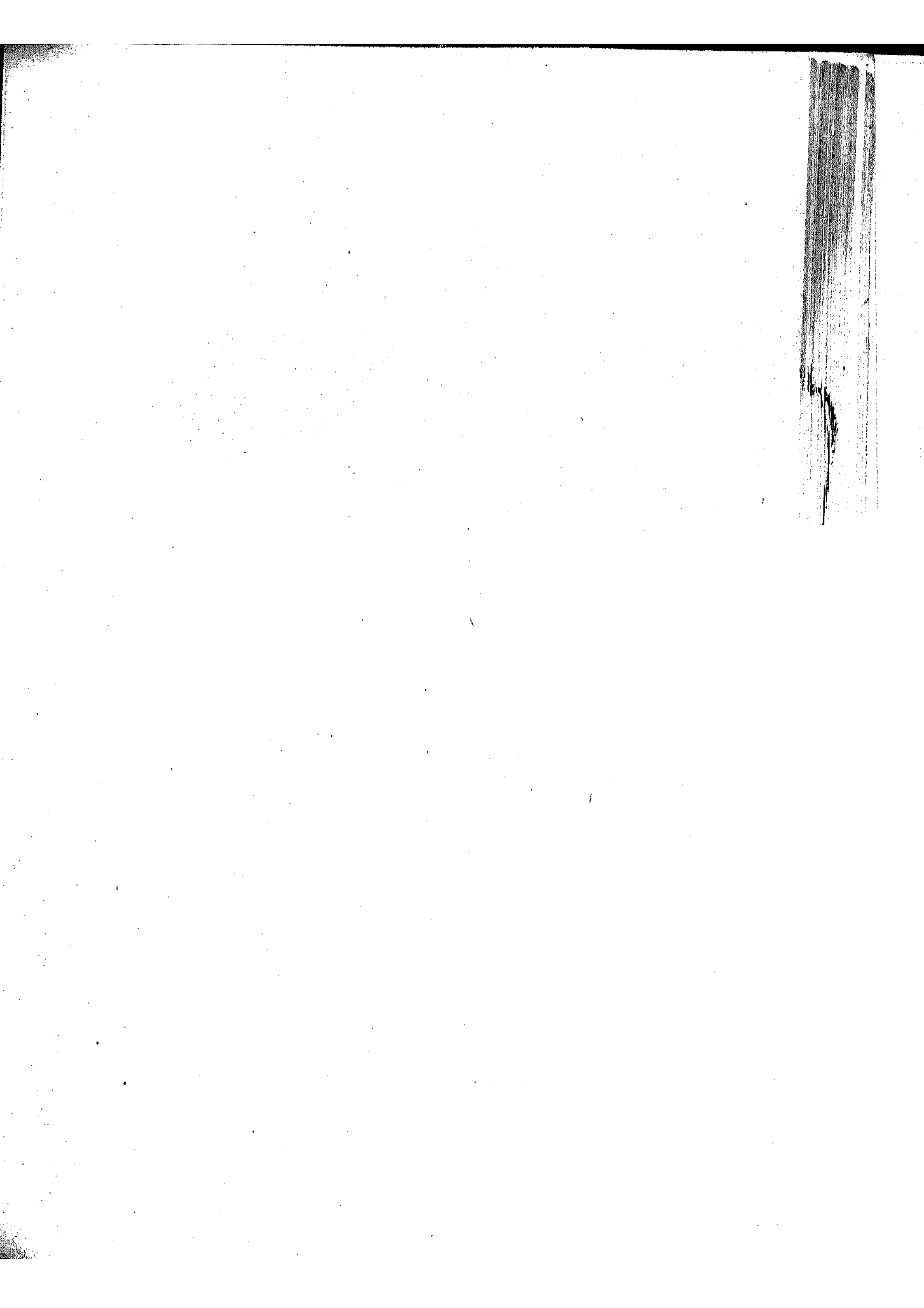
والحق ان المسألة المالية كانت تفوق كل شىء فى علاقة أمراء بنى طولون بجيشهم . وكان مركز احمد بن طولون قويا فى جيشه ، واستطاع أن يعتمد عليه وأن ينتظر منه الخدمات الجليلة ، وذلك لأن أحمد بن طولون كان لديه من الأموال ما استطاع بوساطتها أن يدفع مرتبات الجند فى نظام ، ولأنه كان شديد القسوة عند اللزوم ، ووافر الكرم فى بعض الأحيان ، ويعرف كيف يستطيع القضاء على كل حركة تذمر فى مهدها . ولا يفوتنا أن حروبه المتصلة فى الشام والثغور وضد الثورات الداخلية كانت تجعل القواد والجند أمام أغراض يجب الوصول اليها ، وأعداء يجب التغلب عليهم فكان لابد لهم من نظام يسهل لهم هذه المهمات .

وكان احمد بن طولون كثيرا ما يستعرض الجيش فى مناسبات الحفلات والأعياد وأيام الجمع فيقف الشعب على الجانبين معجبا بجلال أجسامهم وحسن ملبسهم وجميل نظامهم ، ولا ريب أن هذا كان عاملا قويا فى حفظ النظام فى داخل البلاد وسيادة الرخاء .

وفى عصر جيش بن خمارويه انقلب الحال وظهر أن نظام الجيش الطولونى لم يقم على أسس قوية بل كان احمد بن طولون وخمارويه يكادان يشتريان احترام الجند وطاعتهم بالهبات

والعطايا ، فلما ترك خمارويه الخزانة خالية ، ولم يستطع جيش ابن خمارويه أن ينسج على منوال جده وأبيه رفض قسم من الجيش الاعتراف به ، ولم يلبث الجيش القديم أن أصبح فرقا من الجند فقدت نظامها وسادتها الفوضى ثم انتهى الأمر بفرار بعض القواد الى العراق . ولم يكن لجيش بن خمارويه من الحزم أو الشخصية ما كان لجده فزاد الطين بلة وأصبح الجند من أكبر أسباب الفوضى فى الدولة بعد أن قام على أكتافهم مجدها فى عهد جده وأبيه .

ولم يكن قتل جيش بن خمارويه سببا فى اصلاح الحال فقد أصبحت مرتبات الجند لا تدفع بانتظام وكانوا يعيشون على ارهاب الحكومة وارهاق الشعب . والواقع انهم لم يكن لديهم ما يشغلون به منذ ساد السلام بين بغداد ومصر . وزادت الفتن بين القواد وعظمت القلاقل بين الجند بسبب العصبية الجنسية والمطامع الخاصة . وذهب ما كان للجيش الطولونى من صفات النظام والقوة . ولم يبق على الاخلاص التام لبنى طولون الا الجند السودان الذين امتازوا باخلاصهم لمن يتبعونه فنراهم يعترضون على خلع جيش بن خمارويه قبل أن يعترف بعجزه عن حكم البلاد . وكان الجند السودان أول من حل بهم انتقام الجيوش العراقية فذبحوا عن آخرهم لأنهم لم ينضموا الى الجيش العباسى بل ظلوا على اخلاصهم لبنى طولون حتى النهاية .



الفصل العاشر

البحرية فى مصر فى عهد أحمد بن طولون

أصبحت مصر عقب الفتح العربى لها مركزا لصناعة السفن اللازمة لأسطول الخلافة ، كما كانت تمد هذا الأسطول بخيرة الملاحين والعمال المصريين . وأصبح اسم « الصناعة » فى مصر يدل على المكان الذى تبنى فيه السفن الحربية . وعقد المقريزى فى كتابه الخطط ، فصلا فى ذكر المواضع المعروفة بالصناعة ، كما أشار فى أماكن أخرى من كتابه الى أن الصناعة كانت بجزيرة الروضة وأنها أسست فى سنة ٥٤ هـ (٦٧٣ م) ، ويلوح أن ذلك كان على أثر غزو الروم ثغر البرلس ، والخسارة الفادحة التى حلت بالمسلمين فى قتالهم . وسميت جزيرة الروضة حينئذ « جزيرة الصناعة » كما كانت تسمى أحيانا « جزيرة مصر » . ولكننا نرجح أن « الصناعة » أنشئت فى مصر الاسلامية قبل هذا التاريخ . فمعركة ذى الصوارى التى انتصر فيها عبد الله بن سعد على الروم كانت فى سنة ٣٤ هـ وليس بعيد الاحتمال أن يكون المسلمون قد بدأوا يعنون ببناء السفن الحربية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وأن قتال الروم جعل المسلمين يعنون بصناعة السفن فى جهات مختلفة من أنحاء دولتهم بعد أن كانت الصناعة فى مصر وحدها . فيذكر المؤرخ البلاذرى انه لما كانت سنة ٤٩ هـ هاجم الروم السواحل الاسلامية وكانت الصناعة بمصر فقط ، فأمر معاوية بن أبى سفيان بانشاء دار للصناعة فى عكا .

وكان لبناء السفن فى مصر فى فجر الاسلام شأن عظيم . وقد

أظهرت أوراق البردى التى كشفت فى كوم اشقاو ــ والتى ترجع الى العصر الأموى ــ أن صناعة السفن كانت زاهرة بوادى النيل فى جزيرة الروضة ، وفى القلزم (السويس الحالية) ، وفى الاسكندرية . ولم يقتصر نشاط المصريين على اعداد الأسطول المصرى ، بل كان والى مصر يرسل بعض الملاحين المصريين للعمل فى أسطول المغرب أو أسطول المشرق ، والمساهمة فى المشروعات البحرية العامة للدولة الاسلامية . (١)

وقد ظلت صناعة السفن الحربية زاهرة فى مصر فى العهد العباسى أيضا . فيذكر المقريزى فى الخطط (٢) أنه بعد أن نزل الروم دمياط فى سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) فى خلافة المتوكل العباسى ، وفى ولاية عنبسة بن اسحاق على مصر « وقع الاهتمام من ذلك الوقت بأمر الأسطول ، وأنشئت الشوانى (٣) برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كما هى لغزاة البر ، وانتدب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر فى تعليم أولادهم الرماية وجميع أنواع المحاربة ، وانتخب له القواد العارفون بمحاربة العدو ، وكان لاينزل فى رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمور الحرب . هذا وللناس اذ ذاك رغبة فى جهاد أعداء الله واقامة

(١) انظر : سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام . ص ٩١ ــ ٩٢

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ١٩١

(٣) الشونة : المركب المعد للجهاد فى الحرب والجمع شوان

دينه ، لا جرم أنه كان لخدام الأسطول حرمة ومكانة ، ولكل واحد من الناس رغبة فى أنه يعد من جملتهم فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه . وكان من غزو الأسطول بلاد العدو ما قد شحنت به كتب التواريخ . فكانت الحرب بين المسلمين والروم سجالا ينال المسلمون من العدو وينال العدو منهم ويأسر بعضهم بعضا لكثرة هجوم أساطيل الاسلام بلاد العدو فانها كانت تسير من مصر والشام ومن افريقية » .

ونستنبط من كلام المقريزى ومن الأحداث التاريخية المختلفة أن قيام الخلافة العباسية ، واتخاذها بغداد قاعدة لها ، وزيادة اهتمامها بالبحار الشرقية ، لم يقلل من اهتمام العرب بالبحر المتوسط . وقد برهنت الحوادث أيضا على أن الدول المنفصلة عن الخلافة العباسية والتى تطل على البحر المتوسط ورثت اهتمام الخلافة الاسلامية بهذا البحر . وكان الصراع المستمر بين العرب والروم من أكبر الحوافز على هذا الاهتمام .

وقد عنى احمد بن طولون بالأسطول عنايته بالجيش . ولكن لم تتضح الحاجة الماسة الى الأسطول الا بعد توسع احمد بن طولون فى الشام اذ اضطر الى حماية شواطئه ومواجهة الهجوم البيزنطى ثم المحافظة على طرق الاتصال البحرى بين سواحل مصر والشام . ولم يكن من الصعب على ابن طولون الاهتمام بالناحية البحرية وقد رأينا كيف كان لسكان مصر ، ولا سيما الأقباط ،

منذ فجر الاسلام فيها الفضل فى بناء السفن وتشييد دور الصناعات فى وادى النيل وفى افريقية وفى الشام ، وكيف ظل هذا الاهتمام بالبحر الى أيام عنبسة بن اسحق الذى سبق مجىء احمد بن طولون الى مصر ببضع سنوات . والحق أنه كان للمصريين الفضل الأكبر فى عظمة الدولة الاسلامية بحريا ، اذ كانت الخلافة تعتمد عليهم فى انشاء أسطولها الحربى بل المعروف أن بناء السفن كان فى البداية بمصر فقط وظل كذلك الى زمن معاوية بن أبى سفيان ، وحتى بعد ذلك العهد كانت الخلافة تستخدم العمال والفلاحين المصريين فى دور الصناعة التى أنشأتها فى المشرق والمغرب كما يتبين من أوراق البردى . وفى اعتقادنا أن المحافظة على البحرية المصرية أو انشاء أسطول مصرى فى زمن احمد بن طولون كان استمرارا لتاريخ مصر الحربى المجيد ، ولم يكن من الأمور الشاقة أو الصعبة مثل انشاء جيش قائم فى مصر حينذاك .

وقد زادت عناية احمد بن طولون بالناحية البحرية لما وضحت مشروعات الموفق للقضاء عليه . وحين كان احمد بن طولون يستعد لصد الجيش العراقى القادم بقيادة موسى بن بغا ، حصن جزيرة الروضة وأبقى على دار الصناعة فيها وبنى مائة سفينة حربية .

وقد حفظ لنا ابن سعيد نصا عن ابن الداية وفيه يأمر أحمد ابن طولون عامله على دار الصناعة بألا يدخر وسعا فى بناء السفن بناء طيبا متينا لتقوى مكانة ابن طولون فى البحر .

وعنى احمد بن طولون بدور الصناعة عناية فائقة . ويذكر البلوى أنه عهد بالاشراف على احدى دور الصناعة الى أبى شجاع كامل بن أسلم .

وطبيعى أن المراكب الحربية كانت متنوعة فى أحجامها وأغراضها كما تدل على ذلك الأسماء التى أطلقت عليها ، وان كنا لا نعرف أوصافها أو معدات تلك السفن وأسلحتها . وقد ذكر البلوى فى كتابه « سيرة احمد بن طولون » نصا عن الأسطول الطولونى يبين فيه عدد السفن أيام احمد بن طولون وأنواعها حين فكر الموفق فى ارسال موسى بن بغا على رأس جيش من العراق ليصرف احمد بن طولون عن مصر ، فيقول عن احمد بن طولون : « فعمل على محاربة موسى ، وتأمل البلد فعلم أنه لا يفتح الا من جهة نيله ، فأراد لكبر همته وكثرة فكره فى العواقب ، أن يبنى حصنا على الجزيرة التى بين الفسطاط والجيزة ، ليكون معقلا لحرمه لكثرتهم كانوا ولذخائره ، ويستعمل بعد ذلك لحرب من يأتيه وقد زال فكره فيما سواه مما يشغل قلبه ، وأمر ببناء الحصن على الجزيرة ، واتخذ مائة مركب عربية كبارا ، ومائة مركب حربية سوى ما ينضاف اليها من العلابيات ، والحمائم ، والعشاريات ، والسناديل ، وقوارب الخدمة ، وعمل على سد وجه البحر الكبير (أى البحر المتوسط) وأن يمنع ما يجىء اليه من مراكب طرسوس وغيرها بنقض مراكبه ، ويكون ما فيها يذب عن هذه الجزيرة ، وعمل على أن ينفذ الى الصعيد وأسفل

الأرض (أى الوجه البحرى) فيمنع من حمل الغلات الى البلد ، ليمنع من يأتى من البر بالميرة » . (١)

والمعروف أن حملة احمد بن طولون على الشام أتاحت له استخدام أسطوله بل انه أنشأ قاعدة بحرية فى عكا ، وحصن هذه الميناء على يد مهندس من بيت المقدس ، وهو جد المقدسى الجغرافى المعروف .

ولما تولى خمارويه بادر بارسال الأسطول الطولونى للسهر على شواطئ الشام .

ولكننا نستطيع أن نقول بوجه عام ان نشاط الطولونيين فى البحر كان ضئيلا ، ولا غرابة فى ذلك فقد كانت السيادة فى البحر المتوسط آنئذ قد عقدت لبنى الأغلب الذين هزموا أسطول الروم واستولوا على صقلية ومالطة وأغاروا على الشواطئ الايطالية بل غزوا روما عاصمة ايطاليا مرتين .

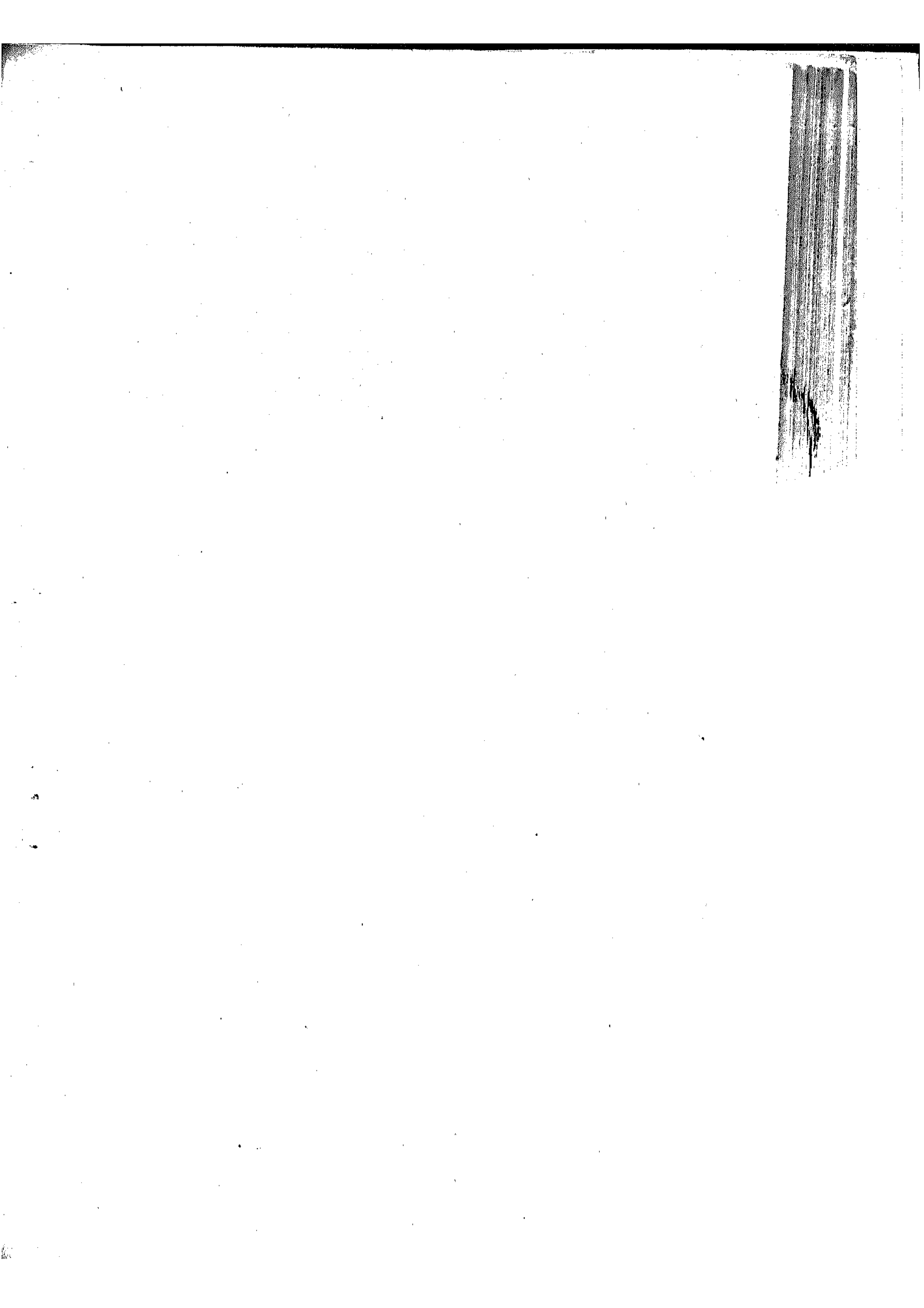
وكان هناك ركن من الامبراطورية الاسلامية اقتضى موقعه الجغرافى أن يكون له أسطول كبير . ونقصد بذلك الثغور بين الروم والمسلمين . والمعروف أن أسطول الخلافة فى طرسوس هو الذى قدم بقيادة أمير البحر دميانة ــ مولى يازمان ــ وساعد

---

(١) البلوى : سيرة احمد بن طولون . ص ٨٦ ــ ٨٧ (تحقيق محمد كرد على ــ دمشق ١٩٣٩ م)

القائد محمد بن سليمان الكاتب فى حملته على مصر ، ونجح فى القضاء على الأسطول المصرى فى تنيس (١) حيث كانت السفن المصرية قد ذهبت للقاء أسطول دميانة حتى تمنعه من التقدم فى مياه النيل .

(١) تنيس : جزيرة فى بحيرة المنزلة ، بالقرب من بور سعيد الحالية



الفصل الحادي عشر

بلاط أحمد بن طولون والبيت الطولوني

وس
أعغ
يقص
أما
مق
الم
وش
وه

عل
و
أم
ف
إ
ق
ط
و
أ

كان لبنى طولون بلاط يذكر بما كان لبنى العباس فى بغداد وسامرا ، بل كانت آيات الفخامة والترف فى القطائع والفسطاط أعظم منها فى عاصمة العباسيين . وكان احمد بن طولون نفسه يقصد بذلك منافسة الخلافة وأن يوازن بلاطه ببلاط الخليفة . أما خلفــاؤه فقد نشأوا فى هـذا العز وكان فيهم طبيعيا وغير مقصود . ولا ريب فى أن الصفات البارزة فى احمد بن طولون هى المعروفة عن غيره من مؤسسى الأسرات والدويلات من حزم وعزم وشدة . أما خمارويه بن احمد بن طولون ، وجيش بن خمارويه ، وهارون بن خمارويه فكانوا أميل الى حياة المرح واللهو .

وكان احمد بن طولون يرمى الى تكوين بلاط عظيم ويعمل على اتباع التقاليد الرسمية المتبعة بين حاشية الملوك والأمراء . وكتب ابن ســعيد فى حديثه عن أسرة الاخشيد فقال : ان أول أمرائهم وهو محمد الاخشيد مؤسس الدولة الاخشيدية فى مصر فى القرن الرابع الهجرى ، اشتد ساعده بعد وفاة الوزير الفضل ابن جعفر وبعد مقتل ابن رائق . ويبدو أنه شعر حينئذ أن سلطانه قد توطدت دعائمه فاطمأن باله وزاد ميله الى التشبه بأحمد بن طولون وابنه خمارويه وأمر بأن تكون فى بلاطه رسوم وتقاليد وقواعد للبروتوكول ، وأن تكون له امتيازات لا يشــاركه فيها أحد من كبار رجال دولته . ومن ذلك أن يكون لسرج فرســه

حلية دقيقة وزخارف خاصة لايشاركه فيها أحد ، وألا يلبس أحد سواه جبة من الديباج المحلى بخيوط الفضـــة ، وألا يكون فى عسكره الخاص أى شيخ ، وأن يصبغ الشيوخ من جنده وحاشيته لحاهم . (١)

ويظهر أن الحياة فى القطائع ـــ عاصمة الطولونيين ـــ كانت فى بداية الأمر عسكرية بحتة فلم يكن فيها الا قصر الأمير وملحقاته وثكنـــات الجنـــد ، ولـــكن لم يلبث أن قام الى جوارها بعض الحوانيت والمتاجر اللازمة لحياة السكان .

واذا أردنا دراسة الحياة والنشاط فى القطائع يجدر بنا أن نبدأ بالـــكلام عن حاشية الأمير وبلاطه والوســـط الذى كانوا يعيشون فيه .

كان أحمد بن طولون ولدا لمملوك ، بعيدا عن وطنه وأسرته فلم يكن له أقارب كثيرون يمكنه الاعتماد عليهم . والاثنان اللذان كان ينتظر أن يكونا عونا له علمـــاه أن يحذرهما ، وهما ابنـــه العباس بثورته وعقوقه ، وأخوه موسى بعناده وحسده وتكبره .

وقد ترك لنا ابن الداية نصا طريفا عن علاقة موسى بن طولون بأخيه احمد ، ويزيد فى أهمية هذا النص أن ابن الداية نقل حديثه

---

(١) انظر : دكتـــورة سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشـــيديين ، ص ١٢٠ (مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٠ م) .

عن صديقه ابى جعفر محمد بن موسى بن طولون نفسه . والظاهر أن محمدا هذا نفى من مصر مع أبيه موسى ولم يرجع اليها الا بعد قتل خمارويه الذى كان قد عهد الى محمد ابن عمه بحكم طرسوس .

وكان ابن الداية مؤرخا مخلصا لمهنته فذهب الى صديقه وسأله أن يشرح له الأسباب التى فرقت بين أبيه وعمه ، فأجاب محمد بأن ذلك يرجع الى أن موسى كان يأتى أمورا أغضبت أخاه احمد ، وكان أشد هذه الأمور تدخله فى شئون الامارة ، واصداره أوامر كانت تعطل سير الادارة .

واذا صح ما ذكره الكندى فى هذا الصدد فان احمد بن طولون أراد بعد قدومه الى مصر بسنتين أن ينفى أخاه موسى الى العراق ، ثم عدل عن ذلك ، وأرجع موسى الى وظيفة صاحب الشرطة .

ولكن الظاهر أن موسى لم يرجع عن تدخله فى أمور الحكومة تدخلا غير حكيم ، وعن توسطه لأشخاص كان أخوه أحمد لا يثق بهم حتى أصبح الأخير لا ينفذ له رغبة فغضب موسى وذهب الى أخيه حانقا وقال انه لايطمع منه فى شىء وانه يريد أن يلى حكم الاسكندرية فيبعد بذلك عن مقر الحكم . ووعده أحمد بذلك ، ولكن هذا الأمير الذى حنكته تجارب الحكم كان لا يريد حينئذ أن يغضب عامل الاسكندرية فضلا عن أنه كان ينتظر أن يعهد

اليه الخليفة بحكم الثغور فيستطيع أن يجد لأخيه عملا فيها . وقد كان يطمع فى ارساله الى طرسوس ليخلد ذكره فى هـذه المدينة التى كان لا يزال يحفظ لها أعز الذكريات .

وكانت لموسى صداقة بأبى يوسف يعقوب بن اسحق كاتب أخيه فطلب منه أن يتحدث الى الأمير ليعرف ما الذى يراه فى أمر توليته الاسكندرية . ففعل الكاتب ذلك ، وأجاب أحمد بن طولون بأنه لا يجد سببا لعزل اسحق بن دينار حاكم الاسكندرية الذى أظهر دائما ترحيبه بالأمير وكان متواضعا ومخلصا له . وطلب الأمير من كاتبه أن يشير على موسى بألا يصر على طلبه وذلك بدون أن يطلعه على الأسباب التى تمنع الأمير من اجابته . (١)

وقد ذكر ابن خلدون أن موسى ذهب بعد ذلك الى العراق ، ثم رجع الى طرسوس . ولسنا نظن أنه أراد الاتصال بالموفق والتآمر معه على حياة أخيه أحمد ، لأننا اذا اعتقدنا ذلك لا يمكننا تفسير رجوعه الى طرسوس . والمعروف على كل حال أنه مات فى تلك المدينة .

والواقع أن العلاقة لم تكن طيبة بين أفراد الأسرة الطولونية ، وكان عدم التعاون بينهم سببا كبيرا من أسباب ضعفهم . ووضح

---

(١) انظر Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 178—179
وما ذكر من مراجع

ذلك بعد مقتل خمارويه المفاجىء فى سنة ٢٨٢ هـ . فقد سادت الفرقة بين جيش وهارون ابنى خمارويه ، وبين أعمامهما .

ونعرف أن هارون بن خمارويه عندما ذهب الى لقاء الجيش العراقى الذى أرسلته الخلافة العباسية للقضاء على الدولة الطولونية ، نزل بجنده فى مدينة العباسة فى شرقى الدلتا (نسبة الى العباسة بنت أحمد بن طولون) وأخذ معه أعمامه كلهم وأفراد أسرته . وقد ذكر الكندى أنه فعل ذلك كى لا يستطيع أحدهم أن يثور ضده فى الفسطاط .

واذا استثنينا أحمد بن طولون نفسه فقد اشتهر أمراء بنى طولون بميلهم الى حياة اللهو والمجون وقضاء أوقاتهم فى الشراب ومع الجوارى والحسان ، بينما كان احمد بن طولون مغرما بقضاء وقته فى تصريف أمور الدولة والتفتيش على سيرة الموظفين وأعمالهم . وكان يعيش فى قصره الفاخر ومعه حريمه وأولاده وجواريه ومواليه . أما سائر حاشيته وأتباعه فكانوا يسكنون فى أبنية أخرى تحيط بالقصر . والظاهر أن أحمد بن طولون كان لا يحب أن يختلط بقواده ورجال حاشيته اختلاطا يضعف هيبته . ولعله لم يثق بوزير أو ناصح اللهم الا محمد الواسطى . وحتى الواسطى نفسه ضعف نفوذه على الأمير فى نهاية عهده . ولذا فان علينا أن نفهم أن المقصود عند المؤرخين العرب بعبارة « أصحاب أحمد بن طولون » هم أتباعه وأعوانه .

وعلى كل فقد كان رجال الحاشية والقواد وكبـار الموظفين فى بلاط أحمد بن طولون يحرصون على اجـلاله والتحفظ بين يديه لأنه كان جبارا لا يغفر لهم شيئا فى هذا الميدان . ولعل ذلك ناتج من شعور بأنه لم يخلق أميرا ، وان من الجائز أن يقاومه ، أو يتآمر ضده بعض الكبراء أو القواد .

ويمكننا أن نرى فيما كتبه ابن الداية أسـماء بعض قـواد احمد بن طولون وأتباعه . والواقع ان ابن الداية كان يعتمد عليهم وينقل عنهم كثيرا مما ذكره فى سيرة أحمد بن طولون ، وفى كتاب المكافأة . ومن تلك الشخصيات أحمد بن دعيم وكان من كبـار القواد وولاه أحمد بن طولون على مصر الوسطى ، وموسى بن مصلح الذى كان مديرا للسجون والذى نقل عنه ابن الداية بعض البيانات الهامة عن السجون الطولونية .

ومن الذين جاءت أسماؤهم فى معرض الحديث عن نزهات أحمد بن طولون ، أو خروجه للتفتيش فى العاصمة شـعبة بن صالح ، وأبو جعفر المروزى ، وأبو العباس الطرسوسى ، وهارون ابن ملول ، وسعد الفرغانى ، كما أن بعضهم كان يحضر المجالس التى كان يعقدها الأمير للنظر فى المظالم ، وأكبر الظن أنهم كانوا أشبه شىء بالياوران أو التشريفاتية فى عصرنا الحالى .

وقد جاء ذكر معمر بن محمد الجوهرى حين كان عضوا فى الوفد الذى أرسله أحمد بن طولون الى ابنه العباس ليرجعه عن

الثـــورة . وجاء ذكره عدا ذلك في سيرة أحمد بن طولون لابن سعيد نقلا عن ابن الداية فقيــل انه حرض ابن طولون على أن يشترك معه فى تجارة الكتان ففعل ، ثم رأى ابن طولون فى المنام كأنه يمص عظما ليستخرج منه المخ ، فأرسل فى طلب العســـال الذى ذاع صيته فى تفسير الأحلام ، فقال له العسال فى تفســـير ذلك الحلم ان الأمير يجرى وراء مكسب قليل الشأن ولا يليق به . وحدث أن دخل حينئذ العامل على الاحســـان فطلب منه أحمد بن طولون أن يذهب الى الجوهرى ويسترد منه المال الذى كان الأمير قد وضعه عنده فى تجارة الكتان ويفرقه على الفقراء .

وثمة شخص آخر فى بلاط أحمد بن طولون عرف بجشعه وبالثروة الطائلة التى جمعها حين كان موكولا اليه أمر النفقات فى قصر الأمير . هذا الشخص هو ابن المفضل وكان ذكيا استطاع أن يحتفظ برضاء أحمد بن طولون مدة طويلة . ولكن حدث أن أحمد بن طولون طلب اليه ذات مرة ألا ينفــق شـــيئا من دخـــل الأراضى الزراعية التى كان يملــكها الأمير ، والتى كان دخلها موقوفا على نفقات القصر ، ولكن الأمير أراد تلك المرة أن يحتفظ به لحملة يوجهها الى طرسوس . فأمسك ابن المفضل النفقات عن طباخى القصر وخدمه محتجا بأمر أحمد بن طولون ، وبعث هؤلاء بمندوب يشكو الى الأمير ، فاغتاظ ابن طولون واستدعى المفضل ولامه على أنه لم يستطع تدبير المال اللازم لنفقات القصر من باب آخر مدة يوم أو يومين . فحلف ابن المفضل بأنه لا يستطيع ذلك

وبأنه لا يملك ما يلزم لهذا السبيل . فأمر أحمد بن طولون أحد أتباعه بأن يستولى على أملاك ابن المفضل وبأن يحضر الى الأمير النقد الموجود . وذكر ابن الداية فى هذه المناسبة أن ما وجد عند ابن المفضل بلغ ٧٨٠٠٠ دينار .

ولم تشتهر فى بلاط أحمد بن طولون نساء اللهم الا جاريته انعت . والظاهر أنها كانت تنعم بقسط وافر من الحرية ، فان ابن الداية قد نقل عنها معظم البيانات التى تركها لنا عن حياة أحمد ابن طولون الخاصة . والمعروف أنها كانت أم ثلاث من بنـــاته . والظـــاهر أنهـــا كانت تدير « حريم » أحمد بن طولون ومن المحتمل أنها كانت غير صغيرة فى السن فاننا نراها تعنى بالترويح عن الأمير ، وتعنى ببيته وسائر حريمه وجواريه ، ولكننا لا نظن أنها كانت ذات شأن يذكر فى الأمور العامة .

وكان أحمد بن طولون مغرما باستعراض جنده . وكانت له فى تلك المناسبات مواكب ضخمة تظهر فيها عظمته وسلطانه . كما كان من أسباب راحته وسروره أن يجلس فوق قبة قصره مطلا على العاصمة ليرى الشعب فى أيام العرض أو أيام الصدقات .

وذكر المؤرخون أن أحمد بن طولون ترك سبعة عشر ولدا وست عشرة بنتا . ومن أولاده العباس وخمارويه وعدنان ومضر وشيبان وربيعة وأبو العشائر وتركان . وكان العبـــاس أكبرهم ولكنه نحى عن ولاية العهد لأن والده أوصى بالعرش لخمارويه

ويحتمل أنه فعل ذلك وهو على فراش الموت تلبية لرغبة قواده وأعوانه الذين كانوا يكرهون العباس لأنه لم يشترك فى حياتهم الحربية ، ولأنهم أساءوا اليه بأمر والده بعد اخضاع ثورته . وقد كانوا بطبيعة الحال يخشون أن ينتقم منهم بهذا السبب . وفضلا عن ذلك فالظاهر أن خمارويه كان محبوبا بينهم ومقربا الى قلوبهم .

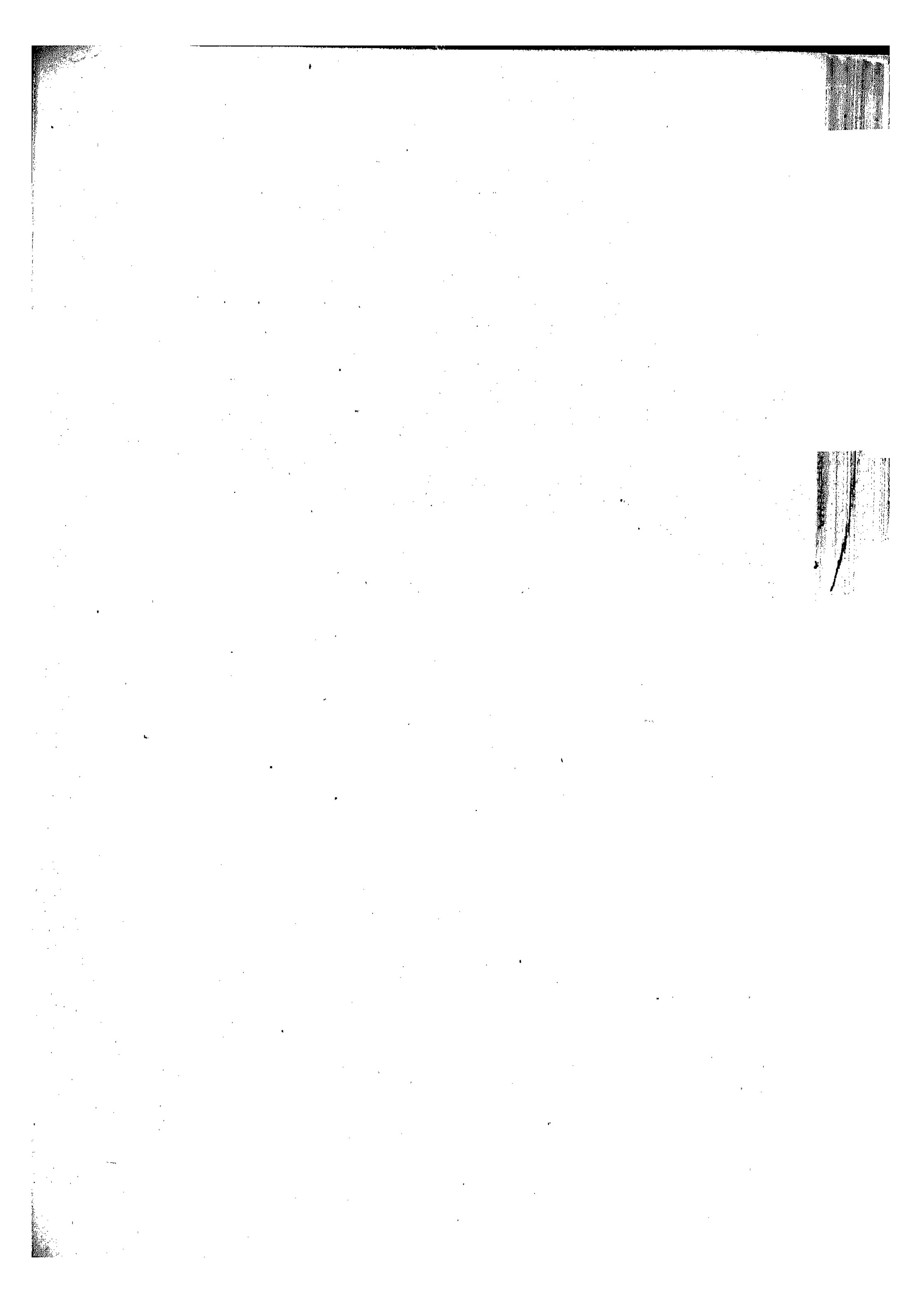
ولسنا نستطيع أن نعين بالدقة مصير العباس فى ذلك الوقت فجمهرة المؤرخين تتفق على أنه كان فى السجن حين توفى أبوه . ولكن النويرى شذ عن سائر المؤرخين وزعم أن ابن طولون قبل وفاته ببضعة أيام دعا اليه العباس وعقد له على حكومة الشام وأملاك مصر خارج وادى النيل وطلب اليه فى الوقت نفسه أن يخضع لأخيه خمارويه . ونحن لا نستطيع أن نأخذ بهذه الرواية فاننا نستبعد أن ينسى أحمد بن طولون ثورة ابنه الماضية وألا يفطن الى ما قد يجره التقسيم بين ابنيه من خراب على الأسرة اذا طالب الأكبر بالخضوع للأخ الصغير .

وترك لنا ابن سعيد وصفا مستفيضا لتولية خمارويه وقص علينا كيف أن أول ما عنى به أعوان ابن طولون وقواده بعد وفاته هو أن يحصلوا من العباس على البيعة بالامارة لأخيه خمارويه فدعوه بحجة التحدث الى أبيه ثم أخبروه بوفاته وطالبو بالاعتراف بالامارة لخمارويه . فرفض العباس ولكن الواسطى

قال له ان ذلك لن يجديه نفعا لأن خمارويه أميره وسـيده وقد استحق بطاعته أن يقدمه والده عليه . ونزع اثنان من أعوان ابن طولون سيف العباس ومنطقته ، مما يدل على انه لم يكن مسجونا تماما وربما كان مراقبا فحسب ، ثم ذهبا به الى السجن . والظاهر أن بطانة ابن طولون ، ولا سيما الواسطى ، ألحوا على خمارويه فى التخلص من العباس واستصدروا منه أمرا بقتله . والواقع ان الأمور كانت قد استقرت لخمارويه قبل قتل العباس . وكان قتل العباس من الاجراءات الاحتياطية التى أريد بها تأمين سـلامة الدولة ، وان خمارويه لم ينول العرش بفضل قتل أخيه كما زعم المستشرق الأب لامانس .

الفصل الثانى عشر

الادارة فى عهد أحمد بن طولون



كانت الوظائف العامة أقل تعقيدا مما هى اليــوم . ولكن دراستها الآن ليست أمرا سهلا للغاية ، وذلك بسبب عدم تحديد اختصاصها . ولم يكن هناك فصل كبير بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية .

وكانت السلطة التنفيذية فى البلاد الاسلامية فى يد الأمير اذ لم يطغ على نفوذه شخص أو أشخاص من رجال البلاط أو الجيش أو الادارة .

وكان الأمير يعين من يشاء فى الوظائف العامة ، ولكن أولئك الموظفين كانوا تحت رحمته ومسئولين أمامه .

وطبيعى أن العرب فى الجاهلية لم يكونوا فى حاجة الى أداة حكومية معقدة فلما أصبحت لهم امبراطورية واســعة لم تكن لديهم الأساليب الادارية الموروثة ، ولذا فقد استعاروا عن الروم والفرس منذ عهد عمر بن الخطاب معظم ما احتاجوا اليه فى هذا الصدد . وكانت القوة التشريعية مستمدة من القرآن والحديث وما يصل اليه الفقهاء من الآراء بعد دراستهما .

والمعروف أن العرب لم يغيروا كثيرا فى أنظمة الادارة بمصر حين فتحوها . اذ وجدوا بها نظما ادارية قامت منذ أقدم الأزمنة ونمت وترعرعت فى خلال العصور المختلفة ، فقضت عليهم الحنكة

السياسية ألا يمسوا تلك النظم ، بل أبقوا عليها كما فعل الرومان من قبلهم عندما كانوا يحتلون بلادا راقيـــة فى نظمها متقدمة فى حضارتها . واكتفى العرب بشغل بعض المناصب الرئيسية ليشرفوا على الادارة بوجه عام ، ثم بدءوا فى تعريب أنظمة الادارة فى مصر منذ خلافة الوليد بن عبد الملك وفى سنة ٨٧ هـ (٧٠٦ م) أثناء ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر . (١)

ومن الوظائف التى يمكننا الكلام عنها فى العصر الطولونى ما يأتى :

١ ــ الحاجب :

كان للحاجب شأن خطير فقد كان بمثابة كبير الأمناء أو رئيس الديوان ، وكان واسطة الاتصال بين الأمير وأفراد رعيته . وكان الحاجب فى بداية الأمر ياورا بسيطا يقف ببـــاب الأمير ، ثم زاد نفوذه شيئا فشيئا حتى أصبح فى بعض الأحيـــان مستشارا أو سكرتيرا عاما للأمير . بل ان لقب الحاجب فى الأندلس لم يلبث أن أصبح مرادفا للقب رئيس الوزراء . (٢)

---

(١) انظر : سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٠ ــ ٣٦ ، ص ١٩٩ ــ ٢٠٠

(٢) راجع : ابن خلدون : المقدمة (الفصل الرابع والثلاثون فى مراتب الملك والسلطان والقابهما .. الحجابة) ، والمقريزى : خطط ج ٢ ص ٢١٩ ــ ٢٢٢ ، القلقشندى : ضوء الصبح المسفر ص ٢٤٧ ،
Zaky Hassan: Les Tulunides p. 193.

ولعل بلاط الخلفاء والأمراء المسلمين كان يشتمل على عدة من الأمناء أو التشريفاتية كما نقول الآن ، وكان كل منهم يسمى حاجبا ، ولكن هذا اللقب كان فى معظم الأحيان يقصد به رئيسهم .

والمعروف أن أحمد بن طولون كان يقلد بلاط الخليفة وحكومة العراق فى تقاليد البروتوكول وأساليب الادارة فكان فى بلاطه عدد من الحجاب . ونرى فى المصادر التاريخية أن هذا اللقب يحمله عدة أشخاص . ولكننا لا نرى فى عصر الدولة الطولونية أن اللقب المذكور أصبح وقفا على موظف كبير الا فى عصر هارون ابن خمارويه .

والظاهر أن وظيفة الحاجب الأكبر فى عصر أحمد بن طولون كان يقوم بمهامها تابع اسمه نسيم ، ولكنه لم يحمل هذا اللقب على الرغم من أن الأمير كان يثق به ويعتمد عليه ، ويكلفه بكثير من المهام فى بلاط الخليفة .

وصفوة القول أن أحمد بن طولون كان له حجاب كثيرون ولكننا لا نستطيع أن نعرف لمن منهم كانت الرئاسة واللقب وادارة البروتوكول . وكان بعضهم يسمى « سعاة » فحسب . ومن ذلك ان ابن الداية قد نقل احدى القصص عن شخص اسمه الفارسى قال عنه انه كان « ريسا من السعاة لأحمد » .

وأكبر الظن أن أحمد بن طولون لم يسمح لأحد من أتباعه بأن يزداد نفوذه وسلطانه حتى يكون « حاجبا » بالمعنى الذى

وصل اليه هذا اللقب من رئاسة ديوان الأمير وعظم النفوذ فيه .

وليست لدينا نصوص تاريخية عن هذا المنصب فى عصر خمارويه ثم عصر ابنه جيش . والمحتمل أن مناصب الحجاب كانت كثيرة بدون أن ينفرد أحد الأشخاص بالنفوذ وادارة الديوان .

٢ - الوزير :

لا نظن أن هذا المنصب كان موجودا فى مصر الطولونية ، ولعل ذلك راجع الى طبيعة أحمد بن طولون التى كانت تسمح لأشخاص كثيرين بأن يكونوا أعوانا ونصحاء ومستشارين ، ولكنها تأبى أن يصل أحدهم الى قسط وافر من النفوذ والسلطان فى أمور الحكومة . وربما جرى خلفاء أحمد بن طولون على هذه السنة بدافع التقليد فحسب . وكان لقب وزير حينئذ يكاد يكون وقفا على وزراء البلاط العباسى . وقد ذكر السيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة » ان مصر ظلت ولاية بدون وزير حتى قيام بنى طولون ، وان أبا بكر محمد بن رستم الماذرائى كان وزيرا لخمارويه . وذكر أبو المحاسن فى النجوم الزاهرة ، أن هذا الماذرائى كان وزيرا لهارون بن خمارويه . ولكننا نعرف من المصادر التاريخية المختلفة ان أسرة الماذرائيين التى قدمت الى مصر من العراق زمن الطولونيين أصبحت زعامتها منذ ولاية خماروبه لعلى بن أحمد الماذرائى الذى اختاره خمارويه وزيرا له

أو كاتبا . وفى سنة ٢٧٢ هـ استقدم على بن احمد الماذرائى الى مصر ولـــديه أبا بكر محمد بن على ــ وهو الذى يشـــير اليه السيوطى وأبو المحاسن ــ وأبا الطيب أحمد بن على . ونعرف أن الأمير هارون بن خمارويه استوزر أبا بكر محمـــد بن على ، وظل الأخير يدير أمور الحكومة فى مصر الى أن قدمت الحملة العراقية للقضاء على دولة بنى طولون ، فغادر مصر مع من غادرها من عمال الطولونيين فى صحبة محمد بن سليمان الى بغداد . (١)

أما فى عهد أحمد بن طولون فاننا نعرف أنه كان للواسطى شأن عظيم عند صديقه ومولاه أحمد بن طولون ولكنا لا نجده يسمى وزيرا الا فى مناسبة واحدة ، وهى عندما سافر ابن طولون الى الشام واستخلف على مصر ابنه العباس وجعل له الواسطى ناصحا ووزيرا . وحتى فى هذه المناسبة نظن ان كلمة وزير كانت صفة لمـــا يقوم به أكثر منها لقبا يدل على منصب معين .

ويجـــدر بنا فى هذه المناســـبة أن نشـــير الى خطأ وقع فيه المستشرق الانجليزى الاستاذ جب Gibb فى المقال الذى كتبه عن الطولونيين فى دائرة المعارف الاسلامية . فقد كتب الاستاذ المذكور « ان موت الواسطى ــ الذى كان اليـــد اليمنى لأحمد ابن طولون فى الأمور المالية ظهرت آثاره فى سير الادارة » .

---

(١) انظر عن اسرة الماذرائيين : دكتورة سيدة كاشف: مصر فى عصر الاخشيديين ص ٣٩ ـ ٤١ وما ذكرته من مراجع .

والواقع أن الواسطى هجر بنى طولون وتنحى عن خمارويه منذ بداية حكمه . وفضلا عن ذلك فاننا نذكر أن الواسطى لم تكن بيده الأمور المالية فى الدولة ، بل كانت من اختصاص أبى أيوب ابن أخت ابى الوزير .

٣ ـ صاحب الشرطة :

كان صاحب الشرطة فى مصر بعد فتح العرب لها بمثابة نائب للوالى يؤم الناس فى الصلاة اذا مرض الوالى ، ويحكم الولاية اذا خرج الوالى من مقر ولايته . ولذا نجد أنه كثيرا ما كان الخليفة يعين صاحب الشرطة واليا على مصر اذا ما عزل الوالى ، أو مات ، أو تنحى عن أمور الولاية .

وكان والى مصر هو الذى يعين صاحب الشرطة ونادرا ما كان الخليفة هو الذى يعين صاحب الشرطة ، فنعرف أن الخليفة المأمون العباسى عين صاحب الشرطة بمصر بعد ما قضى على الثورة التى كانت فيها سنة ٢١٧ هـ .

ولابد أن وظيفة صاحب الشرطة فى مصر كانت شبيهة بأختها فى الخلافة نفسها . فكان الوالى يعهد الى صاحب الشرطه بتطبيق القوانين وبتنفيذ العقوبات التأديبية التى يفرضها ، وبنشر الأمن فى البلاد ومنع الجرائم . كذلك، كان من واجب صاحب الشرطة نشر الفضيلة والمحافظة على الأخلاق الفاضلة وقمع أهل الفساد .

فكان والى مصر مزاحم بن خاقان سنة ٢٥٣ هـ يتشدد فى نشر الأخلاق الفاضلة وقمع أهل الفساد ولذلك نراه ينبه صاحب شرطته أزجور الى ذلك .

وكان مقر صاحب الشرطة فى الفسطاط . ولما أنشئت العسكر على يد أول الولاة العباسيين فى مصر أنشئت فى حاضرة مصر الاسلامية شرطة جديدة سميت الشرطة العليا ، وكان مقرها دارا جنوبى المكان الذى شيد فيه ابن طولون المسجد الجامع . ولا ترجع تسميتها الشرطة العليا الى أنها أعظم شأنا من شرطة الفسطاط كما قد يتبادر الى الذهن ، ولكن هذه التسمية مشتقة من الموقع وحدود الاختصاص وتشهد بأن تقسيم الفسطاط الى « عمل فوق » و « عمل أسفل » يرجع الى عهد انشاء العسكر سنة ١٣٣ هـ . وقد ذكر هذا التقسيم المقريزى فى كتابه الخطط . بل اننا نرى المقدسى يكتب فى كتابه « أحسن التقاسيم » ان جامع عمرو كان يسمى الجامع السفلانى ، وجامع ابن طولون الجامع العليانى . وكان صاحب الشرطة السفلى فى الفسطاط أعلى شأنا وأعظم اختصاصا من زميله بوصفه حاكم القسم الرئيسى الأصيل فى الحاضرة . ونرى الكندى يذكرهما معا مرة واحدة فى ولاية صالح بن على العباسى الثانية فى سنة ١٣٦ هـ ، ولكنه لا يذكر بعدها الا صاحب شرطة الفسطاط .

وكان صاحب الشرطة فى عهد أحمد بن طولون موظفا خاضعا

للأمير ، يعينه ويملك عزله ومحاسبته . وكان لصاحب الشرطة فى العاصمة نفوذ كبير . وأكبر الظن أنه كان له أعوان فى سائر أنحاء القطر ، ولسنا نعرف هل كان تقليدهم من الأمير ، أو من صاحب الشرطة ، أو من حاكم الاقليم ، كما لا نعرف أمام أى هيئة كانوا مسئولين . والظاهر أن الذين شغلوا هذا المنصب فى عصر بنى طولون كانوا كلهم من الترك . والمعروف أن موسى بن طولون كان صاحب الشرطة فترة من الزمن .

ولما قدم أحمد بن طولون الى مصر أقر فى الشرطة بولغيا الذى كان صاحب الشرطة فى عصر سلفه ازجور ، ولكنه لم يلبث أن صرفه فى شوال سنة ٢٥٤ هـ وعين تركيا اسمه بوزان ، ولسنا نعرف هل كان هذا الموظف الجديد من أتباع احمد بن طولون ، أو من الذين استقروا فى مصر قبل قدومه . وكان ينوب عن بوزان ، محمد بن اسبنديار الذى كان قبل ذلك صاحب الشرطة فى عهد الوالى يزيد بن عبد الله التركى وقبل قدوم أحمد بن طولون الى مصر بثلاث سنوات ، ثم فى عهد الوالى مزاحم بن خاقان سنة ٢٥٣ هـ (٨٦٧ م) . ثم عزل بوزان فى رجب سنة ٢٥٥ هـ ، ولسنا نسمع ذكرا بعد ذلك لمساعده وخليفته محمد بن اسبنديار .

وفى رأينا أن الذى حل محل بوزان هو موسى بن طولون نفسه . وقد ذكر الكندى فى هذا الصدد موسى بن طونيق ،

لكننا نظن أنها غلطة لأن الكندى نفسه يحدثنا بعد ذلك أن
حمد بن طولون عندما خرج لاخضاع عيسى بن الشيخ
استخلف أخاه موسى بن طولون على مصر وصرفه عن الشرطة
جعل موسى على شرطه محمد بن عيسى ورجع أحمد بن طولون
ن الطريق بكتاب ورد عليه من العراق فدخل الفسطاط لأيام
خلت من شعبان ، فعاد موسى بن طولون الى الشرطة» (١) . أما
وسى بن طونيق فقد خلفه موسى بن طولون على الشرطة بعد
ن رحل الأخير الى العراق . وعلى كل حال فقد كان لابن طونيق
أن فى الادارة فى عصر الدولة الطولونية . والمعروف أن أحمد
بن طولون صرفه عن الشرط وأعاد أخاه موسى الى هذا المنصب ،
ثم عزله ، وعين بدله شخصا اسمه طغلغ .

وقد تقلد موسى بن طونيق رئاسة الشرطة مرتين بعد ذلك فى
عصر خمارويه ، وأقره جيش ، وهارون ، وشيبان بن أحمد بن
طولون ، فى هذا المنصب حتى قدم الجيش العراقى ، وكان ابن
طونيق بين الرجال الذين أخرجهم محمد بن سليمان من مصر بعد
ن تم له فتحها .

ومن رجال الادارة فى الدولة الطولونية أخوان : طخشى بن
بلبرد وكان مساعدا لطغلغ صاحب الشرطة الذى أشرنا اليه ، ثم
عين أحمد بن طولون طخشى عاملا على الثغور ثم واليا على

(١) الكندى : الولاة والقضاة . ص ٢١٥ « طبعة جست » .

طرسوس حتى مات بعد بضع سنين ، أما أخوه ابراهيم بن بلبرد فقد عين عاملا على الشرطة قبل الحملة الطولونية الأولى على الشام بفترة من الزمن . ولما رجع أحمد بن طولون من حملته صرفه عن الشرط ، وأرسله على رأس جيش لاخضاع ابنه العباس . وكان خلفه فى هذا المنصب السرى بن سهل الذى بقى فيه الى سنة ٢٧٢ هـ (٨٨٥ م) حين عزله خمارويه وعين بدلا منه موسى بن طولنيق .

٤ ـ صاحب الكورة :

عرفنا أن العرب لم يغيروا كثيرا فى الأساليب الادارية التى كانت موجودة فى مصر قبل الفتح فكانت مصر مقسمة اداريا الى قسمين رئيسين هما أسفل الأرض ، أو مصر السفلى ، أى الوجه البحرى ، والقسم الثانى هو مصر العليا أو الصعيد ، وأحيانا كان ينضاف الى هذين القسمين الرئيسين قسم ثالث هو مصر الوسطى أو « الصعيد الأوسط » . وكانت هذه الأقسام الكبيرة مقسمة بدورها الى أقسام صغيرة يعرف كل منها باسم « كورة » وهذا الاسم مشتق من اليونانية . وكانت كل كورة تنقسم الى عدة قرى .

وكانت الواحات ، وبرقة ، وشبه جزيرة سيناء ، والأقاليم الواقعة على البحر الأحمر لها ادارة خاصة .

ويقال انه كان فى مصر ثمانون كورة . وكان على رأس كل كورة حاكم يسمى « صاحب الكورة » وكانت له اختصاصات المديرين أو رؤساء المدن الحاليين . وكان لأصحاب الكورات امامة الصلاة فى المساجد الجامعة بحواضر كوراتهم .

ومع أن مصر كانت مقسمة اداريا الى هذه الأقسام ، فقد كانت جميعها تحت سلطة الوالى العليا مباشرة ، ولم يعط الولاة فرصة لعمال الأقاليم للتمكين لأنفسهم وللاستقلال محليا بأمور اقليمهم ، فكان الحكم فى مصر مركزيا الى أقصى حد . ويتبين ذلك من أوراق بردى كوم اشقاو التى ترجع الى زمن الوالى قرة ابن شريك (٩٠ ـ ٩٦ هـ = ٧٠٩ ـ ٧١٥ م) فى خلافة الوليد ابن عبد الملك الأموى . (١)

وكان تقسيم مصر على هذا النحو قائما فى عصر بنى طولون . وكان أصحاب الكورات مسئولين أمام الأمير مباشرة

ونعرف من نص لابن الداية فى كتابه المكافأة أن أحمد بن طولون قلد أحمد بن دعيم الصعيد الأعلى .

---

(١) انظر : سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢٩ - ٣٠ ، سيدة كاشف : الوليد بن عبد الملك « سلسلة اعلام العرب ـ رقم ١٧ ـ القاهرة ١٩٦٢ م » .

ولا نعرف بالضبط كم كان عدد الكورات فى مصر فى العصر الطولونى . ولعلها ظلت كما كانت فى عصر الولاة قبل مجىء أحمد بن طولون .

وكانت كل كورة تشتمل على عدة قرى وعزب كما ذكرنا ، وكان رؤساء أو مشايخ القرى يعرفون فى مصر فى عصر الولاة ، أى بعد الفتح العربى لها الى مجىء أحمد بن طولون ، باسم موازيت . وكانت كلمة « مازوت » مأخوذة من الكلمة البيزنطية ميزوتروس (١) وهو العمدة الحالى . وقد عرف منذ العهد الطولونى باسم العميد .

ومن المحتمل أن حكام الأقاليم أو الكورات المهمة كانوا يختارون من كبار قواد الأمير وأعوانه . وقد أشار ابن الداية فى احدى قصص كتابه المكافأة الى مدينة اهناس وكتب أن المتقلد لها كان « رجلا من أصحاب أحمد بن طولون يعرف بفهم متقدما عنده » . أما اختيار العمدة أو المازوت فلسنا نعرف قواعده تماما ولكننا نرجح أنه كان من أهل القرية نفسها .

وأكبر الظن أن رؤساء الكورات كان تحت تصرفهم قوات من الشرطة يعتمدون عليها فى اقرار النظام . ولا شك فى أن حكام الأقاليم المفتوحة فى الشام فى عهد أحمد بن طولون وخمارويه كان

---

(١) انظر : سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام : ص ٢٩ وما ذكرته من مراجع .

يترك لهم جند وافر العدد . فقد كانت تلك الأقليم مهددة من الحكومة العراقية ومن الاضطرابات الداخلية .

ولسنا نعرف شيئا عن مرتبات رؤساء الكورات وحكام الأقاليم . وبالنظر الى أن الحكومة كانت تعتمد عليهم فى جمع الضرائب المقررة فمن المحتمل أنهم كانوا يحجزون منها مرتباتهم والمبالغ اللازمة لادارة اقليمهم أو كوراتهم .

وقد كان الأمراء الطولونيون يقومون أحيانا بالطواف على بعض المدن أو الأقاليم فى مصر ، وفى ممتلكاتهم الآسيوية . ونعرف أن أحمد بن طولون زار الاسكندرية عدة مرات . والمعروف أن الاسكندرية كانت تعتبر منذ العهد اليونانى فى مصر حتى الفتح العربى جزءا مستقلا عن مصر . ويظهر أنها فى العصر الاسلامى وبعد انقضاء الخلافة الأموية كان حاكمها شبه مستقل عن والى مصر .

ويؤكد ساويرس بن المقفع ، مؤرخ « سير الآباء البطاركة » فى مناسبات مختلفة ما نستشفه من سائر المصادر بأن الاسكندرية منذ العهد اليونانى حتى عصر الاخشيديين فى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى ، كانت تعتبر فى معظم الأحيان جزءا مستقلا عن مصر حتى فى القضاء . وبهذه المناسبة عندما وصل الى الأمير أحمد بن طولون ، تقليد بولاية جميع أعمال مصر من الخليفة العباسى ، يذكر ساويرس أن هذا الأمر كان بخلاف

ما جرت به العادة ، فانه لم يكن بين والى الاسكندرية ووالى مصر معاملة ولا خطابا بل كانوا يتهادون الهدايا فيما بينهما وكانوا من تحت سلطان واحد . (١)

ونعرف أن خمارويه بن أحمد بن طولون زار الاسكندرية أيضا . كما قام قبل وفاته بسنة واحدة برحلة كبيرة فى مصر السفلى حيث استراح قليلا فى قصر بمريوط ثم زار الصعيد حتى وصل الى أسيوط ورحل بعد ذلك الى الشام حيث قتل . (٢)

٥ ــ عامل البريد :

كانت وظيفة صاحب البريد ، أو عامل البريد ، من الوظائف الرئيسية الهامة . ولم تكن تلك الوظيفة قائمة فى عهد الخلفاء الراشدين ، انما بدأتها الدولة الأموية نقلا عن الروم والفرس ، ثم تقدم نظام البريد فى عهد الدولة العباسية . ويقال ان معاوية ابن أبى سفيان هو أول من وضع البريد لوصول الأخبار بسرعة ، وتبعه فى ذلك الأمويون ومن بعده العباسيون . ولذا نجد الأمويين ، ومن بعدهم العباسيين يهتمون بعمارة الطرق لتقصير

---

(١) انظر : سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ص ٢١٩ ، سيدة كاشف : تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية لساويرس بن المقفع وأهميته لدراسة التاريخ القومى : ص ٢٧ « مجلة الجمعية التاريخية المصرية ــ القاهرة ١٩٦٠ ــ ١٩٦٢

(٢) Zaky Hassan: Les Tulunides pp. 198-199.

لمسافات ولوصـــول الأخبـــار بسرعة . ولم يكن البريد نظاما يستعمله الشعب انما كان نظاما رسميا حكوميا الغرض منه نقل الأخبـــار بسرعة من مقر الخلافة الى الولايات المختلفـــة وتلقى الأخبار . وما لبث هذا النظـــام أن تطور واســتعمله الخلفـــاء العباسيون ، منذ خلافة أبى جعفر المنصور ، للتجسس على ولاة الأقاليم وعمالها .

وهكذا كان من واجبات عمال البريد فى البـــلاد المختلفة أن يكتبوا تقارير يرسلونها الى الحكومة المركزية . وهم يشبهون فى ذلك الى حد ما « رسل السيد » Missi Dominici الذين أوجد نظامهم فى التاريخ الأوروبى الامبراطور شارلمان لينوطدعلى يدهم نفوذ الحكومة المركزية فى الولايات ، فكان اثنان من هؤلاء الموظفين يزوران كل ولاية فى يناير وابريل ويوليو وأكتوبر ويمثلان الامبراطور ، فـــكانا يفتشان على الولاة ، ويتفقدان أعمالهم ، ويتقبلان الشكاوى ، وتستأنف اليهما الأحكام ، ويشرفان بوجه عام على المصالح العامة للدولة .

ومهما يكن من الأمر فاننا نعرف ان أحمد بن طولون استخدم العيون والجواسيس والشرطة السريين منذ تولى أمر مصر . ولكن الظاهر أنه احتفظ فى داخل الديار المصرية بنظام عمال البريد الى جانب الجواسيس المحترفين ، وانه كان يكل الى عمـــال البريد الأمور التى لم تكن من خطورة الشـــأن بحيث يتولاها أولئك الجواسيس المحترفون .

وكان فى عاصـــمة الدولة الطولونية عامل على البريد ، هو الحسن بن مهاجر ، كما جاء فى سيرة ابن طولون لابن الداية . ولاريب فى أن الحسن بن مهاجر كان له عماله وأعـــوانه فى سائر المدن والكورات . وقد جعلتهم طبيعة عملهـــم غير محبوبين عند الشعب ، كما يظهر من قصة ذكـــرها ابن الداية عن امرأة بدوية كانت لها حظوة عند ابن طولون فطلبت منـــه أن يشمل برعايته ابنا لها . وأمر أحمد بن طولون الحسن بن مهاجر بأن يجد لهذا الابن عملا مثمرا ، فعينـــه ابن مهاجر عاملا على البريد فى قريته ورتب له عشرة دنانير فى الشهر . ولكن الاعرابية رجعت الى ابن طولون شاكية وقالت ان الأمير أمر بأن يوجد لابنها عمل مثمر ولكن ابن مهاجر لم يجد له الا هذا العمل الذى يجلب العار ، والذى تفضل عليه الجوع الشريف . وأضافت انه اذا لم يكن الا هذا العمل فخير لابنها أن يتركه كى لا يتعرض لغضب الله وسباب المؤمنين . فضـــحك ابن طولون وأمر ابن مهاجر بأن يرتب على الابن عشرة الدنانير مع اعفائه من عمالة البريد .

ومهما يكن من شىء فان ابن مهاجر الذى كان عـــاملا على البريد فى حكومة ابن طولون وصل الى منصـــبه هذا بعد مران طويل . فان أحمد بن طولون كان يعرف فى سامرا حسينا الخادم المعروف بعرق الموت ، والذى كان عاملا على البريد فى مصر قبيل قدوم أحمد بن طولون الى مصر . وكان أحمد بن طولون يعجب بذكاء حسين الخادم وبعد نظره ، فلما أراد أن ينظم البريد سأل

أعوانه عن الذى كان اليد اليمنى لحسين فى عمله بمصر فذكر له ابن مهاجر فاستدعاه وألحقه بالخدمه . (١)

٦ - الجاسوسية والاستعلامات السرية :

وكان القائمون بها ولاء طولونيين يعيشون على مقربة من خصوم أحمد بن طولون فى العراق وغيره . والواقع أن أحمد بن طولون كان له أشبه شىء ببعثة سياسية من وكلاء مقيمين فى عاصمة الخلافة .

وفضلا عن ذلك فاننا نعرف أن الموفق وأعوانه كانوا يبذلون الجهود الوافرة فى سبيل الدس لأحمد بن طولون عند قواده وأنصاره ليتخلوا عن اخلاصهم له . وكان أحمد بن طولون يتقى هذا الشر بوساطة فرض مراقبة دقيقة على كل شخص يشك فى أن له علاقة بعاصمة الخلافة . وطبيعى أيضا أن أحمد بن طولون كان يستخدم عيونه فى الدس لخصومه والعمل على احباط مكائدهم . والواقع أن ذلك العصر المضطرب كان مسرحا خصبا للجواسيس بأنواعهم يعملون لحساب الأمراء والوزراء وكبار الموظفين .

ولكن الظاهر أن عيون أحمد بن طولون كان لهم مسحة خاصة . فاننا اذا قرأنا النصوص التى جاءت فى ابن الداية لا يسعنا الا أن نتساءل اذا كان رؤساء أولئك الجواسيس وكلاء

(1) Zaky Hassan: Les Tulunides pp. 201-202.

رسميين لابن طولون فى بلاط الخليفة . والواقع ان ابن الداية يسمى كلا من طيفور أو خادم بن جوارى خليفة أحمد بن طولون. والمعروف أنهما ـــ ولاسيما طيفور ـــ كانا يشرفان على حركة الجاسوسية والدعاية الطولونية فى بلاط الخليفة . ويبدو اذن أنهما كانا يمثلان ابن طولون عند الحكومة المركزية وكانا فى الوقت نفسه يعملان مع أعوانهم على كشف أعداء بنى طولون ثم التخلص منهم أو كسبهم والتأثير عليهم .

وقد جاءت فى ابن الداية عدة قصص عن جواسيس الموفق وجواسيس أحمد بن طولون بدل معظمها على أن أحمد بن طولون كان ماهرا فى كشف جواسيس خصومه وانه كان يجد عندهم فى معظم الأحيان كتبا من الموفق الى قواد الجيش الطولونى . (١)

٧ ـــ مدير السجون :

كان للسجون فى الدولة الطولونية شأن كبير . واذا صح ما كتبه المؤرخون فان احمد بن طولون قد ترك ثمانية عشر ألف شخص يهلكون فى سجونه . والمعروف ان الجيش العراقى الذى استرد مصر بقيادة محمد بن سليمان كان أول همه بعد فتح الفسطاط أن يطلق سراح المسجونين فى الفسطاط . ولذا فاننا نظن ان ادارة السجون كان يتولاها موظف كبير ممن خدموا الأمير وكسبوا ثقته . ولكننا لا نعرف من المصادر الا واحدا

(1) Zaky Hassan: Les Tulunides pp. 203-204.

منهم هو أبو مصلح موسى بن مصلح ، وكان العامل على السجون فى عهد أحمد بن طولون نفسه .

واذا صح ما جاء فى قصتين رواهما ابن الداية فى كتابه المكافأة فان ابن مصلح هذا لم يكن مثالا للنزاهة ولسنا نعرف كيف غابت عيوبه عن ابن طولون اللهم الا اذا ذهبنا الى أن اخلاصه وبعض مزاياه الأخرى كانت تغطى على ما يتجلى من ضعف أخلاقه فى القصتين اللتين رواهما ابن الداية . فاننا نراه فى احداهما يتقاضى من جماعة من المسجونين مائة دينار نظير أن يطلق سراح واحد منهم قالوا ان قلبه يضعف عن لقاء الأمير واستطاعوا أن يأتوا بآخر يحل محله .

أما فى القصة الثانية فنراه يطلق سراح أحد المسجونين ثلاثة أيام ليمكنه الاتصال بشخص يسعى فى الافراج عنه عند أحمد ابن طولون .

ولسنا نعرف شيئا كثيرا عن نظم السجون الطولونية اللهم الا بعض ما جاء فى ابن الداية مستمدا من موسى بن مصلح . فمنها « ان أحمد كان يراعى أمر المحبوس حتى يمضى له حول فاذا جازه لم يذكره » . كذلك أشار هذا الأمير على ابن مصلح أن يحسن معاملة من تظهر له براءة ساحته ، وأن يسهل على الأبرياء أن يصلوا الى الأمير للدفاع عن أنفسهم واثبات براءتهم .

وطبيعى ان سجون بنى طولون لم تكن وقفا على المذنبين السياسيين ، فان الأزمات الاقتصادية التى حلت بالبلاد قبيل بنى

طولون جعلت المحافظة على الأمن والنظام أمرا صعبا فى بعض الأحيان . والظاهر أن اللصوص وقطاع الطرق كان لهم نشاط خطر عندما تولى أحمد بن طولون ، فعمل على قطع دابرهم والقبض عليهم وتركهم يهلكون فى سجونه .

ويظهر أن المحبوسين لم يكن لكل منهم غرفة خاصة ، كذلك يبدو من بعض النصوص أنهم كانوا يستطيعون أن يشتغلوا بصناعة أشياء يبيعونها كما يريدون . ويمكننا أن نقول بوجه عام اننا لا نجد ما يدل على أنهم كانوا يلقون معاملة قاسية جدا اللهم الا اذا كان ذلك بأمر من الأمير نفسه لذنب خاص أو خطير الشأن . فضلا عن أن الرشوة لم تكن نادرة ، ولا ريب أن ذوى اليسار من المسجونين كانوا يستطيعون فى معظم الأحيان أن يشتروا راحتهم . ولعلنا نذكر أن بعض المسجونين كانوا من رجال الادارة فى الدولة ، أو كان مقدرا لهم أن يصبحوا من رجال الادارة بعد ذلك ، كما أن كثيرين منهم كانوا من ذوى المكانة الملحوظة فى البلاد ، ولعل ذلك كله كان عاملا فى ألا تكون فى معاملة المسجونين قسوة غير عادية .

وقد حدثنا ابن الداية فى كتابه المكافأة عن وسيلة أخرى من وسائل السجن ، كانت أشبه بالاعتقال السياسى فى زماننا هذا ، وهى أن يؤمر المذنب بلزوم داره وعدم مبارحتها ، وأضاف ابن الداية الى ذلك « ان اعتقال الرجل فى داره كان يؤيس من خلاصه » .

٨ ــ مدير دار الصناعة :

عرفنا أن أحمد بن طولون زاد فى دار الصناعة بجزيرة الروضة . وأكبر الظن أن معظم العمال لم يكونوا من أصل عربى أو تركى ، بل كانوا من القبط أو المصريين المسلمين ، أو الروم . وغاية ما نعرفه من نص فى ابن الداية هو أن أحد مديرى دار الصناعة فى عصر أحمد بن طولون كان يسمى أبا كامل شجاع بن أسلم ، والظاهر انه كان فنيا فى مهنته . ويظهر أنه سجن على يد أحمد ابن طولون ، ولسنا نعرف السبب ، وربما كان شجاع بن أسلم هذا قريبا لأحمد بن القاسم بن أسلم أحد أعوان العباس بن أحمد بن طولون فى ثورته . واذا صح هذا فربما كان سببا فى سجنه .

٩ ــ ادارة الجوازات والجمارك :

من الوثائق البردية التى نشرت منذ سنين طويلة ما يتعلق بجوازات اقامة أو سفر . والظاهر ان حكومة أحمد بن طولون كان لديها ادارة لجوازات السفر ، لأننا نرى ذكرا لها فيما كتبه ابن الداية . فقد كتب هذا المؤلف أن موسى بن طولون عندما غضب من أخيه أحمد ذهب اليه حانقا وطلب منه جوازا للسفر حتى يترك الديار المصرية .

أما النص الثانى فهو أدق وأكثر تفصيلا وقد نقله ابن الداية عن شخص اسمه يعقوب بن صالح كان عاملا على الشرطة فى مصر السفلى .

وهو يتعلق بتاجر كان قد اشترى من أحد أتباع أحمد بن طولون عبدا بمائتى دينار . وحصل بعد ذلك على جواز سفر له ولخادم معه . وكان فى العريش على الحدود بين مصر والشـام شخص اسمه حبيب المعرى مختص بفحص جوازات السفر والأمتعة التى يحملها المسافرون . ولما رأى هذا الموظف جواز سـفر التـاجر اعتقد أن الخادم يلزمه جواز سـفر مستقل وقائم بذاته ، ولم يقبل أن يسمح بالمرور للتاجر ومملوكه الا بعد وصول التعليمات التى طلبها بشأنهما من العاصمة . والواقع أنه كتب الى أحمد بن طولون نفسه يشرح له المسألة . وأمر الأمير باستدعاء التاجر وسأله عن مصدر العبد ، وعرف أنه اشتراه من أحد أتباعه وانه يريد أن يمضى به الى مسقط رأسه ليبيعه مع شىء من المكسب . ولما وجد الأمير أن ذلك كله لاغبار عليه أمر باطلاق سراحه واعطائه جواز سفر قانونى . وطالب التاجر بنفقـات قدومه من الحدود وعودته اليها قائلا انه انفق فى ذلك عشرة دنانير فأمر الأمير له بها ، وترك التاجر مجلس الأمير ليحصل على جواز السفر ، ولكن الظاهر أنه انتقد بعد ذلك الادارة الحكومية الطولونية . وبادر الموظفون بابلاغ ذلك الى أحمد بن طولون فأمر بحبس التاجر فى المطبق (١) وحدث أن لقى هذا التاجر فى السـجن بعض زبائنه ومدينيه ، ودفع الأخيرون ما كان عليهم من دين . واشتغل التاجر فى السجن

(١) المطبق : اسم السجن ، وهذا الاسم على غرار اسم السجن الذى بناه أبو جعفر المنصور فى بغداد حين شيدها .

باقراض المسجونين المال على الصناعات التى كانوا يصنعونها وزادت مكاسبه فى هذا الميدان حتى أنه لم يرد أن يترك السجن عندما عفا الأمير عنه . ولما استغرب أحمد بن طولون الموقف صارحه التاجر بأن الجزء الأكبر من ثروته مستغل فى السجن وطلب منه أن يمهله ثلاثة أشهر يصفى فيها مركزه اذا كان لا بد من اطلاق سراحه . وتم له ما أراد .

١٠ ــ كاتب السر :

كان فى بلاط بنى طولون أو على الأقل فى بلاط أحمد بن طولون نفسه موظف يسمونه « كاتب السر » فضلا عن الكتاب أو السكرتيرين العاديين . ونظرا لخطورة شأن هذه الوظيفة فقد كان يختار لها شخص من أشد المقربين الى الأمير . وكان عمله أن يكون على مقربة من الأمير كلما استقبل أحدا ، فلا يظهر لأحد على الرغم من سماعه كل شيء . وكان يكتب محضرا بكل حديث بين الأمير وأفراد الرعية . وكان أحمد بن طولون يحرص على الانتفاع بهذه المحاضرة فى تكييف خططه الحكومية المختلفة .

واذا تذكرنا أن الاختزال كان معروفا عند اليونان الأقدمين تساءلنا اذا كان كتاب السر يعرفون نوعا منها يستعينون به على ألا يفوتهم من الأحاديث شيء

١١ ــ صاحب الطراز

من الصناعات التى ازدهرت بمصر منذ فجر الاسلام صناعة المنسوجات صوفية كانت أو تيلية او حريرية أو قطنية . ولم تكن

هذه الصناعة أو غيرها من الصناعات التى اشتهرت بها مصر فى عهد الولاة شيئا أحدثته الخلافة ، وانما كانت مما اشتهرت به مصر منذ القدم . واستمرت صناعة النسيج زاهرة فى العصر الاسلامى ، وبقيت هذه الصناعة فى يد أهل البلاد سواء منهم من اعتنق الاسلام ، أو تمسك بالمسيحية .

وقد تطورت صناعة المنسوجات وزخرفتها فى العصر الاسلامى تطورا منتظما غير فجائى . وكان العرب يميلون فى الزخرفة الى العناصر الهندسية والنباتية لكراهيتهم تصوير الانسان والحيوان . وكان هذا الميل نفسه قد دب الى الفنون القبطية منذ منتصف القرن الخامس الميلادي ، فأصبحت الرسوم الآدمية والحيوانية فى زخارف المنسوجات القبطية محورة عن الطبيعة الى حد بعيد . وهكذا لم يجد المصريون صعوبة كبيرة فى ارضاء الفاتحين وانتاج التحف الفنية التى تتفق ومزاجهم . وعلى كل حال فان صناعة النسيج لم تطبع فى مصر بطابع اسلامى ظاهر الا فى العصر الفاطمى ، وحتى حين أصبحت صناعة المنسوجات فى العصر الفاطمى اسلامية بحتة لم تخل فى زخارفها مما يدل على بعض العلاقة بماضيها فى وادى النيل . (١)

وكانت مصر مشهورة على الأخص بنسج الكتان لوفرة زراعته وكذلك كان يصنع فيها المنسوجات الصوفية والقطنية والحريرية .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ٩٠ (القاهرة ١٩٢٥) م

وان كنا نرجح أن القطن والحرير الخام فى مصر لم يكفيا الاستهلاك المحلى والتصدير ، وان مصر استمرت فى استيرادهما كما كان الحال قبل الفتح العربى . وكانت أهم مراكز النسيج فى الوجه البحرى ، وكذلك كانت توجد مراكز هامة للنسيج فى مصر الوسطى والعليا . وذاعت شهرة الاسكندرية فى صناعة النسيج . ويذكر المقريزى أن الثياب المنسوجة بالاسكندرية لا نظير لها ، وتحمل الى أقطار الأرض ، وان فى ثياب الاسكندرية ما يباع الكتان منه اذا عمل ثيابا ، يقال لها الشرب ، كل زنة درهم بدرهم فضة .

واشتهرت تنيس أيضا بالثياب الفاخرة والفرش ، وكان معظم أهلها يشتغلون بالنسيج ، وكان يحاك بها الثياب المعروفة بالشرب . ومما يدل على عظمة تنيس فى النسيج أنه كان يصنع بها للخليفة ثوب يقال له البدنة ، لا يدخل فيه من الغزل سداة ولحمة (١) غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة لا تحتاج الى تفصيل ولا خياطة . وتبلغ قيمة هذا الثوب ألف دينار . وظل ذلك التصدير من تنيس الى ما بعد سنة ٣٦٠ هـ حين ولى وزارة الفاطميين يعقوب بن كلس فمنع الاصدار (٢) . وكان يوجد أيضا صناعة نسيج الأقمشة الشفافة الرقيقة التى يصفها المؤرخون بأنها

---

(١) اللحمة ما نسج عرضا والسدى من الثوب خلاف اللحمة وهو ما مد من خيوطه .

(٢) ابن رستة : الاعلاق النفسية ص ٩٠ (ليدن ١٨٩١ - ١٨٩٢) ، المقدسى احسن التقاسيم ص ٢٠٣.

ثياب « مهلهله النسيج كأنها المنخل » (٣) ، وهى المسماة بالقصب، وكان هذا القصب يلون ، وكان الملون منه ينسج بتنيس ولم ينسج فى أى مكان آخر قصب ملون مثله ، وكان يعمل منه عمائم للرجال وملابس للنساء ، أما القصب الأبيض فكان ينسج فى دمياط . وكانت دمياط تقارب تنيس فى شهرتها فى النسيج وكان يعمل بها الثياب الشرب والقصب . ويذكر المؤرخون المسلمون أنه ربما بلغ الثوب من ثيابها اذا كان مذهبا ألف دينار ونحو ذلك ، ومالم يكن فيه ذهب المائة والمائتين ونحوه .

واشتهر فى النسيج أيضا من بلدان مصر السفلى شطا ودميرة وتونة وكلها قريبة من تنيس ودمياط .

واشتهر فى النسيج من بلدان مصر الوسطى والعليا مدينة البهنسا ، فكان ينسج بها الصوف والقطن . وكان اذا صنع بها شىء من الصوف أو القطن كتب عليه اسم المتخذ له ، وقد اتخذوا ذلك عادة لهم جيلا بعد جيل . وقد كانت الكتابة ذات شأن فى صناعة المنسوجات فى العصر الاسلامى .

واشتهرت القيس بثياب الصوف التى لم يكن لها مثيل ، والقيس كما نعرف على مقربة من البهنسا ، من أعمال محافظة المنيا .

وكان هناك مصانع للنسيج فى الأشمونين ، وأسيوط ، وأخميم ، واهناس ، وبوصير قريدس وغيرها من بلاد الوجه

---

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٦٠ .

القبلى . وكانت هذه المنسوجات تنسب فى العادة الى البلاد التى تعمل فيها فيقال الثيـاب الشطوية والقيسية ، ويقـال التنيسى والدمياطى .. الخ ..

أما صناعة الحرير فقد ازدهرت فى مدينة دبيق .

ولم يكن الفضل فى اتساع نطـاق فن النسج فى مصر فى العصر الاسلامى راجعا الى الأهـالى فقط وانما كان يرجع الى الحكومة أيضا ، فقد كانت تسيطر على مصـانع النسج . ونظام السـيطرة لم ينشئه المسلمون فى مصر ، بل أخذوه عن بيزنطة والراجح المحتمل أن يكون البيزنطيون قد أنشأوا فيها مصـانع حكومية للنسج الى جانب المصانع الأهلية ، فلما جاء العرب أبقوا على هذا النظام .

وكانت المصانع الحكومية للنسج تسمى طرازا ، وهى نوعان: الأول طراز الخاصة حيث تصنع المنسوجات للخليفة أو للأمير ، والأقمشة التى كان يخلعها على كبار رجال الدولة . والثانى طراز العـامة ، وكان يشـتغل فضلا عن هذا بنسج الأقمشة اللازمة للشعب (١) . وكانت تسير مع الطراز الحكومى جنبا الى جنب مصانع أهلية تثقلها الحكومة بضرائب فادحة ورقابة شديدة . (٢)

أما لفظ طـراز فهو مشـتق من الفارسـية « ترازيدان »

---

(١) راجع مقال « طراز » الذى كتبه الاستاذ جرومان فى دائرة المعـارف الاسلامية « فى الجزء الرابع وفى الملحق » .

(٢) انظر : زكى محمـد حسن : الفن الاسـلامى فى مصر ص ٨٣ - ٩٠ ، وكنوز الفاطميين للمؤلف نفسه ص ١١٠ وما بعدها . « القاهرة ١٩٣٧ م » .

و « تراز » بمعنى التطريز وعمل المدبج Broderie ، ثم أصبح يدل على ملابس الخليفة أو الأمير ، أو السلطان ورجال الحاشية ولاسيما اذا كان فيها شيء من التطريز وعليها أشرطة من الكتابة، واتسع مدلول هذا اللفظ حتى انتهى فى العربية والفارسية الى الدلالة على المصنع والمكان الذى تصنع فيه مثل هذه المنسوجات (١) . على أن كلمة «طراز» استعملت فى معان أخرى، مثل الدلالة على أى نقش من النقوش التى توضع على شريط مستعرض من أى نوع كان سواء أكان من الحجارة أو الفسيفساء أو الزجاج أو الفخار أو محفورا فى الخشب . كذلك أطلق لفظ طراز على الكتابة الرسمية التى كانت تكتب على درج البردى (٢) .

ولم يبق نظام الطراز ، أى المصانع الحكومية للنسيج ، وقفا على مصر ، بل نكاد نجده فى كل الأقاليم الاسلامية مثل الشام والعراق وايران وآسيا الصغرى واسبانيا وجزيرة صقلية .

وتشمل مجموعة متحف الفن الاسلامى (الذى كان يعرف باسم دار الآثار العربية) فى القاهرة ، عددا من قطع النسيج بأسماء الخلفاء العباسيين والأمراء الطولونيين . والمعروف أن الضريبة التى كانت ترسلها مصر الى بلاط الخليفة العباسى ، ثم الهدايا التى أرسلها أحمد بن طولون الى الخليفة المعتمد ، والتى

(١) الدكتور زكى محمد حسن الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ٨٤ .

(٢) ادولف جرومان : أوراق البردى العربية ج ١ ص ٢ - ٤ « ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن » .

أرسلها خمارويه من بعده الى الخليفة المعتضد ، كان فيها شيء كثير من الأقمشة الثمينة والمنسوجات النفيسة (١) .

وفى متحف الفن الاسلامى فى القاهرة قطعة باسم الخليفة المكتفى بالله والأمير الطولونى هارون بن خمارويه ، تاريخها سنة ٢٩١ هـ (٩٠٤ م) وهى السنة السابقة لسقوط الدولة الطولونية (٢) .

وفى العصر الطولونى كانت التقاليد الزخرفية القديمة والقبطية لا تزال تسود صناعة النسيج ، على أن هناك بعض قطع من النسيج عليها زخارف طولونية أو عراقية ظاهرة . وفى متحف الفن الاسلامى فى القاهرة قطع عديدة أغلبها سميك ومنسوج فيه رسوم طولونية المسحة . ويوجد فى المتاحف الكبيرة والمجموعات الأثرية فى مصر ، وفى البلدان الأجنبية قطع عديدة ترجع زخرفتها الى عصر الانتقال من الطراز القبطى الى الطراز الفاطمى ويصعب فى بعض الأحيان تمييزها من القطع القبطية ، بينما يندر وجود القطع التى عليها زخارف طولونية بحتة تجعل من اليقين نسبتها الى العصر الطولونى (٣) .

ولم يحرص أحمد بن طولون على ذكر اسمه فى الطراز ، لأنه كان يعمل على أن يظل ولاؤه للخليفة نفسه ، وليس لأخيه الموفق

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ٨٦ وما ذكره من مراجع .

(٢) المرجع السابق ص ٨٧ .

(٣) راجع : الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر . ص ٨٨-٩٠ وما ذكره من مراجع .

صاحب الأمر فى الحكم ، غير مشكوك فيه . أما خمارويه وهارون فقد ظهرت أسماؤهما فى كتابة المنسوجات .

وكان يشرف على الطراز موظف كبير يسمى صاحب الطراز ، أو ناظر الطراز . ولسنا نعرف مدى سلطانه وحقوقه فى العصر الطولونى ، ولكنا نستطيع أن نتصوره مما نعرفه عن حاله فى العصرين الفاطمى والمملوكى حين كان من أعلى الموظفين مقاما وأحسنهم راتبا وأوسعهم سلطانا ، وكان لصاحب الطراز مساعدون فى مصانع النسيج بالبلاد المصرية كلها ، كما كان له مقر رسمى فى الحاضرة ، ومراكب ينتقل بها فى النيل (١) :

وكان يعاون صاحب الطراز فى الاشراف على المصانع فى كل اقليم من الأقاليم المصرية فى فجر الاسلام موظف يسمى « المتوكل بطراز الاقليم » كما يتبين من وثيقة بردية فى دار الكتب المصرية نشرها الأستاذ جروهمان وترجع الى القرن الثالث الهجرى وقد جاء فيها « قبض حسين بن يحنس من رماح بن يوسف المتوكل بطراز أشمون وأنصنى » (٢) :

ويجدر بنا أن نذكر أن مصر ، كما استمرت ترسل القسح سنويا الى الحجاز حتى بعد أن انتقل مقر الخلافة وبعد أن استقلت مصر ، كذلك استمرت ترسل كسوة الكعبة سنويا ، بل

(١) دكتورة سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ص ١٨٠ - ١٨١ وما ذكرته من مراجع .

(٢) A. Grohmann : Arabic Papyri in the Egyptian Library vol. II. p. 163 and plates 17 & 19.

ان ارسال كسوة الكعبة من مصر الى مكة كان يشير الى زعامة مصر على الحجاز وعلى العالم الاسلامى كله . وكان النزاع الذى نشأ بين السلطان الملك الأشرف برسباى سلطان مصر (٨٢٥ — ٨٤١ هـ) وشاه رخ ابن تيمورلنك بسبب ارسال كسوة الكعبة معناه نزاع حول الزعامة فى العالم الاسلامى (١) .

١٢ — السكة :

أسس فى مصر دار لضرب النقود على يد أحمد بن طولون ، حيث ضربت الدنانير التى عرفت بالأحمدية وامتازت بعيارها الجيد (٢) . ولا عجب فان السكة كانت تعتبر فى العالم الاسلامى من شارات الملك (٣) . ويبدو أن دار الضرب لم تكن كبيرة أو معقدة فى نظامها . وقد كتب ابن خلدون فى « المقدمة » أن السكة هى « الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بهما بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة ، بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس فى خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه ، فيكون التعامل بها عددا ، وان

(١) Wiet : Hist. de la Nation Egyptienne T. IV pp. 563-564

(٢) المقريزى : كتاب النقود القديمة الاسلامية « فى النقود العربية وعلم النميات الذى عنى بنشره الاب انستاس مارى الكرملى » ص ٥٤ و ٥٧ ، وانظر : البلوى : سيرة احمد بن طولون ص ١٩٦ ؛
Zaky M. Hassan : Les Tulunides pp. 210-211.

(٣) ابن خلدون : المقدمة « الفصل السادس والثلاثون فى شارات الملك والسلطان الخاصة به » .

لم تقدر أشخاصها يكون بها وزنا ولفظ السكة كان اسما للطابع وهى الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل الى أثرها وهى النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ، ثم نقل الى القيام على ذلك والنظر فى استيفاء حاجاته وشروطه وهى الوظيفة فصار علما عليها فى عرف الدول . وهى وظيفة ضرورية للملك ، اذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس فى النقود عند المعاملات . ويتقون فى سلامتها الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة » .

ويبدو أن الختم على الدنانير والدراهم وعيارها كان يقوم به نفر قليل من الموظفين يعرف بعضهم باسم « المعدلين » ، ويعرف الآخرون باسم « السباكين » . ويشرف عليهم « متولى دار الضرب » . ولكن الأمير كان يعنى بأعمالهم ويطلب أن يطلع عليها وأن يقوموا ببعضها فى حضرته بين وقت وآخر . وكان الأمير فى بعض الأحيان يعهد بالاشراف على دار الضرب الى القاضى .

ويبدو لنا أن موظفى دار الضرب كانوا ينتقلون مع الأمير فى بعض الأحيان أو يلبون طلبه فى موافاته الى حيث يكون خارج مصر . فان النقود التى نعرفها من العصر الطولونى ضربت فى مدن مختلفة مثل مصر ودمشق وحران وحمص وحلب وانطاكية . والراجح عندنا أن هذه المدن لم يكن فى كل منها دار مستقلة لسبك النقود ، وانما كان الأمير يعتمد على الاخصائيين عنده فى هذا الميدان ، اللهم الا اذا فوض نائبه ببلد من البلاد فى الاشراف على ضرب النقود فيها أو كان البلد مشهورا بدار الضرب فيه .

١٣ ـ الموظفون الطولونيون :

مما يلفت نظرنا فى الادارة الطولونية بوجه عام غياب العنصر القبطى فيها ، أو على الأقل بعده عن الوظائف الرئيسية فيها ، لأننا نرجح أن وظائف الصيارفة كانت لا تزال معظمها فى أيديهم . ولكننا نلاحظ أن القبط لم يكن لهم فى عصر بنى طولون من النفوذ فى الوظائف العامة ما كان لهم فى فجر الاسلام وفى عصر الاخشيديين والفاطميين بل والمماليك أيضا . والواقع اننا اذا استثنينا مهندس الجامع الأكبر ، ثم سعيد بن نوفل طبيب ابن طولون ، واسحق بن نصر العبادى كاتب خمارويه ، ولا نجد موظفا مسيحيا علا شأنه حتى لفت نظر المؤرخين فى ذلك العصر . والظاهر أن سبب ذلك لا يرجع الى الرغبة فى ارضاء الفقهاء أو الشعب من المسلمين بقدر مايرجع الى اخلاق احمد بن طولون نفسه . ويلوح لنا أن احمد بن طولون كان يلقى على القبط قسطا وافرا من تبعة الافلاس الادارى ، والتأخر الاقتصادى اللذين سادا فى مصر قبيل قدومه اليها . ومن ناحية أخرى فقد كان الجيش عماد كل شىء فى البلاد وعليه كان أحمد بن طولون وخمارويه يعتمدان فى نضالهما ضد الحكومة العراقية فطبيعى أن يختار أعوان الأمير فى المناصب الرئيسية من بين قواد هذا الجيش المختلف العناصر .

والواقع أنه منذ زاد نفوذ الترك فى الخلافة الاسلامية ، وأصبح الخليفة يقطع أحد قواد الجند الترك الديار المصرية

وكذلك اثناء حكم الدولة الطولونية لانكاد نجد عربيا صميما له شأن كبير فى ادارة مصر اللهم الا أصحاب المناصب القضائية . والمعروف أن هؤلاء قل نفوذهم جدا فى العصر الطولونى ولاسيما بعد نشوب الخلاف بين أحمد بن طولون والقاضى بكار . بل ان منصب هذا القاضى ظل شاغرا سبع سنوات بعد وفاة بكار .

والظاهر كذلك انه لم يكن ثمة شأن يذكر فى الادارة الطولونية للعرب الذين جاء آباؤهم وأجدادهم من شبه الجزيرة واستقروا فى مصر على دفعات متتالية ، والذين تفرقوا فى الأقاليم واختلطوا بالسكان الأصليين وأصبحوا يعيشون على الأساليب التى كانت سائدة فى مصر منذ العصر الفرعونى . ولكنا نعرف أن نوعا من الارستقراطية العربية والطبقة الوسطى كان موجودا فى المدن الكبيرة ولاسيما الفسطاط . فضلا عن أن طبقة أخرى كانت لاتزال قائمة فى العاصمة ابان العصر الطولونى وهى طبقة من كان لهم شأن فى حكم البلاد قبل قدوم أحمد بن طولون .

ولا ريب فى أن أحمد بن طولون لم يهمل رأى تلك الأرستقراطية العربية بل كان يحسب لها حسابها وذلك بدون أن يترك لها نفوذا مباشرا فى الحكم .

ويظهر كذلك أن أحمد بن طولون كان يفضل أن يتخذ كتابه من العرب أو من الفرس الذين استوطنوا مصر . ولدينا فى هذا الصدد نص مهم جدا فيه حديث نقله ابن الداية عن أحمد بن خاقان . وكان أحمد بن خاقان صديق أحمد بن طولون فى شبابه

ورفيقه فى رحلته الدراسية الى طرسوس . والنص المذكور هو الوحيد الذى يشير الى قدوم أحمد بن خاقان الى مصر . وذكر الكندى اسم ابن خاقان بين الذين رافقوا الخليفة المعتمد عند تركه سامرا مدعيا الخروج الى الصيد ومضمرا الالتجاء الى أحمد بن طولون فى مصر . ولما كان هذا الحادث متأخرا عن ظروف النص الذى نحن بصدده الآن فمن المحتمل أن أحمد بن خاقان قدم الى مصر مع أحمد بن طولون أو بعده بفترة قصيرة ، ومن المحتمل كذلك أن عودته الى سامرا ربما كانت باشارة من أحمد بن طولون وفى مهمة سرية لاقناع الخليفة بالالتجاء الى مصر . وعلى كل حال فلسنا نعرف مصير أحمد بن خاقان بعد أن فشل مشروع الخليفة المعتمد فى ترك العراق . ولكن الراجح انه نجح فى العودة الى مصر حيث اتصل به ابن الداية . أما النص الذى أشرنا اليه فيبين أن أحمد بن طولون عندما تسلم كتاب الحكومة العراقية سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) بالذهاب الى سامرا أرسل بدلا منه كاتبه الواسطى . واتخذ كاتبا له عربيا من مصر اسمه جعفر ابن عبد الغفار ، ولكن هذا الكاتب الجديد أظهر عجزا وعدم كفاية دفعا ابن خاقان الى أن ينصح الأمير بعزله وتعيين كاتب جديد . فأجاب أحمد بن طولون بأنه يتحمل بصبر عجز هذا الكاتب لأنه مصرى . ولما سأله صديقه اذا كان يفضل الكتاب المصريين على كتاب العراق ، أجاب بالنفى وقال ان أنفع الأشياء لمن يحكم بلدا أن يتخذ كاتبه من الناس الذين توجد أسرتهم ومصالحهم فى هذا

البلد نفسه ، ولاسيما أن الكاتب يختار أعوانه من مواطنيه وهكذا ينتفع أهل البلد . وفضلا عن ذلك فان مثل هذا الكاتب تكون مصالحه فى البلد نفسه ويزيد ذلك فى ازدهارها ، بينما الكاتب العراقى فى مصر لا يستطيع أن يخدم بحماس واخلاص بلدا غير وطنه الأول الذى يتجه اليه ويرغب فى العودة اليه يوما من الأيام .

وبالرغم من اننا نجهل تفاصيل كثيرة عن ادارة الدولة فى عصر بنى طولون الا أننا نستطيع أن نستنبط مما لدينا من البيانات الحقائق التالية :

١ ــ لما كانت الاسرة الطولونية من أصل تركى فقد غلبت فيها صفات أرباب السيف على أرباب القلم .

٢ ــ كان الأمراء يدارون الفقهاء ولكنهم لم يتركوا لهم أى نفوذ مباشر .

٣ ــ كان الأمير صاحب الحول والقوة والسلطان فى بداية الأسرة ولكن منذ نهاية عهد خمارويه انتقل السلطان الى القواد الترك .

٤ ــ لم يكن للعنصر العربى شأن يستحق الذكر ، لأن القضاة فقدوا سلطانهم ، ولم يكن للكتـــاب رأى مسموع بل كانوا فى معظم الأحيـــان كتبة فحسب .

٥ ــ كانت العناصر السائدة فى الجيش هى التركى والرومى والسودانى . وكان هناك عدد محدود من العـــرب .

٦ ــ كان العنصر التركى محتفظا بقسط من الوظائف الصغيرة سواء منها المالى أو الفنى .

الفصل الثالث عشر
سياسة أحمد بن طولون الاقتصادية

١ ـ ديوان الخراج والضرائب :

عرفنا أن أحمد بن طولون كان من الشخصيات الفذة فى التاريخ الاسلامى ، وأنه اتسم بالطموح والعبقرية وبعد النظر والعمل والجهاد . ورأينا كيف عمل على الاستقلال بمصر ، وفى الوقت نفسه عمل على حماية هذا الاستقلال فمكن سلطانه فى برقة ، وضم اليه الاسكندرية ،وعمل على أن يجمع فى يده الخراج حتى لا تكون يده مغلولة فى مشروعاته المختلفة . وأصبح البريد خاضعا لابن طولون بعد ان كان خاضعا للخلافة وذلك حتى لاتعرف دار الخلافة من أموره الا ما يسمح به هو . واتجه ابن طولون الى بناء جيش مصرى يدين بالولاء له وليس للخلافة ، وعمد الى تقوية الأسطول ، ولم يتوان فى القضاء على الثورات والفتن الداخلية . وامتد نفوذه الى بلاد الشام ووصل الى حدود العراق والى حدود بلاد الروم . ولم يغفل ابن طولون العناية بالنواحى الاقتصادية حتى يتم استقلال مصر سياسيا واقتصاديا وحتى يمكنها المحافظة على هذا الاستقلال وحتى يعيش ابناء مصر فى رخاء . وكان لابد لمشروعات ابن طولون المختلفة من الاموال الوفيرة . وطبيعى كانت مصر وحدها هى التى تدبر هذه الأموال الطائلة . ولهذا نرى أحمد بن طولون يعمل على مضاعفة الانتاج فى ميدان الزراعة والصناعة والتجارة . وكان أحمد بن طولون

يعتمد على الخراج باعتباره المورد الرئيسى لميزانية الدولة ، وفى الوقت نفسه عمد الى الكف عن الجبايات الظالمة . وكان اصلاح السكة وضرب سكة خاصة بمصر عماد الاستقلال السياسى والاقتصادى ورمزا للرخاء فى البلاد .

وكان رخاء مصر فى عصر أحمد بن طولون وابنه خمارويه مضربا للأمثال . ولاشك ان ذلك الرخاء كان ناتجا الى حد كبير عن بقاء ايراد البلاد فيها دون ان يتسرب شىء كثير منه الى الخلافة العباسية . وبعد ان اتسعت حدود مصر فشملت الشام والثغور يجدر بنا الا نفكر فى اقامة أى وزن لمساعدة من الشام أو لغنائم من الروم ، فقد كانت الحاميات الطولونية فى الشام تكلف الطولونيين نفقات طائلة كما ان الغنائم من الروم كان يستأثر بها الجند ولا تكاد خزينة الحكومة تستفيد منها شيئا .

كانت الخطوة الأولى التى اتخذها أحمد بن طولون فى سبيل تدعيم الاستقلال كما ذكرنا هو أن يصبح مسيطرا على خزانة الدولة أو على خراجها ، ومن هنا كانت حربه مع ابن المدبر . وكانت بداية نجاح أحمد بن طولون الحقيقى فى الاستقلال بمصر هى السنة التى استطاع فيها اقصاء ابن المدبر عن الخراج ومنذ تلك السنة أصبح ديوان الخراج فى مصر أو كما نقول الآن وزارة الخزانة ووزارة الاقتصاد ـ خاضعا لاحمد بن طولون . ونعرف مما ذكره ابن سعيد ان ابن طولون شغل ديوان الخراج بموظفين يدينون له بالطاعة والولاء .

ولكى ندرك الدور الكبير الذى كان ينتظر احمد بن طولون فى الناحية المالية يجب أن نعرف أن دخل البلاد قبل الدولة الطولونية كان يذهب الى بيت مال الخلافة أو جيوب الولاة أو عمال الخراج بدون أن تفيد مصر نفسها شيئا كثيرا . ولما كانت البلاد فى عصر الولاة لا تحكمها أسرة تحرص على ازدهارها ، وكان غرض الخلافة الأساسى هو جباية أكبر دخل ممكن ، عرفنا أنها لم تكن من الوجهة المالية الا شبه مزرعة تستغل بدون كبير رعاية لازدهارها أو بقاء قدرتها على الانتاج ، وقد زادت الحالة سوءا فى العصر العباسى حين كثر تعيين الولاة وعزلهم فكان كل وال يعمل على اثراء نفسه فى أقصر وقت ممكن قبل أن يغادر البلاد . وظهر أيضا فى العصر العباسى وفى عهد أبى جعفر المنصور مسألة ضمان الوالى لخراج مصر كله ، أى أن الخليفة أراد ان يجعل الوالى يلتزم بدفع مبلغ معين عن القطر كله دون النظر الى قدرة البلاد على الدفع وظروفها المختلفة .

ولما صارت مصر تقطع للقواد الترك زاد الطين بلة لما عرف عنهم من العنف وسوء الادارة وزيادة الضرائب .

ثم تولى ابن المدبر خراج مصر وكان متعسفا فى فرض الضرائب على المسلمين والمسيحيين على السواء فزادت الضرائب على المصريين زيادة فاحشة .

وقد مر بنا الحديث عما أدخله ابن المدبر من الضرائب مثل ضرائب النطرون والصيد والمراعى ، ولعل ضريبة المصايد كانت

أثقلها على النفوس اذ كان الناس يعتبرونها غير شرعية ، ولعلهم كانوا يعدونها مخالفة للآية الشريفة (أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعا لكم) .

ويظهر أن ابن المدبر نفسه احتال فى تسميتها فيذكر المقريزى فى ذلك : « واما المصايد فهى ما أطعم الله سبحانه وتعالى من صيد البحر وأول من أدخلها الديوان أيضا ابن مدبر وصير لها ديوانا . واحتشم من ذكر المصايد وشناعة القول فيها فأمر أن يكتب فى الديوان : خراج مضارب الأوتار ومغارس الشباك » .

وفرض ابن المدبر فضلا عن ذلك ضرائب على إشجار اللبخ والسرو والنخيل . وكانت كل هذه الضرائب وتلك تسمى الهلالية لأنها كانت تجىء شهريا ، كما كانوا يسمونها أحيانا المرافق والمعاون . ويظهر انه كانت تتبع فى مصر فى ذلك العصر وسائل الشدة لجباية الخراج . ونعرف أن الليث بن الفضل والى مصر خرج الى الخليفة الرشيد فى سنة ١٨٧ هـ وسأله أن يبعث معه بالجيوش لأنه لا يستطيع استخراج الخراج من أهل الحوف الا بجيش . ولكن محفوظ بن سليمان ضمن للخليفة حينذاك جباية خراجها عن آخره بلا سوط ولا عصا فولاه الخليفة الخراج . (١)

كذلك تبين ورقة بردية عربية من القرن الثالث الهجرى مدى الشدة التى كانت تتبع فى جباية الأموال ففيها أمر بأنه اذا لم يؤد

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ١٤٠ .

كل فرد ما عليه من الأموال يضرب عشرة سياط ويغرم فى صلب ماله دينـــارا (١) .

هكذا كانت السياسة المالية حين استطاع أحمد بن طولون أن ينحى ابن المدبر وأن يشرف بنفسه على ميزانية البلاد .

ولسنا نعرف تماما كل اصلاحاته المـــالية ، ولكن المصـــادر التاريخية تروى أن خراج البلاد قد انحط فى عصر الولاة الذين سبقوه حتى بلغ ثمانمائة ألف دينار بينما ارتفع فى نهـــاية حكمه حتى وصل الى أربعة ملايين وثلاثمائة ألف . فضلا عن ذلك فان أحمد بن طولون ترك بعد وفاته ثروة طائلة أحصاها ابن سعيد على هذا النحـــو :

١٠ر٠٠٠ر٠٠٠	دينار
٧ر٠٠٠	من الموالى
٢٤ر٠٠٠	من الغلمان
٧ر٠٠٠	من الخيل
٣ر٧٠٠	من الجمال
٦٠٠	من البغال

وكتب المؤلفون أن القمـــح فى عصر أحمد بن طولون كان يشـــترى عشرة أرادب بدينار ، وفى عصر خمارويه ثلاثة أرادب بدينار . وكان هذا السعر الأخير يعتبر رخيصا جدا فى العصور التـــالية :

(١) A. Grohmann : Arabic Papyri vol. III p. 104

ويحدثنا المؤرخون عن الغاء احمد بن طولون للضرائب الظالمة . وأكبر ظننا أن أحمد بن طولون أحسن توزيع الضرائب . وكانت أملاك الحكومة الخاصة تدر عليه دخلا كبيرا يفوق كل ما كانت تدره قبل ذلك . وكان يشرف على هذه الأراضى ديوان خاص اسمه ديوان الأملاك عهد به الى سليمان بن ثابت .

٢ ـ الزراعة :

عنى أحمد بن طولون بتشجيع الزراعة وتسهيل الرى ليتمكن من استغلال الأرض والحصول على أوفر قسط من الضرائب ، وطبيعى أن سبيله الى ذلك كان حسن العناية بالترع والقنوات وحسن استخدام المياه للرى كما تشهد بذلك الأوراق البردية .

والحق أن أحمد بن طولون اهتم بحماية الفلاح من ظلم الجباة وعسفهم حتى ينصرف وهو مطمئن الى زراعته . وكانت الدولة تمد الفلاح بحاجته من البذور والآلات الزراعية . ويبدو أنها كانت تتقاضى أثمان هذه الخدمات بعد نهاية المحصول .

وكانت النتيجة لهذه العناية بالفلاح وبالأرض وبالهيئة الادارية فضلا عن القضاء على الفتن والثورات الداخلية وعلى المفسدين ، أن شهدت مصر نهضة زراعية كبرى . ويحدثنا المقريزى أنه استغل فى الزراعة نحو مليون فدان فى العصر الطولونى . وكان هذا أعظم استغلال شهدته مصر حينذاك . وتجلى هذا الرخاء العظيم الذى توفر لابن طولون وفى الملايين التى أنفقها فى

مشروعاته والتى ادخرها لأولاده من بعده . وكانت عناية خمارويه بالزراعة لاتقل عن عناية أبيه .

والحق أن العصر الطولونى خلا من الأزمات الاقتصادية ، وامتاز بالرخاء وزيادة الانتاج . وكان فيضان النيل طيبا فى سنى الأسرة الطولونية اللهم الا اذا استثنينا بعض سنين من حكم خمارويه ثم السنة الأولى والسنة السابقة للأخيرة من حكم هارون فقد كان الفيضان فيها غير طيب وان لم يبلغ من النقصان حد الخطر الذى كان يبلغه بعد ذلك فى عصر الفواطم والمماليك والذى كانت تنتج عنه الأوبئة والقحط .

٣ ــ الصناعة :

لم تقتصر نهضة مصر على الناحية الزراعية ، وانما امتدت الى الصناعة أيضا . أما الصناعات التى ازدهرت بمصر فى ذلك الحين فعلى رأسها صناعة النسج . ومر بنا بعض الحديث عنها حيث عرضنا لمنصب ناظر الطراز . وحسبنا الآن أن نشير الى وجود الأقمشة الثمينة بين الهدايا التى كان يقدمها أمراء مصر ، بل ان بابوات رومة أنفسهم كانوا يحصلون من الأسواق على تلك المنسوجات النفيسة ويقدمونها هدايا للكنائس . وأكبر الظن أن مصانع الطراز كانت مصدر ربح وافر للأمراء الطولونيين . وكان يحدث أن بعض المنسوجات النفيسة المصنوعة فى طراز الخاصة كانت تباع فى الأسواق . فقد

ذكر ابن الداية مثلا أنه بعد أن عزل ابن المفضـل ، الذى كان ناظرا على قصر ابن طولون ، أمر ابن طولون ببيع ملابسه وبعض أشياء كانت ملكا له فبلغ ثمنها عشرين ألف دينار .

ومن الصناعات التى لابد أن تكون قد نجحت فى عصر بنى طولون صناعة الأسلحة ، فقد كان الجيش الطولونى وافر العدد ، وكانت تلزمه بطبيعة الحال كميات كبيرة من الأسلحة . وقد أشار المؤرخ ابن الزيات فى كتاب الكواكب السيارة ، الى بناء سماه مصنع ابن طولون . وربما كان هذا البناء دارا لبعض الصناعات فى عصر بنى طولون .

كذلك كانت فى مصر معاصر لاستخراج الزيت من السمسم وبعض الحبوب والبقول .

واشتهرت مصر بصناعة الورق من البردى الذى كان ينمو بكثرة فيها ، وخاصة فى مستنقعات الدلتا والفيوم . وشهرة مصر فى صناعة الورق من البردى شـهرة قديمة ترجع الى العصر الفرعونى . وطالما كان الناس يستعملون البردى للكتابة ، كانوا يعتمدون على مصر . أما فى القرن الرابع الهجرى فيحدثنا الثعالبى أن كواغيد سـمرقند عطلت قراطيس مصر ، والجلود التى كان الأوائل يكتبـون عليها ، لأنها أحسـن وأنعم وأرفق وأوفق ، ولا تكون الا بسمرقند والصين . ويذكر المستشرق النمسوى «كراباتشيك» أن صناعة اعداد ورق البردى للكتابة انتهت فى مصر بالاجمال حوالى القرن الرابع الهجرى .

وهكــذا نرى ان مصر كانت طــوال عصر الولاة والعصر الطولونى تكاد تحتكر صناعة الورق . وكان صــناع الورق ، كغيرهم من الصــناع فى مصر من المصريين .

كذلك كان المصريون يعصرون القصب ليصنعوا منه السكر ، ونعرف ذلك مما جاء فى الأوراق البردية .

واذا تذكرنا الجهاز الفاخر الذى أعــده خمارويه لابنتــه قطر الندى رجحنــا أن من الصــناعات التى ازدهرت فى مصر الطولونية صناعة الحلى والأثاث الثمين والتحف المصــنوعة من المعادن النفيسة ومن الجلد .

ومن الصناعات التى ازدهرت فى مصر الطولونية صــناعة الخشب . وقد مهر المصريون منذ عهد الفراعنة فى صناعة الخشب بالرغم من قلة الأخشاب فى مصر وأن ما يوجد بها من الشــجر لا يصلح خشبه الا لأعمال النجارة البسيطة ، مثل شجر الجميز والســنط والزيتون والسرو . وكان المصريون منذ العصــور القديمة يستوردون من البلاد المجاورة ما يلزمهم من خشب الأرز والصنوبر والأبنوس والساج ، وغيرها من أنواع الخشب المتين

وساعد جفاف الجو على بقاء الخشب فى حالة جيدة . وظلت لمصر السيادة فى الحفر على الخشب وصناعته ، حتى القرن العاشر الهجرى والســادس عشر الميــلادى .

واذا صح ما ذكره المقريزى فقد كانت فى الفسطاط فى العصر الطولونى أسواق خشب كبيرة . وقد بلغ النجارون والفنانون فى

الحفر على الخشب مهارة عظيمة تشهد بها التحف الخشبية التى ترجع الى هذا العصر .

ومن الصناعات التى ازدهرت فى مصر الطولونية ، صناعة الخزف . وأكبر الظن أن أحمد بن طولون أدخل فى البلاد — نقلا عن سامرا — الخزف ذا البريق المعدنى الذى اشتهرت بصناعته مصر بعد ذلك ولا سيما فى عصر الفاطميين .

ولسنا نعرف كيف كانت تنظم هيئات الصناع فى العصر الطولونى . واذا صح لنا أن نفرض أن النظام المعروف فى العصور المتأخرة كانت نواته موجودة فى العصر الطولونى ، جاز أن نظن أن كل طائفة من الصناع كانت لها شبه نقابة أو جماعة يرأسها عريف أو شيخ .

٤ — التجارة :

استتبع النهضة الزراعية والصناعية ، نهضة تجارية عظيمة . وساعد على تلك النهضة أيضا موقع مصر الممتاز بين قارات افريقية وأوربة وآسيه . وقد ظهرت قيمة موقع مصر الجغرافى العالمى منذ عهد الإسكندر الاكبر المقدونى ، أى فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد حين اتصلت مناطق الحضارة المختلفة بعضها ببعض وامتدت بينها أسباب التجارة وصلات السياسة والثقافة .

وظلت مصر منذ عهد الاسكندر الأكبر تتمتع بهذا المركز الممتاز العالمى ، فلم تكتف بتصدير مايزيد عن حاجة البلاد من الزراعات أو الصناعات ، واستيراد ماتحتاج اليه البلاد ، بل كانت

تلعب دور الوسيط بين الشرق والغرب ، فكانت مخزنا للبضائع الشرقية والغربية تصدر منتجات الأسواق الشرقية الى الأسواق الغربية وبالعكس .

وكان أهم طرق التجارة بين الشرق والغرب ، وقبل استكشاف طريق رأس الرجاء الصالح فى القرن التاسع الهجرى والخامس عشر الميلادى ، هو طريق البحر الأحمر ، اذ كان هذا الطريق يقلل ، الى أدنى حد ممكن ، المصاعب والنفقات الطائلة التى يسببها النقل البرى . فاذا استثنينا الشريط البرى الضيق بين البحر الأحمر والنيل ، كانت البضائع التى ترسل من بلاد الهند والصين تسلك دائما طريق البحر وتتبع الطريق المباشر ، أى أقصر الطرق للوصول الى موانى ايطاليا وفرنسا واسبانيا . وكانت السفن ترسو فى الموانى المصرية الواقعة غربى البحر الأحمر . ومن هذه الموانى تسير قوافل التجارة الى النيل عن طريق الصحراء الشرقية ثم تتخذ طريق النيل الى الاسكندرية ومنها تتصل التجارة الشرقية بأسواق الغرب عن طريق حوض البحر المتوسط . واحيانا كانت السفن التجارية تواصل السير فى البحر الأحمر الى القازم (السويس الحالية) ومنها تسير فى القناة النيلية التى تصل بين البحر الأحمر والنيل عن طريق البحيرات المرة ووادى طميلات ثم تصل عن طريق النيل الى الاسكندرية .

واهتم الفراعنة بحفر القناة التى كانت تصل بين البحر الأحمر والنيل ، واعاد حفرها البطالسة والرومان ، ولما جاء عمرو بن

العاص الى مصر أعاد حفرها وسميت خليج أمير المؤمنين . وقيل أيضا أن عمرو بن العاص فكر فى حفر قناة توصل مابين البحر المتوسط والبحر الأحمر رأسا ــ وكذلك فكر الخليفة هرون الرشيد فى ذلك ولكن هذه الفكرة لم تتم الا فى العصر الحديث حين حفرت قناة السويس .

وبالرغم من أن اهمال خليج أمير المؤمنين جعله غير صالح لملاحة السفن فى أوائل العصر العباسى ، الا أن هذا الطريق ظل يسلكه التجار . وقد اهتم العاملون من حكام مصر فى العصور المختلفة بالسيطرة على الطرق التجارية ليضمنوا سلامة استقلالهم السياسى والاقتصادى وليجعلوا مصر الطريق الرئيسى لمرور التجارة . وكثيرا مادفعهم هذا الى الاستيلاء على الشام للسيطرة على طرقهما التجارية ولتأمين الحدود المصرية . ونحن نعرف أن أحمد بن طولون حين استقل بمصر اتجه ببصره الى الشام كى يدعم استقلاله السياسى والاقتصادى . وليس من شك فى أن جهود احمد بن طولون فى الأمن والاصلاحات والتعمير مما ساعد على تعزيز مكانة مصر التجارية .

وكانت هناك طرق تجارية بين مصر والواحات الغربية والمغرب وبين مصر واثيوبيا وأواسط افريقية .

وقد فطن المؤرخون المسلمون الى ذلك الموقع الممتاز الذى تتمتع به مصر ، فكتبوا أن من فضائل مصر . « انها فرضة الدنيا يحمل من خيرها الى سواحلها ، وذلك أن من ساحلها بالقلزم ينقل الى

الحرمين والى جدة والى عمان والى الهند والى الصين وصنعاء وعدن والشحر والسند وجزائر البحر ، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما فرضة بلد الروم واقاصى الافرنجة وقبرص وسائر سواحل الشام والثغور الى حدود العراق ، ومن جهة الاسكندرية فرضة اقريطش وصقلية وبلد الروم والمغرب كله الى طنجة ومغرب الشمس ، ومن جهة الصعيد فرضة بلد النوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن»(١)

ومما يدل على نشاط مصر التجارى فى أواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) نص كتبه الجغرافى المشهور ابن خرداذبة (٢) عن التجارة. فقد تحدث عن التجار اليهود الراذانية(٣) الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلية . وذكر انهم يسافرون من المشرق الى المغرب ومن المغرب الى المشرق برا وبحرا ، يجلبون من المغرب الخدم والجوارى والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ، ويركبون من فرنجة (٤) فى البحر الغربى فيخرجون بالفرما (٥)

---

(١) انظر : النويرى : نهاية الارب فى فنون الادب ، ج ١ ص ٣٤١ « طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م » .

(٢) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ — ١٥٤ « ليدن ١٨٨٩ » ، الدكتور زكى محمد حسن : الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى ص ٧ — ٩ « القاهرة ١٩٤٥ »

(٣) نسبة الى نهر الرون .

(٤) يقصد بفرنجة فرنسا .

(٥) مدينة بلوزيوم القديمة او طينة الحالى وهى الى الشرق من بورسعيد على البحر المتوسط وكان ينتهى عندها الفرع الثالث الذى كان للدلتا والذى كان يعرف باسم الفرع البلوزى .

ويحملون تجارتهم على الظهر الى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخا (١) ثم يركبون البحر الشرقى من القلزم الى الجار وجدة (٢) ثم يمضون الى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصينى وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحى حتى يرجعوا الى القلزم ، ثم يحملونه الى الفرما، ثم يركبون فى البحر الغربى ، فربما عدلوا بتجاراتهم الى القسطنطينية فباعوها من الروم ، وربما صاروا بها الى ملك فرنجة فيبيعونها هناك وان شاءوا حملوا تجارتهم من فرنجة فى البحر الغربى فيخرجون بانطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل الى الجابية ثم يركبون فى الفرات الى بغداد ، ثم يركبون فى دجلة الى الأبلة (٣) ومن الأبلة الى عمان والسند والهند والصين ، كل ذلك متصل بعضه ببعض » .

ونص ابن خرداذبة لايقتصر على بيان أهمية مركز مصر التجارى وانما يبين أن طريق القلزم (السويس الحالية) والفرما (شرقى بورسعيد الحالية) كان من أهم حلقات الاتصال بين الشرق والغرب .

---

(١) الفرسخ ثلاثة اميال .

(٢) الجار كانت ميناء المدينة المنورة ، اما جدة فهى ميناء مكة .

(٣) الابلة ميناء قديم انشئت مدينه البصره بالقرب منه .

ولدينا نص متأخر عن ذلك كتبه المسعودى (١) فى القرن الرابع الهجرى وهو يبين أهمية ذلك الطريق التجارى أيضا . فيقول ان مصر « هى البرزخ بين البحرين المذكورين فى القرآن (٢) لأن من الفرما التى على ساحل بحر الروم الى القلزم التى هى ساحل بحر الصين مسيرة ليلة ، يحمل اليها من جميع الممالك المحيطة بهذين البحرية من أنواع الأمتعة والطرائف والتحف من الطيب والأفاويه والعقاقير والجوهر والرقيق وغير ذلك من صنوف المآكل والمشارب والملابس ، فجميع البلدان تحمل اليها وتفرغ فيها » .

وعلى أية حال فان النصوص التاريخية المختلفة تبين أهمية طريق القلزم ــ الفرما فى التجارة العالمية بعد أن سد خليج أمير المؤمنين الذى كان يصل بين القلزم ونهر النيل عن طريق البحيرات المرة ووادى طميلات .

وكان نهر النيل والترع أداة طيبة للملاحة النهرية تنقل بوساطتها البضائع بين بلدان مصر كما تنقل الى دمياط والاسكندرية حيث يحصل التجار الغربيون على مايحتاجون اليه . ويظهر أن مصر كان لها أسطول تجارى لايستهان به .

ومن الوثائق التى تدل على ذلك كتاب على ورقة بردية محفوظة الآن فى مجموعة رينر بالمكتبة الأهلية فى فينا . وترجع هذه الوثيقة

---

(١) التنبيه والاشراف ص ٢٠ « ليدن ١٨٩٣ ــ ١٨٩٤ م » .

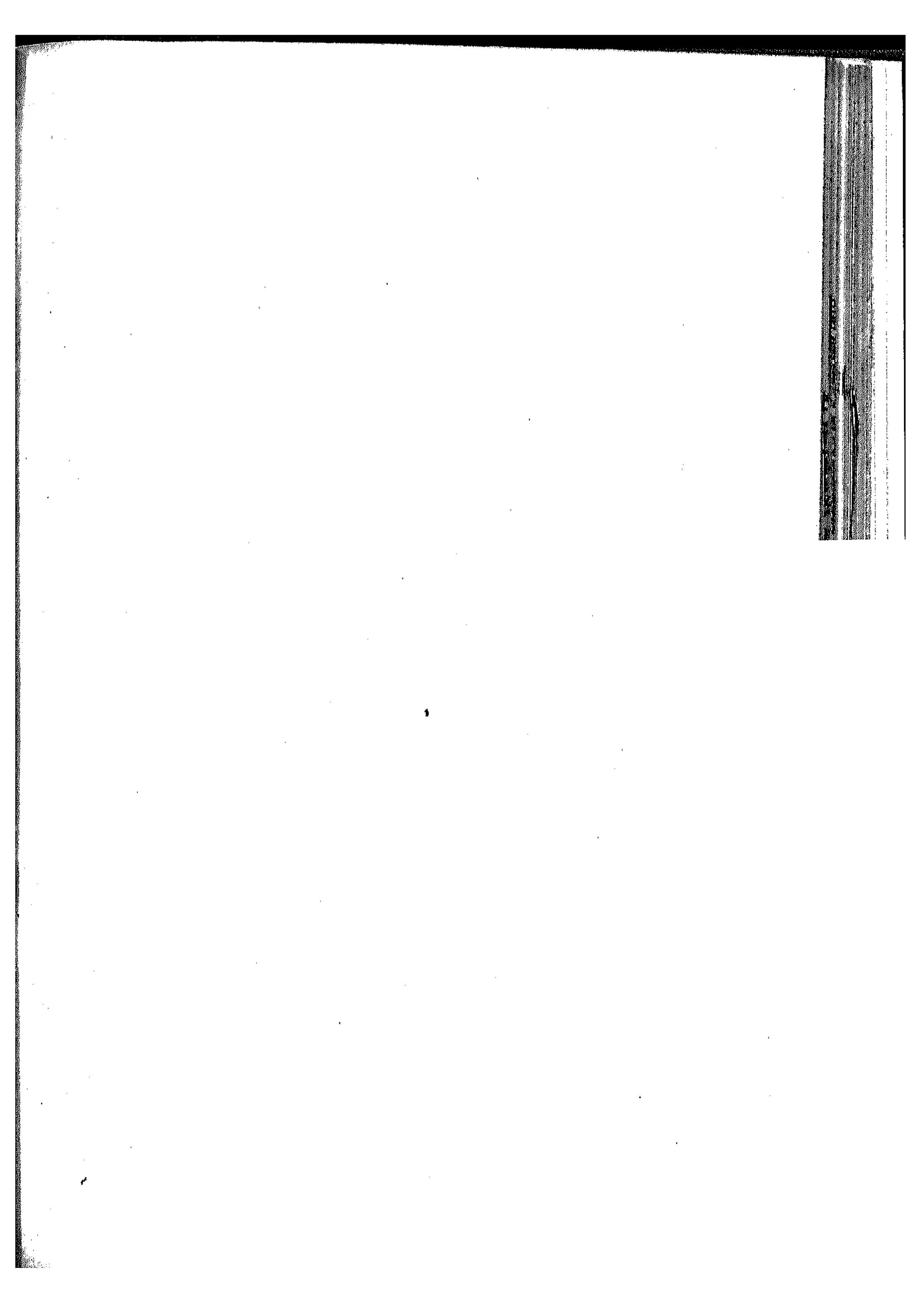
(٢) يشير بذلك الى قوله تعالى (مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان) سورة الرحمن آية ١٩ ــ ٢٠ .

البردية الى القرن الثانى أو الثالث الهجرى (الثامن أو التـاسع الميلادى) وفيها حديث عن بضائع وتجارة وعن قدوم أربعين سفينة تجارية من انطاكية .[1] وحسبنا أن نقرأ ماكتبه المقريزى عن القطائع لنتبين ماكان من الرخاء بالبلاد فى عصر ابن طولون وخمـارويه .
وخير دليل على ازدهار التجارة مانعرفه عن وجود الأسواق الكبيرة حيث كان لكل طائفة موضع معين كذلك ذكر المقـريزى أن كل طائفة من التجار كان لها سوق كبير فذكر فى كتابه الخطط «ولكل من الباعة سوق حسن عامر فصارت القطائع مدينة كبيرة أعمـر وأحسـن من الشـام » .

(1) انظر Zaky M. Hassan Les Tulinides p. 239
وما ذكره من مراجع

الفصل الرابع عشر

دراسات في المجتمع المصري على عهد أحمد بن طولون



١ ـ القبط :

امتاز العصر الاسلامى فى مصر ـ ولاسيما قبل قدوم أحمد ابن طولون ـ بحركة واسعة مستمرة تتطور بالبلاد الى التعريب وسيادة الدين الاسلامى . وقد كانت هذه الحركة قوية فعالة وصلت الى الذروة فى عصر العباسيين فى القرن الثالث الهجرى والتاسع الميلادى ،ولكنها لم تنقطع بعد ذلك بل استمرت حتى عصر المماليك فى مصر فى القرن الثامن الهجرى والرابع عشر الميلادى وظاهرة تمصير العرب ، وتعريب مصر وانتشار الاسلام فيها هى أهم الظواهر التاريخية فى مصر الاسلامية (١) ونلاحظ أن تعريب مصر وانتشار الاسلام فيها ليسا مترادفين . وطبيعى أن مايذهب اليه بعض الباحثين ولاسيما المستشرقين من المبالغة فى تقدير الاضطهاد الدينى الذى حل بالقبط أمر غير صحيح فالثابت أن الخلفاء تركوا للمسيحيين حرية دينية كبيرة .

ويؤكد ساويرس مؤرخ البطاركة أن الحكومة الاسلامية لم تتدخل فى الشعائر الدينية عند أهل الذمة، بل كان بعض الأمراء والخلفاء يحضر مواكبهم وأعيادهم . أما أبناء مصر من المسلمين

---

(١) اقرأ هذا الموضوع فى بحث علمى مستفيض فى : سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام . ص ١٨٢ ـ ٢٦٢ ، سيدة كاشف : تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية واهميته لدراسة التاريخ القومى « مجلة الجمعية التاريخية المصرية » .

فكانوا لايجدون غضاضة فى الاشتراك مع الأقباط فى تلك الاحتفالات .

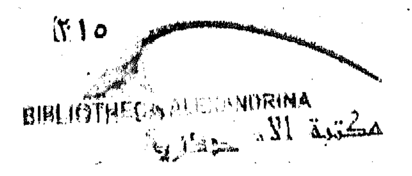
كذلك يبين لنا ساويرس أن الأقباط شغلوا كثيرا من الوظائف فى العصر الاسلامى ، وخاصة الوظائف المالية . ويورد ساويرس فى مناسبات مختلفة أسماء كثير من كبار الموظفين الأقباط . كذلك لم يعرف عن حكام مصر أنهم عارضوا فى تعيين أحد البطاركة بعد أن يتم انتخابه بوساطة الأساقفة الا اذا اختلف الأساقفة فيما بينهم . ويؤكد مؤرخ البطاركة أن الدين لم يفرق بين المصريين فى الشعور بأنهم أبناء وطن واحد . أما عن انتشار الاسلام فى مصر منذ أواخر عصر الولاة ، أى قبل قيام الدولة الطولونية ، فيتضح لنا مما كتبه ساويرس ان العامل المالى من أهم العوامل التى حولت أغلبية الأقباط الى الدين الاسلامى ، وطبيعى اننا لا نشك فى كتابات ساويرس فى هذا الصدد ، اذ أن ساويرس لم يكن ليغفل الكلام على أى اضطهاد يصيب الأقباط لتحويلهم الى الدين الاسلامى بالقوة .

والواقع أننا لا نجد مؤرخا غير ساويرس يفسر لنا السبب الذى حمل أغلبية القبط على التحول الى الدين الاسلامى . فساويرس يؤكد دائما أن الهروب من الجزية ومن الضرائب كان أكبر عامل على انتشار الاسلام فى مصر . وهو يزن دائما الولاة والأمراء بالميزان المالى ، ولهذا نرى مؤرخ البطاركة قد يحكم على أمير أو خليفة واحد حكمين على طرفى نقيض ، لأن هذا الأمير قد يكون

وحيما بأهل الذمة وقت من الأوقات ، وقد يشتد فى جمع الضرائب والجزية فى وقت آخر ، ومثل ذلك كلامه على الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وهشام بن عبد الملك ، والخليفة المتوكل على الله العباسى ، وأمير مصر أحمد بن طولون .

وهكذا كان الاسلام دين الأغلبية العظمى فى مصر ، حين أسس أحمد بن طولون أسرته فيها ، وان كان اعتناق كثيرين منهم الدين الجديد ، لم يكن فى بداية الأمر عن اخلاص وحسن فهم ودراية .

والمعروف أن والى مصر عبد الله بن عبد الملك أمر بتعريب الدواوين فيها منذ سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ — ٧٠٦ م) على أن أهم عوامل تعريب مصر هو نزول القبائل العربية فى الريف المصرى واستقرارها على جانبى الشريط الخصب بوادى النيل وفى الدلتا مما أدى الى اختلاطهم بالقبط اختلاطا كبيرا ، ومن ثم الى انتشار اللغة العربية فى مصر والى تعريب البلاد . وبدون هذا الاختلاط لايمكننا أن نفسر كيف ترك الفلاح المصرى القديم لغته رغم تمسكه بالقديم وحرصه عليه . ونحن نعرف أن اللغة اليونانية كانت لغة مصر الرسمية منذ العهد البطليموسى الى الفتح العربى لها وكانت اللغة التركية لغة مصر الرسمية فى العهد العثمانى ولكن هذا لم يجعلهما لغة الشعب المصرى ، فقد عاش اليونان وعاش الأتراك فى بيئات خاصة فى مصر ولم يختلطوا ولم يتغلغلوا فى الشعب المصرى .



وبينما نرى أن الدين الاسلامى أصبح دين الأغلبية العظمى فى مصر منذ القرن الثالث الهجرى ، نرى أن تعريبها تم فى القرن الرابع الهجرى وأصبح رجال الدين الأقباط منذ ذلك القرن يكتبون باللغة العربية ويخاطبون أبناء دينهم بها بعد أن أصبحت لغة التخاطب بينهم .

ولدينا وثيقة بردية مؤرخة بسنة ٢٧٢ هـ ورد فيها مانصبه : « اقرار دانيال بجميع مافى هذا الكتاب بعد أن قرىء عليه حرفا حرفا فأقر بفهمها ومعرفته بما فيه » (١) .

ولدينا وثائق بردية كثيرة فى القرن الثالث الهجرى مكتوبة باللغة العربية وهى عبارة عن عقود زواج أو بيع أو شراء وغير ذلك من سائر المعاملات الخاصة بالمصريين .

وكان عدد القبط لايزال وافرا بمصر فى العصر الطولونى . والظاهر انهم كانوا ينعمون بعطف لم يتمتعوا به قبله بزمن طويل وانهم استطاعوا أن يستغلوا حسن ادارة أحمد بن طولون وخمارويه ،وميلهما الى كسب الرأى العام فى البلاد ، ليكون ذلك قوة يرتكزون عليها فى نضالهم مع حكومة العراق .

ومهما يكن من الأمر فان عندنا بعض نصوص تشهد بتسامح أحمد بن طولون وابنه خمارويه مع القبط . واذا صح ماذكره ابن

---

(١) جرومان : أوراق البردى العربية ج ٢ ص ١٧٠ .

الداية فان ابن طولون عنى بدير القصير حيث كانت له صداقة مع راهب اسمه ابواندونه Antoine والظاهر أنه شمل هذا الدير برعايته منذ بداية حكمه لأن النص الموجود فى ابن الداية يشير الى ان ابن المدبر شدد على رهبان هذا الدير فى دفع الجزية، فشكوا الى أحمد بن طولون وأعطاهم الأمير كتابا الى ابن المدبر باعفائهم منها ، ولكنه نبه عليهم الا يستخدموا الكتاب المذكور كسيف يضرب به وانما يظهروا الخضوع ويبلغوا أمر الكتاب الى ابن المدبر فى هدوء قبل أن يواجهوه به .

وقد ذكر الذهبى والعينى وابو المحاسن نصا يثبت عطف أحمد ابن طولون على المسيحيين فى دمشق عندما نشب الحريق بقرب كنيسة العذراء .

والحق أننا نعرف من المصادر التاريخية المختلفة ومما ذكره ساويرس أن الوفاق كان سائدا بين المسلمين والأقباط فى مصر الطولونية .

٢ ـ اليهود :

يظهر أن مصر كان بها فى العصر الطولونى جالية يهودية مهمة ومن الراجح أن أفرادها كانوا من الأغنياء وذوى الأعمال الرابحة كما يتجلى من المناسبات التى يرد فيها ذكرهم فى المقريزى وابى المحاسن وغيرهما من المؤرخين المصريين . ونعرف مثلا أن البطرك ميخائيل الثالث باعهم احدى الكنائس وبعض الأراضى الموقوفة

ليجمع جزءا من الغرامة التى ألزم بدفعها الى خزانة أحمد بن طولون. كذلك نجد ذكرهم مقرونا بالمسيحيين فى مناسبتين : الأولى عندما هدم أحمد بن طولون قبور الطائفتين ليشيد على انقاضها قصره فى الموضوع الذى يشغله الآن ميدان قره ميدان والمسافة الواقعة فى امتداده الى جامع السلطان حسن . أما المناسبة الثانية فهى مناسبة اشتراك اليهود مع المسيحيين فى الصعود الى جبل المقطم ليصلوا الى الله ويدعوا بالشفاء للامير أحمد بن طولون فى مرضه الأخير .

ولسنا نعرف اذا كان لليهود أى شأن فى الادارة الطولونية ، كما لا نعرف أساليب معيشتهم ، وموقف الطوائف الأخرى ازاءهم ، ولكننا نرجح أنهم كانوا هادئين ، ولم يعكر صفوهم أحد . ولسنا نعرف نصوصا تشير الى اشتغال اليهود بالربا . فان النصوص التى وصلتنا فى المكافأة لابن الداية تدل على أن الذين كانوا يفعلون ذلك ـ أو على الأقل جزءا كبيرا منهم ـ كانوا من المسلمين .

وقد جاء فى كتاب طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ذكر طبيب يهودى من أصل مصرى واسمه اسحق بن سليمان ، ترك وادى النيل سنة ٢٩٣ هـ (٩٠٦م) وسافر الى افريقية حيث اتصل بالأمير الأغلبى زيادة الله الثالث ، ثم استقر فى القيروان وتتلمذ على الطبيب المشهور اسحق بن عمران . ثم توفى فى حكم الأمير الفاطمى عبيد الله المهدى بعد أن عمر أكثر من مائة عام . وأكبر

الظن أن اسحق بن سليمان هذا عاش فى عصر بنى طولون . ولكننا لانعرف شيئا عن حياته فى مصر أو علاقته ببنى طولون .

٣ ـ المسلمون :

يتكون السكان المسلمون فى وادى النيل من نسل الجنود العرب أو الموالى الذين وفدوا الى مصر على دفعات ثم استقروا فيها ومن افراد القبائل العربية التى هاجرت الى وادى النيل طلبا للرزق فى أراضيه الخصبة ، ثم من القبط واليهود الذين اعتنقوا الدين الاسلامى .

وقد قدر المستشرق الفرنسى الاستاذ ماسينيون أن بين سكان مصر الحاليين ٨٨ فى المائة من الأسرات القبطية القديمة اعتنق تسعة أعشارها الاسلام ، بينما ٦ فى المائة من سكان مصر عرب خلص و ٢ فى المائة من قبائل بربرية مستعربة قدمت مع الفاطميين من شمال افريقية فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) .

والمعروف أنه حتى فى العصر الطولونى كانت هناك بطون من البربر قد استقرت غربى الدلتا . وكان معظم أنصار ربيعة بن أحمد بن طولون فى ثورته على هارون بن خمارويه ، من أولئك البربر .

والذى لاشك فيه هو أن العرب فقدوا فى مصر تدريجيا صفاتهم الحربية وتفرقوا بين السكان فى ريف مصر . وقد قيل ان بلاد الفراعنة فيها دائما قوة امتصاص تتمثل الأمم التى تفتحها . فلا

قرابة ان مزجت تلك القوة بين القبط الوطنيين وأبناء العرب الفاتحين . ولم يلبث أن جرى دم العرب فى عروق القبط الذين اعتنقوا الاسلام وبالعكس . وعلى كل حال فان الأغلبية العددية كانت دائما لشعب مصر ولم يأت اليها عنصر أجنبى يفوقها عددا وكثرة بحيث يستطيع امتصاص الدماء المصرية وانما الذى كان يحدث هو العكس فالمصريون كانوا هم الذين يتمثلون جميع الشعوب الوافدة الى مصر .

وقد مر بنا الكلام على جيش الدولة الطولونية وعناية الأمراء به ، وذكرنا أن هذا الجيش كان يتألف من جنود مرتزقة من الترك والسود وغيرهم ، ولم يكن فيه لأهل مصر أنفسهم نصيب كبير .

ومهما يكن من الأمر فان الأغلبية العظمى من سكان مصر فى العصر الطولونى كانت من المسلمين ، وكان اهتمامهم قليلا بالأمور الحكومية اللهم الا الضرائب . وكان بعض العرب منهم يحتفظون بالانتساب الى قبائلهم ولكن هذه الأنساب أخذت تفقد أهميتها بالتدريج . وقد رأينا فى معظم شواهد القبور التى اكتشفت حديثا فى مقابر أسوان والفسطاط ان اسم المتوفى يتبع باسم قبيلته فى خلال القرنين الأولين للهجرة ، ولكن فى خلال القرن الثالث الهجرى نجد أن اسم القبيلة حل محلها اسم الجهة أو الاقليم الذى ينتسب اليه المتوفى فيكتب فلان الكوفى أو المصرى الخ (١) .

---

(١) انظر : سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام . ص ٢٥٨ وما ذكرته من مراجع .

ولم يكن هناك بعد قرار الخليفة المعتصم الذى أخرج العرب من ديوان الجيش فى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) مايحسد عليه العرب الذين كانوا من نسل الفاتحين . اذ أنه بعدما فقد العرب مركزهم السامى فى الدولة الاسلامية ، اضطروا الى الانتشار فى ريف مصر والاختلاط بالمصريين والتزوج من بناتهم والاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة ، وغير ذلك من الأعمال التى كانوا يترفعون من قبل عن الاشتغال بها .

ولن يفوتنا أن نشير الى موقف أحمد بن طولون ازاء العلويين فان هذا الأمير كان يضطهدهم ويقمع ثوراتهم . ولا نظن أنه كان مدفوعا الى ذلك بعامل دينى وانما نرجح أنه كان يريد القضاء عليهم بوصفهم عنصرا من عناصر الفوضى . والمعروف كذلك أن أحمد بن طولون سجن يوسف بن ابراهيم (والد المؤلف ابن الداية) لأنه كان على صلة بالعلويين فى بغداد .

٤ ـ القضاء والمظالم والحسبة :

كان المذهبان المالكى والشافعى أكثر المذاهب الاسلامية انتشارا بين سكان مصر . أما اتباع المذهب الحنفى فكان عددهم قليلا . ولسنا نستطيع أن نؤكد أن بنى طولون كانت لهم سياسة معينة تجاه أى مذهب من هذه المذاهب الثلاثة . بل الظاهر أنهم لم يعنوا الا قليلا جدا بمثل هذه الأمور التفصيلية . ونحن نعرف أن أحمد بن طولون نفسه درس على مذهب أبى حنيفة فى طرسوس

وأن القاضي بكار بن قتيبة الذي كان دعامة الحياة الدينية في عصر أحمد بن طولون كان حنفي المذهب ، ولكن علينا أن لا ننسى أن أحمد بن طولون وجده في منصب القضاء عندما قدم الى مصر ، وأن القاضي بكارا لا يدين بمنصبه الى أحمد بن طولون . وقد خلف بكارا في منصب القضاء محمد بن عبدة بن حرب وكان حنفيا أيضا وقد تولى في سنة ٢٧٨ هـ (٨٩١م) في عصر خمارويه . ثم خلفه أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي في عهد هارون سنة ٢٨٤ هـ (٨٩٧م) وكان أول قاض شافعي في مصر .

ونحن نعرف العمل الخطير الشأن الذي كان يتولاه القضاة في الاقاليم الاسلامية ، ولاسيما في عاصمة كل منها ، فقد كان لهم نفوذ عظيم على الشعب ، وسلطان أدبي لا يستهان به وذلك فضلا عن أعمالهم العادية في محاكمة المذنبين وفض المنازعات ، واقامة الحدود الدينية ، والسهر على تنفيذ الشريعة الاسلامية وما الى ذلك مما ورد في كتب الفقه .

وكان القضاة ينتخبون عادة من بين أعلام الفقهاء واتقيائهم وذوي النزاهة منهم . وكانت اختصاصاتهم واسعة ومتعددة ولكنها كانت كاختصاصات سائر الموظفين غير محدودة . ولا ريب أن القاضي كان لا يتسع نفوذه وسلطانه اذا كان الأمير قويا وحكومته رشيدة تسهر على تسيير شئون البلاد بنشاط ودقة .

وهكذا يجب علينا الا نبالغ في تقدير ماكان لقضاة مصر من شأن في عصر بني طولون . وقد جاء في كتاب ابن حجر العسقلاني

عن قضاة مصر أن أحمد بن طولون « داوم النظر فى المظالم حتى استغنى الناس من الشرطتين عن القاضى حتى كان بكار ربما نعس فى محله واتكأ ثم انصرف الى منزله ولم يتقدم اليه اثنان » .

ونذكر فى هذه المناسبة أن مثل هذا التعطل حدث بعد ذلك فى عصر كافور الاخشيدى للقاضى ابى الطاهر الذهلى . وعلى كل حال فانه يجوز أن يكون تدخل أحمد بن طولون فى شئون القضاء وتعطيله بكارا سببا من أسباب سوء التفاهم الذى قام بعد ذلك بينهمـــا .

ولكننا لايجب أن نستنتج من ذلك أن بنى طولون ــ ولاسيما أحمد ــ كانوا لايعنون باحترام الدين ، فان الحق يخالف ذلك تماما وكان الطولونيون يعملون فى معظم الأحيان على مداراة الفقهاء ، وحسبنا أن أحمد بن طولون نفسه لم يستغن عن تعضيدهم فجمع منهم مجلسا فى دمشق لعزل الموفق واعلان الجهاد ضده لانقــاذ الخليفـــة .

وفضلا عن ذلك فان أحمد بن طولون نفسه على الرغم من تعطيله بكارا وتدخله فى شئون عمله كان يذهب لسماع دروســه فى الحديث استرضاء له . وعلينا أن نذكر فى هذه المناسبة أن أمراء بنى طولون لم يكن لهم ماكان لبنى العباس من نفوذ دينى أو نسب شريف يستطيعون بهما أن يفرضوا أنفسهم على المسلمين فرضـــا .

وصفوة القول أن أحمد بن طولون جرد بـــكارا من كثير من

اختصاصاته ولكنه ظل على رغم ذلك يداريه . ولكنه وصل الى نتيجة سلبية وأدرك انه لن يستطيع أن يجعل هذا القاضى عبدا لعرشه فعزله وعطل منصبه نهائيا .

وجدير بالذكر أن القضاء فى الدولة الاسلامية كان من الأمور الخاصة بالخلافة . فكان الخليفة هو الذى يعين القاضى فى مصر منذ فتحها العرب الى العصر الطولونى . وفى بعض الأحيان كان والى مصر يعين القاضى ثم يقره الخليفة على ذلك . ولما قدم أحمد ابن طولون الى مصر وجد بكار بن قتيبة قاضيا فيها منذ أرسله الخليفة المتوكل سنة ٢٤٦ هـ فاستمر على القضاء . وحين طالبه أحمد بن طولون بلعن الموفق على المنابر وامتنع بكار عن ذلك عزله أحمد بن طولون وسجنه فى سنة ٢٧٠ هـ .

ويظهر أن أحمد بن طولون فعل ذلك بموافقة الخليفة . ويقال ان أحمد بن طولون ارسل الى بكار مرة وهو فى السجن يقول: « كيف رأيت المغلوب المقهور لا أمر له ولا نهى ولا تصرف فى نفسه ! . ولا تزال هكذا حتى يرد على كتاب المعتمد باطلاقك » (١)

وهكذا نرى أنه بالرغم من استقلال مصر الذاتى فى عهد الطولونيين ، فان أمر القضاء كان لايزال مرجعه الى الخلافة . وقد توفى بكار بعد وفاة أحمد بن طولون بعدة أيام ، وذلك فى سنة ٢٧٠ وكان ابن طولون قد أطلقه من سجنه قبيل وفاته . وخلفه فى القيام بأعمال القضاء ابن شاذان الجوهرى نحو ثلاث سنين دون

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٥١٢ – ٥١٤

أن يكون له لقب القاضى . ثم عين خمارويه محمد بن عبدة للنظر فى المظالم ، وكان له اختصاص القاضى . وظل محمد بن عبدة بن حرب ينظر فى المظالم نحو أربع سنين ثم ولى القضاء فى سنة ٢٧٨ هـ من قبل الخليفة المعتمد ، وذلك بعد أن تعطل منصب القضاء نحو سبع سنين .

وقام ابن عبدة بمنصب القضاء حتى قتل خمارويه وخلع ابنه جيش وقتل فى سنة ٢٨٣ هـ ، وحينئذ اختفى ابن عبدة ولم يظهر فى الحياة العامة الا بعد سقوط بنى طولون . وظلت مصر بغير قاض الى أن ولى هارون بن خمارويه أبا زرعة محمد بن عثمان الدمشقى القضاء فى سنة ٢٨٤ هـ . ويقال ان الذى ولاه هو الخليفة المعتضد .

ولما سقطت الدولة الطولونية اتصل محمد بن عبدة بالقائد محمد بن سليمان فولاه القضاء والمظالم فى ربيع الأول من سنة ٢٩٢ هـ .

ونظرا لمكانة القضاة الأدبية والاجتماعية فقد كانوا فى معظم الأحيان وسطاء فى الخير والاصلاح . ومر بنا أن أحمد بن طولون أرسل بكارا فى الوفد الذى بعثه لردع ابنه العباس وهديه الى سواء السبيل ، ولكن الظاهر أن بكارا لم يبذل فى سبيل انجاح هذه المهمة جهدا مشكورا . ولكن من الخطأ أن نتهمه ـ كما يفعل الاستاذ جب ـ بأنه كان يعضد سرا ثورة العباس .

وكان فى مصر الطولونية ـ كغيرها من أنحاء العالم الاسلامى ـ

ما يسمونه النظر فى المظالم . ويعد الناظر فيها أشبه شىء بمحكمة الاستئناف ومحكمة النقض ومجلس الدولة فى عصرنا الحالى .
ونلاحظ أن الواقع فى مصر الاسلامية يخالف ماتكتبه المراجع النظرية فى هذا الشأن . فان اختصاص الناظر فى المظالم كان غير محدود ، فكان دون اختصاص القاضى فى بعض الأحيان وفوقه فى أحيان أخرى . وقد كتب المستشرق « فون درهايدن » أن منصب الناظر فى المظالم كان أول مناصب الدولة ، لأن صاحبه كان يراقب سائر الموظفين ، وبذلك كان يشبه بمفرده كل ماتقيمه الأمم الحديثة من مجالس ولجان لضمان العدالة ومحاربة الاوتقراطية .
ولكنا نرى أن هذا القول مبالغ فيه ، ولا ريب فى أن أساسه ماجاء فى الأحكام السلطانية للماوردى عن الناظر فى المظالم . والحق أن هذه الاختصاصات كانت نظرية الى حد كبير . وسلطان الناظر فى المظالم لم يكن واسعا الا حين كان هو الخليفة أو الأمير أو من يقرب من مرتبتهما ، أو من كان مؤيدا من الأمير حائزا لثقته التامة وفضلا عن ذلك فان اختصاص الناظر فى المظالم واختصاص القاضى كانا يلتقيان فى كثير من الأحيان وكان يصعب أحيانا أن تتبين أيهما أوسع سلطانا . وفى معظم الأحيان كان المرجع النهائى للبت فى المظالم الخطيرة الشأن هو الخليفة أو الأمير نفسه .

بقى أن نتحدث عن المحتسب . ولسنا نريد هنا أن نفصل الكلام على اختصاصاته كما تبينها المراجع الفقهية والتاريخية . وحسبنا أن نذكر أنه كان يراقب مراعاة أحكام الشرع ويسهر على حسن

السلوك العام ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويشرف على نظام الأسواق والطرقات وعلى الباعة والعمال ، ويعمل بوجه عام على حماية الناس من غش التجار والصناع .

والظاهر أنه لم يكن فى عصر بنى طولون موظف خاص بأعمال الحسبة .

٥ ــ الأمن العام :

ليس لدينا نصوص كافية عن الأمن العام فى العصر الطولونى وأكبر الظن أن الأمن والهدوء لم يسودا دائما فى أنحاء البلاد ، وشعر أحمد بن طولون منذ البداية بضرورة تطهير البلاد من اللصوص وقطاع الطرق والمجرمين الذين كانوا يعكرون صفو السكان الهادئين ولاسيما فى الريف . ولا ريب فى أن قسوته فى هذا السبيل وكثرة المجرمين الذين ماتوا فى سجونه ، ثم القصص التى رواها ابن الداية ، كل هذا يشهد بأن الأمن لم يكن دائما مستتبا فى البلاد . ولسنا نريد بذلك أن نبخس من حقه ولا نقدر الجهود التى بذلها ، فالواقع اننا لانستطيع أن نقارن الفوضى التى عمت البلاد قبل مجيئه بالهدوء النسبى الذى نجح فى الوصول اليه ولاسيما فى العاصمة (١) .

ويحدثنا ابن الداية فى كتابه المكافأة عن بعض رجال من كورة اهناس اشتبه فى أنهم لصوص فسجنوا ثم أطلق سراحهم .وحدث

(١) انظر : Zaky M. Hassan... Les Tulunides p. 228

بعد ذلك بقليل ان ظهرت فى كورتى اهناس والبهنسا عصابة من قطاع الطرق واللصوص خربت القرى وعاثت فيها فسادا وأصبح لها الأمر والنهى . واضطر صاحب الكورة فى سبيل التخلص من هذه العصابة أن يتخذ أفرادها عمالا للشرطة مما يدل على أنه لم يجد وسيلة أخرى لمنعهم من مهاجمة الضياع ونهب المسافرين .

ومن المجرمين الذين عرفوا فى ذلك العصر المبنجون والخناقون وكانوا يستخدمون البنج ونبات الخانق فى تخدير الناس ليسلبوهم ما يريدون .

والظاهر أن معظم أولئك اللصوص وقطاع الطرق كانوا من العرب البدو ، بينما كان فريق آخر من العرب يكسب عيشه بمرافقة المسافرين وحمايتهم . وكثيرا ما كان المجرمون وقطاع الطرق من العرب يحجمون عن مهاجمة المسافرين الذين يحرسهم عرب آخرون .

وفضلا عن ذلك فقد كان الجند الطولونيون واتباع الأمراء يستبدون بسواد الشعب فى بعض الأحيان ، كما يتجلى من قصة ذكرها ابن الداية فى ترجمة أحمد بن طولون وملخصها أن الأمير كان يعبر النيل ذات مرة فأبصر بصياد فقير ومعه ولد يمسك بطرف الشبكة وملابس كل منهما لا تكاد تغطى بدنه . فأشفق أحمد ابن طولون عليهما وأمر نسيم الخادم باعطائهما عشرين دينارا ففعل . ولما رجع أحمد بن طولون ومر بالمكان نفسه وجد الصبى

يبكى وأمامه جثة الصياد ممددا على الأرض ، فظن ابن طولون لأول وهلة ان جنديا من جنوده السود قتل الصياد ليستولى على الدنانير . وظهر أن الحقيقة غير ذلك وان الصياد مات بالسكتة عند رؤية مثل ذلك المبلغ من المال . ولكن الذى يعنينا فى هذا المقام ماتبادر الى ذهن الأمير مما يدل على أن الجند لم يكونوا دائما مثال النظام فى معاملتهم الشعب .

٦ ـ بعض مظاهر الحياة الاجتماعية :

- كان الشعب فى مصر الطولونية يحتفل بأعياد المسلمين وأعياد النصارى فضلا عن المناسبات التى تحتفل فيها الأسرات بأعيادها الخاصة .

والراجح أن وفاء النيل كان يحتفل به فى العصر الطولونى فقد جرت مصر منذ العصور القديمة على الاحتفال بتلك المناسبة.

وقد أشار أبو المحاسن ابن تغرى بردى ، الذى عاش فى عصر المماليك ، الى عظمة الأعياد آنذاك ، وذلك عندما تحدث عن حلبة السباق فى عهد خمارويه وقال انها كانت تقوم عند الناس مقام الأعياد لكثرة الزينة وركوب سائر الجند والعساكر بالسلاح وان الناس كانوا يجلسون لرؤية ذلك كما يجلسون فى الأعياد . وعلق على ذلك بقوله : « والتشبيه أيضا بتلك الأعياد لا بأعياد زماننا هذا فان أعيادنا الآن كالمآتم بالنسبة لتلك الأعياد السالفة »

وذكر المقريزى نقلا عن القضاعى ان الفسطاط كان فيها الفه وسائة وسبعون حماما . ونقل عن ابن المتـــوج انه كان فى شرقى الفسطاط حمام من بناء الروم ، كان عامرا زمن أحمد بن طـولون وابنه خمارويه ، وقيل كان فيه سبعون من العمـــال فى خدمة المستحمين يتولى كل عامل خدمة اثنين أو ثلاثة من المستحمين .

وكان من عادات القوم فى الحفلات والمناسبات الســعيدة أن ينثروا النقود على الحاضرين . وكان هذا تقليدا فى المـآدب التى يقيمها الأمير أو التى تقام له (١) .

وكان المصريون فى العصر الطولونى ، وفى العصور الاسلامية عامة ، يرون فى الآثار المصرية القديمة كنوزا يسعد بعضهم عنـد العثور عليها ، ويجد آخرون فى الكشف عنها حتى كانوايسمونها «المطالب» وكان أهم ماينشدونه التحف المصنوعة من المعـادن النفيسة . وفى ذلك يقول المسعودى الذى توفى فى القرن الرابع الهجرى « ولمصر أخبار عجيبة من الدقائق ومايوجد من الدفائن من ذخائر الملوك التى استودعوها الأرض وغيرهم من الأمم ممن سكن تلك الأرض وتدعى المطالب » (٢) .

ويروى ابن الداية (٣) قصة عن نسيم الخادم تابع أحمد بن

---

(١) المقريزى : خطط ج ١ ص ٣٣١

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٤١٤ « باريس ١٨٦١ - ١٨٧٧ م »

(٣) ابن سعيد : المغرب ص ٩٨ - ٩٩ « طبعة الدكتور زكى حسن » .

طولون ذكر فيها « ان أحمد بن طولون ركب الى الأهرام ، وجاز وحجابه بجماعة عليهم جباب صوف ، وفى أيديهم مساح ومعاول، فسألهم أحمد بن طولون عما يعانونه فقالوا : نحن قوم نطلب المطالب ، فقال لهم : لا تخرجوا الا بمشورتى ، ورجل من قبلنا» أى أن أحمد بن طولون لم يقبل أن تكون الحفائر والبحث عن المطالب مسألة خاصة بافراد وانما اعتبرها مما يخص الدولة .ويذكر ابن الداية أن أحمد بن طولون أمر بالحفر فى تلك المنطقة ورتب لذلك العمال والفعلة وانهم كشفوا عن حوض مملوء دنانير .وكان عيار هذه الدنانير أجود من الدنانير العباسية الجيدة . ويقال ان أحمد بن طولون تشدد فى عيار نقوده بعد ذلك .

ويتضح لنا مما وصلنا من وثائق أو عقود زواج من القرن الثالث الهجرى أنها كانت تحرر من أكثر من نسخة واحدة .

ونستنبط مما وصلنا من عقود الزواج بيانات كثيرة عن الخطوبة والشهود والمهر المعجل والمؤخر . كذلك كان يذكر فى عقود الزواج وصايا بحسن الصحبة والمعاشرة والأمر بامساك بمعروف أو تسريح باحسان ، واشتراط من جانب الزوجة أن يكون لها حق طلاق أى امرأة يتزوجها الزوج بعدها ، وبيع أى جارية يتخذها بعد زواجهما (١) .

---

(1) Grohmam: Arabic Papyri in the Egyption Liberary, vol. I p. 65--121

٧ ــ الحياة العقلية :

كانت الحركة العلمية والثقافية فى مصر الطـولونية حلقـة مستمرة مزدهرة بين عصر الولاة فى مصر الاسلامية العـربية وبين مابعد الطـولونيين . والواقع أن اسـتقلال مصر على يد الطولونيين شجع الحركة العلمية الى حد كبير اذ كان أحمـد بن طولون ، مثل غيره من الأمراء المستقلين عن الخلافة العباسية ،يريد أن تكون امارته منافسة للخلافة العباسية فى العلوم والفنون وغير ذلكمن ضروب الحضارةوالتمدن . ونحن نعلم أنه بعدفتح العرب لمصر بدأت مصر تشترك مع سائر الولايات الاسلامية فى الأخـذ بالعلوم الفقهية والدينية الاسلامية وأصبحت مصر مركزا علمياهاما خصوصا فى أواخر عصر الولاة ، فكان يفد اليها الطلبة لتلقى العلم وخاصة من افريقية والمغرب والأندلس . كذلك ظلت الاسكندرية مركزا للثقافة اليونانية والرومانية ولم يتعرض المسلمون لمدرسـة الاسكندرية أو للاديرة التى كانت مراكز الثقافة المسيحية فى مصر . ولكن مدرسة الاسكندرية فقدت الكثير من مركزها العلمى لأن كثيرا من علماء الروم غادروا مصر بمؤلفاتهم وكتبهم زمن الفتح . أما الأقباط فانهم لم يهتموا اهتماما كبيرا بدراسة الثقافة اليونانية والرومانية . واتجـه أغلب العرب ، والأقبـاط الذين أسلموا ، الى دراسة العلوم الاسـلامية الدينية . ولـكن ليس معنى هـذا الانصراف كلية عن العلوم القديمة ، فنرى ابن الداية يشير فى كتاب

المكافأة الى انتفاعه بالثقافة اليونانية وافادته منها . ويبين أنه مغرم بافلاطون بصفة خاصة ويقتبس من حكمه .

وكان أحمد بن طولون مشغوفا بمجالسة الفقهاء وأهل العلم مثل محمد بن عبد الله بن عبد الحكم . وبلغ به ولعه بالحديث وسماعه وروايته أنه كان ينتقل الى مجلس القاضى بكار بن قتيبة طلبا للمزيد .

وكانت مدينة القطائع فى عهد الطولونيين حافلة بالعلماء والمحدثين والمتصوفة والأدباء والشعراء والمؤرخين نذكر منهم على سبيل المثال القاضى بكار بن قتيبة الذى كان من أبرز قضاة المسلمين وأعلمهم بالفقه الاسلامى . ومن أشهر المحدثين الذين شهدوا بداية حياة ابن طولون فى مصر الربيع بن سليمان بن داود الأزدى الجيزى تلميذ الامام الشافعى . ويذكر المؤرخون أن أحمد بن طولون أعطاه فى أول درس ألقاه فى جامعه كيسا به ألف دينار .

ومن فقهاء المالكية الذين شهدوا هذا العصر محمد بن عبدالله ابن عبد الحكم . وكان محمد فقيها فى مذهب الامام مالك . ولما قدم الامام الشافعى مصر صحبه محمد وتفقه عليه فلما مات الشافعى فى سنة ٢٠٤ هـ ، رجع محمد الى مذهب الامام مالك وانتهت اليه الرياسة بمصر . وكان محمد هذا فقيه مصر فى عصره على مذهب مالك كما رسخ فى مذهب الامام الشافعى وتتلمذ عليه

كثير من أهل المغرب والأندلس . وكان له مصنفات كثيرة وتوفى سنة ٣٦٨ هـ .

ومن ملامح النهضة الأدبية فى مصر أن حفل العصر الطولونى بطائفة من أئمة الكتاب مثل ابن عبد كان ، والحسن بن رافع ، ويعقوب بن اسحق ، وجعفر بن عبد الغفار المصرى ، وأحمد بن أيمن ، واسحق بن نصير .

ووضح ازدهار الدراسات اللغوية فى العصر الطولونى على يد الوليد بن محمد التميمى النحوى المعروف بولاد (١) . كذلك أنجبت المدرسة اللغوية أحمد بن جعفر الدينورى صاحب كتاب « المهذب فى النحو » . كذلك شهدت مدرسة اللغة ظهور أبى جعفر النحاس أحمد بن محمد بن اسماعيل صاحب كتاب « معانى القرآن ومنسوخه » ، ومحمد بن حسان النحوى .

أما فى ميدان الدراسات التاريخية فقد شهدت السنوات الأولى من مجىء أحمد بن طولون الى مصر أقدم مؤرخ لمصر الاسلامية وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم صاحب كتاب « فتوح مصر » والذى توفى سنة ٢٥٧ هـ ، وهو أخو الفقيه المالكى محمد ابن عبد الله بن عبد الحكيم . والحق أن ابن عبد الحكيم يمت الى عصر الولاة أكثر مما يمت للطولونيين . ولكن من أشهر مؤرخى

---

(١) الدكتور محمد كامل حسين : فى الادب المصرى الاسلامى من الفتح الاسلامى الى دخول الفاطميين ، ص ٦٨ « القاهرة ١٩٣٩ م » .

الدولة الطولونية أحمد بن يوسف بن ابراهيم المعروف بابن الداية . وقد وصلنا من كتبه كتاب المكافأة وسيرة أحمد بن طولون وسيرة أبى الجيش خمارويه . ويتبين من كتابة ابن الداية انه كان ذا ثقافة واسعة فهو كاتب وشاعر وعالم بالهندسة والفلك . وقد اكسبته صلته بالأمراء ورجال الدولة والكتاب والعمال والفلاحين ،خبرات اجتماعية واسعة ونظرة ثاقبة فى صميم المجتمع المصرى ظهرت فيما كتبه فى كتابه المكافأة .

وقد شجع أحمد بن طولون ومن جاء بعده من الطولونيين الشعراء الذين كانوا أهم وسيلة للاعلام فى تلك الأزمنة .ويدلنا على ذلك مارواه المقريزى عن القاضى ابى عمرو عثمان النابلسى الذى قال فى كتابه « حسن السيرة فى اتخاذ الحصن بالجزيرة » انه رأى كتابا لا يقل حجمه عن اثنتى عشرة كراسة، يحوى فهرسة شعراء ميدان ابن طولون .

واشتهرت مصر فى العصر الطولونى بالتقدم فى علم الطب ؛ وكان هذا التقدم استمرارا لازدهار الطب فى العصور السابقة .

ويذكر ابن الداية فى كتابه المكافأة أنه صحب رجلا من المسلمين الذين اشتغلوا بالطب واسمه على المتطبب المعروف بالديدان وان هذا الطبيب « كان حسن المعرفة بكتب افلاطون ورموزه مبرزا فى الطب » . وقد أمدنا ابن الداية والبلوى فى حديثهما عن أيام أحمد بن طولون الأخيرة ومرضه وخلافه مع أطبائه بالكثير من

الأخبار الطريفة عن صناعة الطب في مصر ، وعن الأطباء ومعاونيهم . ونعرف أن طبيب ابن طولون الخاص كان سعيد بن نوفل وانه كان حاذقا في صناعته . وكذلك يذكر البلوى أن الحسن بن زيرك اشترك في علاج ابن طولون وانه كان يعمد في تطبيبه فضلا عن الدواء الى اراحته وعلاجه نفسيا .

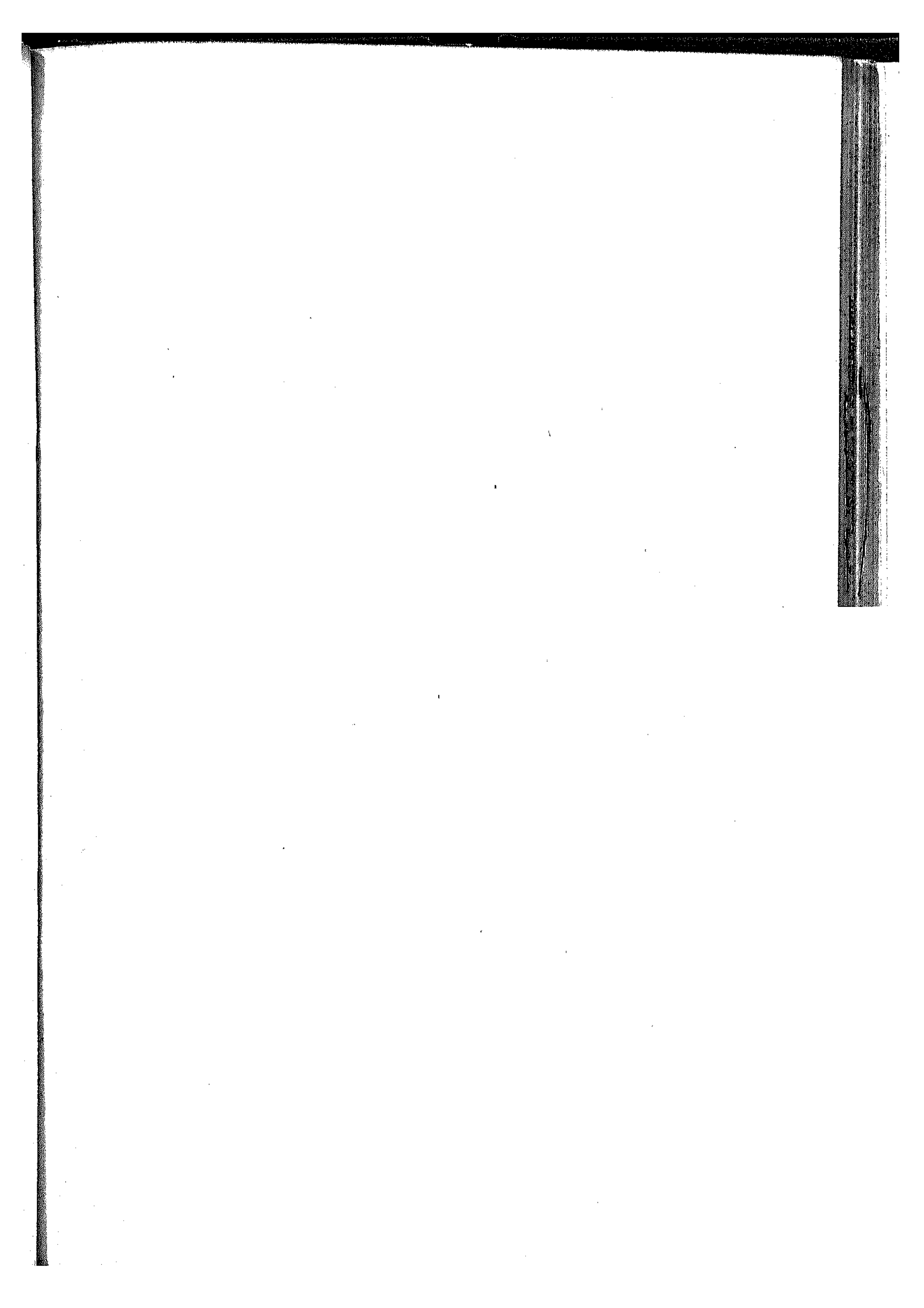
كذلك نعرف مما ذكره البلوى أن الطبيب اذا رأى حالة مستعصية كان يرى من الأفضل ان يجتمع عدد من الأطباء للوصول الى رأى كما نفعل نحن اليوم . ويذكر البلوى ان كل طبيب كان له أعوان ومساعدون كان اسمهم ، الشاكريه ، وكان وظيفتهم دق العقاقير وعجن الأدوية حسب أمر الأطباء أو نفخ النار تحت الأدوية المطبوخة . وكان الأطباء يقومون بتركيب الأدوية اللازمة للمريض كذلك كانت لهم وسائلهم في الفحص والعلاج كما كانوا يحددون للمريض أنواع الأطعمة التى يتناولها أثناء مرضه (١) .

---

(١) انظر : البلوى : سيرة احمد بن طولون ص ٣١٩ ــ ٣٢٩ .

الفصل الخامس عشر

الآثار والفنون



١ ـ الفن الطولونى :

بعد فتح العرب لمصر قامت فيها صناعة اسلامية مصرية وفن اسلامى مصرى كان للمصريين اليد الكبرى فيه ، وان كان العرب قد أفلحوا فى طبعه بطابع دينهم بحيث بدأت تتميز الفنون والصناعات المصرية عما كان موجودا فى مصر قبل الفتح وكان عماد هذه الفنون الاسلامية المصريون وليس العرب . وشارك المصريون أيضا فى كثير من عمارة مختلف أنحاء الدولة الاسلامية ، فنعرف من أوراق بردى كوم اشقاو أن قرة بن شريك أرسل عمالا مصريين للعمل بالجامع الأموى فى دمشق ، وأرسل آخرين للعمل فى جامع بيت المقدس ، وأرسل غيرهم للعمل فى قصر أمير المؤمنين ، كذلك شارك المصريون فى عمارة مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام فى المدينة المنورة ، وكانت كتب والى مصر قرة بن شريك تحدد النفقة على الفعلة المصريين ، وعلى مهرة العمال منهم (١) .

وكان نقل مهرة الصناع والفنانين من اقليم الى آخر فى ديار الاسلام أمرا شائعا ، وخاصة أن ديار الاسلام كانت تعتبر وحدة واحـدة .

---

(١) انظر : سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ، ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ وماذكرته من مراجع .

ولما جاء أحمد بن طولون الى مصر وأسس الدولة الطولونية فيها نشأ فى مصر مايعرف باسم الفن الطولونى نسبة الى الطولونيين وفى الوقت نفسه نراه متميزا عما كان موجودا قبله ومقدمة لما وجد بعد العصر الطولونى فى مصر الاسلامية من فنون وآثار .

ولم يكن الفن الطولونى مستقلا كل الاستقلال عن فن الخلافة العباسية آنئذ فقد كان تابعا له الى حد كبير وفى الوقت نفسه كان منافسا له . فقد أراد أحمد بن طولون أن يتخذ لنفسه بلاطا مثل بلاط الخليفة العباسى فى سامرا وبغداد بل يفوقه فى الأبهة والعظمة . وأصبح البذخ والترف فى مصر حديث المعاصرين حينئذ ومن جاء بعدهم ، فى وقت كانت ثورة الزنج والفتن الداخلية قد استنزفت أموال الحكومة العباسية وجهودها . ومن حسن الحظ أنه وصلت الينا آثار الطولونيين وتحفهم ولم تكن كل معلوماتنا قاصرة على ماذكرته المصادر التاريخية والأدبية عن عظمة الطولونيين وعلو شأن الفنون فى عصرهم (١) .

٢ ـ مدينة القطائع :

عرفنا أن أحمد بن طولون خرج لمحاربة ابن الشيخ فى الشام سنة ٢٥٦ هـ ثم ورد عليه كتاب الخليفة بالرجوع فعاد الى مصر .

ثم بدأ أحمد بن طولون فى تأسيس حاضرة له . وفى ذلك يقول الكندى : « وابتدأ أحمد بن طولون فى بنيان الميدان

---

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ، ص ٢١-٢٢

فى شعبان سنة ست وخمسين ، وأمر بحرث قبور اليهود والنصارى وبنى موضعهما » .

وكان أمراء مصر أو ولاتها ينزلون الفسطاط — مقر الحكم العربى — منذ اختطها عمرو بن العاص فى سنة ٢١ هـ (٦٤٢م) وبنى فيها جامعه المشهور . ولما جاء جيش العباسيين الى مصر فى سنة ١٣٢ هـ بقيادة صالح بن على العباسى وأبى عون لمطاردة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ولانهاء الحكم الأموى فى مصر ، اختط العباسيون عاصمة جديدة لمصر فى الصحراء الواقعة شمال شرقى الفسطاط وذلك فى سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠م) وسموها العسكر . وكان اختطاط العسكر ، اما لرغبة العباسيين فى أن يتخذوا لأنفسهم مقرا لم يسبق اليه غيرهم ، واما لأن مروان بن محمد كان قد أضرم حريقا خرب جانبا كبيرا من الفسطاط ، كما يقال فى بعض الروايات (١) . وكان ذلك الجزء من الصحراء يعرف باسم الحمراء القصوى ولم يكن به من العمائر الا عدة أديرة وكنائس ، وأمر أبو عون أصحابه بالبناء فيها فبنوا المحال والاسواق والدور العديدة ثم شيد صالح بن على دارا للامارة . وفى سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥م) بنى الفضل بن صالح بن على العباسى فى ولايته على مصر من قبل الخليفة المهدى جامع العسكر (٢) .

---

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ج ١ ص ٥٦ « مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٥ م »

(٢) انظر : دكتورة سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ٢٤٧ .

ولن يفوتنا أن انشاء القطائع ـ عاصمة أحمد بن طولون ـ لم يقض على العسكر أو الفسطاط . والواقع أن القطائع والعسكر لم تكونا فى الحقيقة الا ضاحيتين للفسطاط أو امتدادا لها مع أن الناس حينئذ كانوا يعتبرون العسكر مدينة قائمة بذاتها كما اعتبروا القطائع بعد ذلك . وظلت الفسطاط المركز الأعظم للحياة المصرية ، بل ان المبانى الحكومية القديمة لم تهجر تماما ، فالمعروف مثلا أن دار الامارة التى كان يسكنها الأمراء العباسيون فى العسكر أصبحت فى عصر الطولونيين « ديوانا للخراج » .

واختط ابن طولون عاصمته الجديدة فى المكان الواقع فى سفح جبل يشكر الى الشرق من العسكر ، والشمال الشرقى من الفسطاط حيث يوجد الآن قره ميدان ، والمنشية ، وميدان صلاح الدين (١) .

وكان أحمد بن طولون حكيما فى انشاء القطائع فقد أمكنه بذلك ابعاد جيشه غير المتجانس عن الأحياء العربية المصرية وتجنب بذلك ما كان ممكنا حدوثه من الشغب بسبب اختلاط جنده بالتجار وغيرهم من سواد الشعب على نحو ماحدث لجند الخليفة المعتصم فى بغداد ، وكان سببا فى انشاء سامرا .

وكان تفكير أحمد بن طولون فى ترك دار الامارة بمدينة العسكر أو فى الفسطاط يمثل اتجاهه الجديد فى الاستقلال بمصر وفى رغبته فى منافسة بلاط العباسيين بالاضافة الى غرامه بالعظمة

---

(١) انظر : دكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ، ج ١ ص ٥٧

والأبهة . وقسم الأمير مدينته الجديدة بين جنده ورجال حاشيته ومن احتاجوا اليهم من صناع أو تجار . فصارت لكل طائفة قطيعة . وكانت كل قطيعة تعرف باسم من سكنها سواء أكانت تربطهم رابطة الجنس أو رابطة العمل ، فكان هناك قطيعة الروم وقطيعة السودان ، وقطيعة البزازين ، وقطيعة الجزارين .. الخ

وأصبح يطلق على مدينة ابن طولون اسم القطائع . ولم يكن التخطيط أو الاسم غريبا اذ كان تخطيط القطائع يشبه الى حد كبير تخطيط سامرا . كذلك كان يطلق اسم القطائع على مدينة سامرا التى بناها المعتصم اللهم الا القصور الملكية .

أما القصور الطولونية فقد خربت وعفت آثارها . وأكبر الظن أن مهندسيها نحوا فى بنائها نحو قصور الخلفاء فى سامرا .

وكان لقصر أحمد بن طولون عدة أبواب كبيرة ، وكان لكل باب منها اسم يدل احيانا على الجهة التى يؤدى اليها ، أو على نوع الخدم وذلك كما كان متبعا فى قصور سامرا . وكان أهم أبواب القصر الطولونى كما ذكر المقريزى فى الخطط : باب الميدان ومنه كان يمر الجند ، وباب الخاصة للمقربين من الأمير، وباب الصوالجة وكان يؤدى الى الميدان الكبير المخصص للعب الصوالجة ، وباب الحرم الذى كان لا يدخل منه الا النساء أو الخصيان ، وباب الصلاة وكان يوصل الى جامع ابن طولون ،وباب الجبل وتشرف عليه تلال المقطم ، وباب الساج نسبة الى الخشب الذى اتخذ منه ، وباب دعناج وباب الدرمون نسبة الى حاجبين

كانا يجلسان عندهما ، وباب السباع نسبة الى سبعين كبيرين من الجبس كانا على جانبيه .

ولم تبق القطائع مدة طويلة مقر الأمير وخدمه وحشمه ورجال بلاطه وجيشه وحكومته فحسب ، بل مالبث أن اتسع نطاقها وزادت عمارتها . وذكر مؤرخو مصر الاسلامية انها أصبحت مدينة كبيرة زاهرة وأنشئت فيها المساجد الجميلة والحمامات والأفران والطواحين والشوارع والحوانيت والمنازل وغير ذلك مما نجده فى المدن الكبرى وامتدت عمارتها حتى اتصلت بمدينة الفسطاط .

وقد عثرت دار الآثار العربية (متحف الفن الاسلامى الآن) فى صيف سنة ١٩٣٢ بالتلال المجاورة لأبى السعود على اطلال منزل طولونى واحتفظ متحف الفن الاسلامى بالزخارف الجصية التى عثر عليها فى أطلال هذا البيت .

كذلك كشفت حفائر دار الآثار عن جدران جزء من داركبيرة بالآجر وعليها زخارف من الجص على النحو المتبع فى سامرا وفى الجامع الطولونى . وحين كشفت أطلال هذا البيت ، كان يظن فى بداية الأمر أنه ربما كانت هذه الأطلال أنقاض دار الامارة . ولكن لايستطيع أحد أن يجزم بذلك لأن مساحة البيت صغيرة لاتليق بدار للامارة ، ولكن مافيه من زخارف جصية ترجح أن يكون صاحبه من ذوى الجاه واليسار (١) .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ، ص ٦٣

ويظهر من تخطيط القطائع أن أحمد بن طولون لم يرد أن يجعلها مدينة حربية حصينة يغلب عليها الطابع العسكرى ، مثلما كانت بغداد التى بناها أبو جعفر المنصور لتكون عاصمة للعباسيين وفى الوقت نفسه قلعة حصينة منيعة ضد أعداء العباسيين ، وانما نرى أحمد بن طولون يتجه اتجاه الخليفة العباسى المعتصم حين بنى سامرا . اذ اتجه المعتصم فى بناء سامرا الى الابداع فى البناء وسائر الفنون الصناعية والزخرفية فاستقدم للمشاركة فى عمارتها أعظم الصناع وأصحاب المهن ليجعلها أكبر منافس لبغداد . وكذلك فعل أحمد بن طولون فى بناء القطائع ليجعلها تنافس سامرا وبغداد

وقد رأينا أن أحمد بن طولون اتخذ فى جزيرة الروضة حصنا أراد أن يجعله معقلا له ولحرمه وأمواله اذا أفلح موسى بن بغا وجنوده فى دخول مصر .

وكان سقوط الأسرة الطولونية ايذانا بسقوط هذه الحاضرة الجديدة وتخريبها ، ولكن ذكراها لاتزال قائمة بفضل المسجد الجامع الذى كان يقوم فيها .

٣ ـ جامع أحمد بن طولون :

أراد أحمد بن طولون أن يكون له مسجد « جامع كبير » يتضاءل الى جانبه جامع عمرو وجامع العسكر ، ويكون عنوانا لعظمة الامير ولرخاء البلاد فى عصره . فاختار أحمد بن طولون مكانا

لهذا الجامع على جبل يشكر (١) لأن المصريين كانوا يعتقدون أن موضع هذا الجبل مبارك ويزعمون أن الله عز وجل كلم موسى عليه (٢) . وفضلا عن ذلك فقد كان مكان الجامع يتوسط القطائع عاصمة ابن طولون الجديدة . واختلف المؤرخون فى تاريخ انشاء هذا الجامع فذكر المقريزى فى الخطط ان بداية بنيان الجامع كان فى سنة ٢٦٣ هـ (٨٧٦ — ٨٧٧) وكان الفراغ منه فى سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ — ٨٧٩ م) وذكر ابن دقماق وأبو المحاسن أن الشروع فى تشييد المسجد كان فى سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٣ — ٨٧٤م) أما الكندى فذكر أن أحمد بن طولون بدأ فى تشييد مسجده فى سنة ٢٦٤ هـ وأتمه فى سنة ٢٦٦ هـ .

ونلاحظ ان السنين التى ذكرها المؤرخون متقاربة ولكنها تؤكد أن أحمد بن طولون لم يبدأ فى منشآته العامة ومشاريعه العمرانية الا بعد أن أصبحت مصر كلها تحت سلطانه . ومع ذلك فان الصواب أن الفراغ من بناء الجامع كان فى سنة ٢٦٥ هـ . وهذا التاريخ وارد فى الكتابة التاريخية التى وجدت فى الجامع

---

(١) يذكر ابن دقماق فى كتابه الانتصار لواسطة عقد الامصار أن « يشكر » كان رجلا صالحا ، اما المقريزى فى الخطط والقلقشندى فى صبح الاعشى فيذكران نقلا عن القضاعى أن هذا الجبل نسبة الى يشكر بن جزيلة من قبيلة لخم التى اتخذت خطتها فى هذا الجبل بعد ان تم للعرب فتح مصر .

(٢) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ص ٢٨ وما ذكره من مراجع .

منقوشة بالخط الكوفى على لوح من الرخام (١) . أما مهندس الجامع فيذكر المقريزى أنه كان رجلا نصرانيا حسن الهندسة حاذقا بها . وأكبر الظن أن هذا المهندس كان مسيحيا من العراق ، لأنه لو كان من مصر لما أغفل المقريزى أن ينص على أنه قبطى . ولو كان بيزنطى الأصل لقال المقريزى انه رومى .

ولايبعد أن يكون مهندس الجامع قد جاء الى مصر فى ركاب أحمد بن طولون ، أو ان ابن طولون أرسل فى استدعائه عندما عقد العزم على تشييد المسجد الجامع وغيره من الأبنية . ولاشك أن هندسة بناء الجامع وزخارفه الجصية تدل على أن المهندس الطولونى أتى من سامرا ، أو كان خبيرا بما ازدهر فيها من العمارة والفنون .

ويتكون جامع ابن طولون من صحن مربع مكشوف طول كل ضلع فيه نحو اثنين وتسعين مترا ، أى أن مساحته تبلغ نحو ٨٤٨٧ مترا مربعا . وتحيط به أروقة من جوانبه الأربعة . وتقع القبلة فى أكبر هذه الأروقة .

وبين جدران الجامع وسوره الخارجى ثلاثة أروقة خارجية تسمى الزيادات . ويعلل ابن دقماق بناء هذه الزيادات بأنه لما ضاق الجامع بالمصلين أمر أحمد بن طولون ببنائها . وكانت مثل

---

(١) انظر : الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ، ص ٣٧ وما ذكره من مراجع ، وانظر ،
A. Grohmann : Die Bauinschrift der Moschee des Ahmed ibn Tulun (The American University in Cairo Press 1965).

هذه الزيادات موجودة فى الجامع الكبير بمـدينة سامرا ، وفى مسجد ابى دلف بالعراق أيضا . ونحن نعتقد أن الباعث على بناء مثل هذه الزيادات ماذكره ابن دقماق وهو الرغبة فى تكبيرالجامع وزيادته . ونعرف مما ذكره الكندى أن القاضى المصرى الحارث ابن مسكين أمر ببناء زيادة غربى جامع عمرو بن العاص .

أما الجامع الطولونى فانه مشيد بآجر أحمر داكن . ويعتقد بعض علماء الآثار أن سبب ذلك ان المهندس عراقى الأصل . وان اللبن (الطوب النيىء) والآجر خاصة من خواص العمـارة فى العـــراق لقلة الأحجــار .

وذكر المقريزى وابن دقماق أن أحمد بن طولون لما عقدالعزم على تشييد الجامع قال : أريد أن أبنى بناء ان احترقت مصر بقى وان غرقت بقى ، فقيل له « يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمـر القوى النار الى السقف ، ولا يجعل فيه أساطين رخام ، فانه لاصبر لها على النار » فبناه هذا البناء .

والواقع أن أقدم الأبنية الاسلامية فى مصر ، وهو مقيـاس النيل فى الروضة مشيد بالحجر ، ومع ذلك فان اللبن والآجـر كانا معروفين فى العمارة منذ عهد الفراعنة .

ومما يلفت نظر علماء الآثار فى هذا الجـــامع أن أقـواس الأروقة مرفوعة على دعائم ضخمة من الآجر المغطى بطبقة سميكة من الجص بدلا من الأعمدة التى كان المسـلمون يأخذونها من الكنائس والمعابد القديمة . ويزعم المؤرخون أنه عندما أراد أحمد

ابن طولون بناء الجامع قدر له ٣٠٠ عمود من الرخام وقيل له انه لاسبيل الى الحصول عليها الا اذا خرب الكنائس فى الأرياف فلم يقبل أحمد بن طولون ذلك .

وأهم مايمتاز به جامع أحمد بن طولون هو مئذنته أومنارته التى تقع فى الرواق الخارجى الغربى ، وتكاد لاتتصل بسائر بناء الجامع . وهى مشيدة من الحجر وتتكون من قاعدة مربعة تقوم عليها طبقة اسطوانية عليها أخرى مثمنة . واما السلالم فمن الخارج على شكل مدرج حلزونى . وليس لهذه المنارة نظير فى البلاد الاسلامية اللهم الا فى الجامع الكبير وفى مسجد ابى دلف فى سامرا .

وعلماء الآثار مختلفون فى تحديد العصر الذى ترجع اليه المنارة الحالية ، فبعضهم ينسبها الى عصر الأمير أحمد بن طولون وينسبها آخرون الى العصر الفاطمى . ولكن الأرجح أنها من عصر السلطان المملوكى لاجين حين عمر المسجد فى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى (٦٩٦ هـ) ، ومع ذلك فانها فى جوهرها صورة من المنارة القديمة التى بنيت فى العصر الطولونى .

وقد روى مؤرخو العرب مختلف القصص عن سبب بنائها على هذا الشكل فقالوا ان أحمد بن طولون كان هادئا رزينا لايلهو أبدا . وحدث ذات مرة انه أخذ ورقة يلهو بها ويطويها فى يده ثم انتبه لنفسه وتعجب الجالسون معه ، فقال انما فعلت ذلك

لأنى أردت أن أبنى منارة الجامع على هذا المثال ، وأمر فأتى بالمهندس وطلب اليه تنفيذ ذلك .

والواقع أن مؤرخى العرب فطنوا الى غرابة هذه المنارة ،فهى منسوبة دائما لابن طولون كما أنه لاتوجد صلة بينها وبين منائر العصور التالية . وأكبر الظن أنها لم تدخل فى الرسم الذى وضعه المهندس للجامع الطولونى وانما أقيمت على هذا الشكل تحقيقا لرغبة ابن طولون نفسه الذى كان متأثرا بما رآه من المنائر فى سامرا (١).

ويمتاز جامع ابن طولون بمنبره الخشبى الجميل . ويعتبر من أجمل نماذج الصناعة الخشبية فى عصر المماليك . وقد حدث أن امتدت يد السلب الى بعض اجزائه أو حشواته فتسربت الى أوربا ثم عملت لجنة حفظ الآثار العربية على استرداد ما استطاعت استرداده منها . وبذلك أمكن تجديد المنبر كما نراه الآن . وفى المسجد الطولونى ستة محاريب أولها المحراب الأصلى المجاور للمنبر . أما المحاريب الخمسة فهى مصنوعة من الجص (الجبس) ومستوية الوجوه وترجع الى العصر الفاطمى وعصر السلطان لاجين المملوكى .

وفى الجامع الطولونى زخارف كثيرة محفورة فى الجبس تشبه الزخارف الجصية التى ساد استعمالها فى العصر العباسى ولاسيما بمدينة سامرا . وقد قامت ادارة حفظ الآثار العربية

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر . ص ٤٧

بتجديد هذا الجامع واعادته الى صورته الأولى واصابت فى ذلك نجاحا يحق لها أن تفخر به .

والحق أن جامع أحمد بن طولون يعتبر من أهم وأقدم الآثار العربية فى مصر . ذلك أن جامع عمرو بن العاصى ، وهو أقدم جامع فى مصر ، لم يبق على حاله كما كان فى عصر بنائه اذ أدخل عليه ، على مر العصور الاسلامية اصلاحات كثيرة وأضيف اليه من الأبنية ماغير معالمه الأولى . أما جامع أحمد بن طولون فقد احتفظ تقريبا بكل تصميماته الأولى وأصبح البناء الوحيد الذى توافرت فيه هذه الشروط فى مصر والشام قبل العصر الفاطمى(١)

٤ ــ قناطر أحمد بن طولون :

شيد أحمد بن طولون فى الجهة الجنوبية الشرقية من القطائع قناطر للمياه لاتزال بعض عقودها قائمة ، وكان الماء يسير فى عيونها الى القطائع . ويروى مؤرخو مصر الاسلامية ــ على عادة مؤرخى العصور الوسطى ــ القصص والأساطير التى تشير الى سبب بناء هذه القناطر (٢) . والحق أن عاصمته الجديدة كانت محتاجة الى تدبير المياه لها والى توفير كل سبل الراحة لساكنيها . وقيل ان الناصحين أشاروا على أحمد بن طولون بأن يجرى الماء من عين أبى خليد فاعترض قائلا بأن هذه العين لاتعرف أبدا الا باسم

(١) الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى ، ص ٣٥ و ٥٤

(٢) المقريزى : خطط ج ٢ ص ٤٥٧ .

أبى خليد وانه يريد أن يستنبط بئرا تنسب اليه فعدل عن العين الى الشرق وبنى عليها القناطر . وكانت هذه القناطر شبيهة بالقناطر الرومانية المرفوعة وسماها المؤرخون المسلمون باسم السقاية .

ويظهر أن هذه القناطر تطلبت مجهودا كبيرا وأموالا ضخمة وانها كانت من المتانة والابداع بمكان كبير . وأشار اليها سعيد القاص فى عدة أبيات من قصيدته التى رثى بها الدولة الطولونية ومن هذه الأبيات قوله :

بناء لو آن الجن جاءت بمثله لقيل لقد جاءت بمستفظع نكر

وقد بنيت قناطر ابن طولون بآجر يماثل فى الشكل والحجم آجر الجامع الطولونى . والمعروف أن الذى تولى لابن طولون بناء هذه العيون هو المهندس النصرانى الذى شيد له بعد ذلك المسجد الجامع .

٥ ـ البيمارستان :

أنشأ أحمد بن طولون فى سنة ٢٥٩ هـ ، المارستان للمرضى أو البيمارستان ، وليس المقصود أن يكون وقفا على المصابين بالأمراض العقلية . ولم يصل الينا منه انقاض أو بقايا ولم يتعرض المؤرخون الذين تكلموا عنه لرسمه أو تخطيطه . وشرط أحمد بن طولون الا يعالج فيه جندى ولا مملوك .

ونعرف أنه جعل له حمامين أحدهما للرجال والآخر للنساء وأباحهما مجانا للناس من غير تمييز فى الأديان أو المذاهب .وأدخل

أحمد بن طولون فى هذا المارستان ضروبا من النظام جعلته فى مستوى أرقى المستشفيات فى الوقت الحاضر . فكان المريض اذا دخل تنزع ثيابه ويودع مامعه من المال عند أمين المارستان ، ثم تقدم له ثياب أخرى وينزل به فى مكان تتوافر فيه وسائل الراحة كذلك كان يعطى للمريض الأدوية والأغذية مجانا حتى يتم شفاؤه فاذا قدمت له دجاجة ورغيف فأكلهما أذن له بمغادرة المارستان بعد أن ترد اليه ثيابه وماله . وبلغ من عناية أحمد بن طولون بهذا المارستان وحرصه على راحة المرضى انه كان يتفقده بنفسه فى يوم الجمعة فيطوف على خزائن الأدوية ويتفقد أعمال الأطباء ويشرف على المرضى ويبالغ فى مواساتهم وادخال السرور عليهم .

وروى المؤرخون أن أحمد بن طولون حبس على مسجده الجامع وقناطره ومارستانه دخل بعض الابنية .

ويذكر اليعقوبى أن الوليد بن عبدالملك الأموى (٨٦ — ٩٦ هـ = ٧٠٥ — ٧١٥ م) كان أول من عمل البيمارستان للمرضى .

٦ — انشاءات واصلاحات :

لم تكن هذه هى كل مافعله أحمد بن طولون من أجل مظاهر استقلاله أو من أجل المصريين وانما قام بعدة انشاءات واصلاحات تنم عما ينتظر من أمير يريد تأسيس مملكته فى قلوب الناس .

لم يكن جامع أحمد بن طولون هو المسجد الوحيد الذى بناه ابن طولون ، اذ بنى مسجدا آخر يسمونه مسجد التنور فى أعلى

بجبل المقطم ، بعد أن ضاق جامع العسكر بالمصلين من جند الأمير وعامة الشعب .

ويذكر المؤرخون العرب أن مسجد التنور هو موضع تنور فرعون ، كان يوقد له عليه ، فاذا رأوا النار علموا بركوبه فاتخذوا له مايريد ، وكذلك اذا ركب منصرفا من عين شمس . ويقال ان تنور فرعون لم يزل فى هذا الموضع بحاله الى أن خرج اليه قائد من قواد أحمد بن طولون يقال له وصيف قاطرميز فهدمه وحفر تحتـــه .

ويظهر أنه ظن أنه سيجد مالا تحته ولكنه لم يجد شيئا . ويظهر أيضا أن مسجد التنور لم تقم فيه الجمع . والمعروف أنه منذ فتح مصر كانت هنالك مساجد للصلاة ولكن لاتجمع فيها الجمع وكانت هنالك مساجد جامعة تقام فيها الجمعة .

ولما قدم أحمد بن طولون الى مصر كانت الجمعـــة تقام فى جامع عمرو بن العاص وجامع العسكر الى أن بنى هو مسجده الجامع على جبل يشكر .

ويذكر الشاعر الطولونى سعيد القاص مسجد التنـــور فى الأبيات الآتية من قصيدته المشهورة التى يعدد فيها مناقب الدولة الطـــولونية (١) :

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٢٥٥ .
Zaky M. Hassan : Les Tulunides p. 273 et suiv.
الدكتور زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ص ٣٦

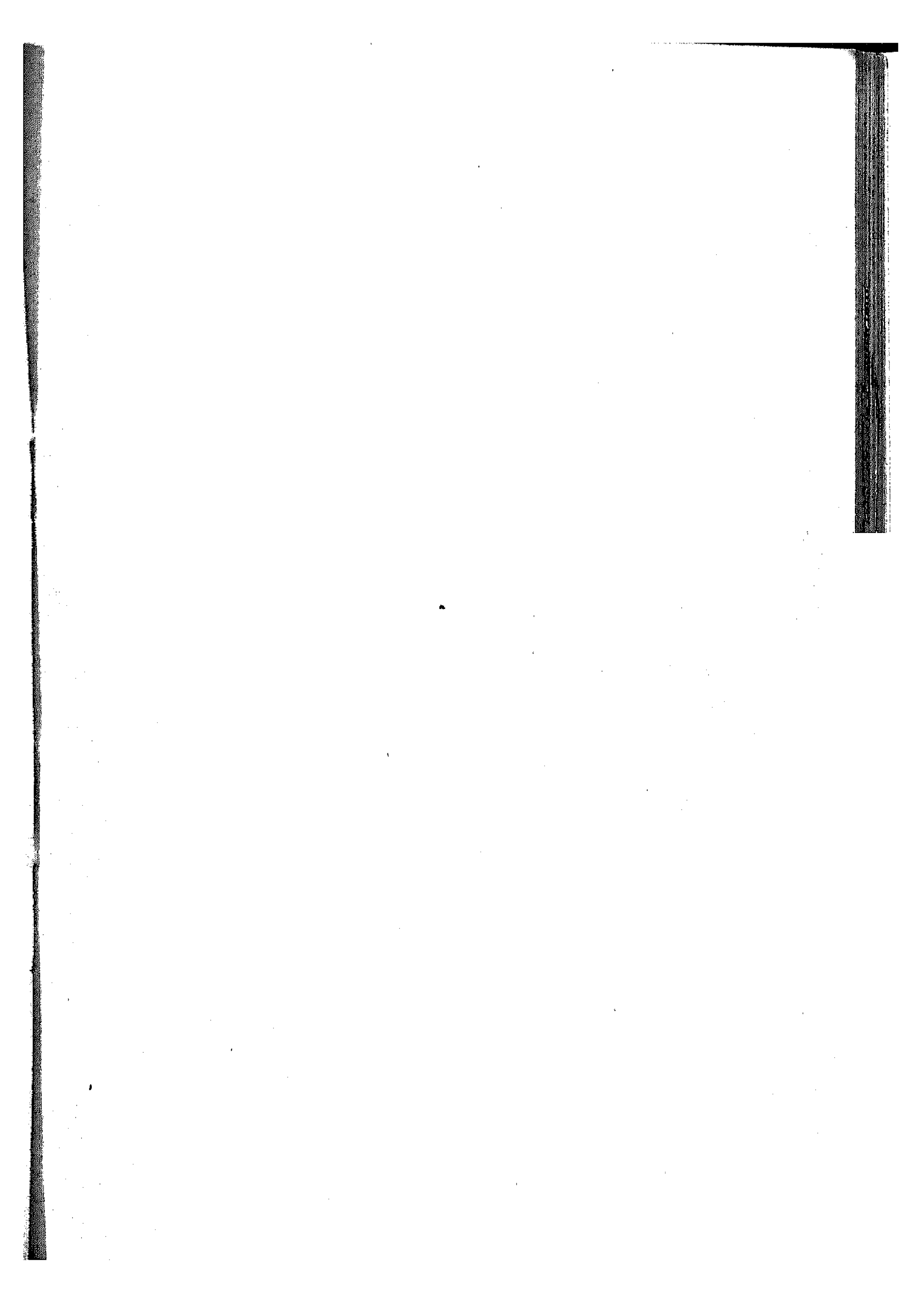
وتنـور فرعون الذى فوق قـلة
على جبـل عال على شـاهق وعر
بنى مسـجدا فيـه يروق بنـاؤه
ويهدى به فى الليل ان ضل من يسرى
تخـال سـنا قنـديله وضياءه
سـهيلا اذا ما لاح فى الليل للسفر

***

وقام أحمد بن طولون بعدة اصلاحات هامة منها اصـلاح مقياس النيل بالروضة وتطهير الخليج الذى يربط الاسـكندرية بالنيل ، واصلاح منارة الاسكندرية .

وقد استغرقت هذه الأعمال البنائية مدة طويلة وأموالا كثيرة ولذا نرى أحمد بن طولون لايستطيع ارسال الأموال السنوية الى الخلافة كالمعتاد . وتحقق لدى الخلافة ماكان يقال عن مطـامعه واغراضه فى الاستقلال بمصر . ولهذا يبدأ الخلاف والنضـال بين الموفق أخ الخليفة المعتمد وصاحب الأمر والنهى فى الخلافة وبين أحمد بن طولون .

ولم يعد دخل مصر يتسرب الى بيت مال الخلافة فى المدينـة أو دمشق أو بغداد أو سامرا ، أو الى جيوب الولاة وأصـحاب الاقطاع بل بقيت أموال مصر فيها وبدأ وادى النيل حيـاته لنفسه فى مجموعة الأمم الاسلامية .



الفصل السادس عشر

أخلاق أحمد بن طولون

اشتهر أحمد بن طولون بالتقوى ، ولكن سلوكه وتاريخ حياته يحملاننا على القول بأنها لم تكن تقوى صادقة كتقوى عمر بن الخطاب أو القاضى بكار ، ولكنها كانت تقوى من النوع الذى اعتاد كثيرون من الأمراء فى تاريخ الشرق أن يتخذوه دعامة لعروشهم واستجلابا لقلوب رعاياهم .

حقا انه تلقى فى صباه تعليما دينيا ، ولكننا نظن أن حياته السياسية جعلته يتحول الى مكيافيلية (١) تلزم مؤسسى الأسرات فتشييده المسجد والقناطر والمستشفى واعلان الجهاد ضد الروم والموفق ، كل هذا لم يكن الغرض منه مرضاة الله بقدر ما كان المقصود به تحقيق سياسة ابن طولون واستجلاب رضاء رعاياه عن هذه السياسة . وحسبنا انه كاد مرة يأمر بجلد خطيب نسى أن يدعو له فى الخطبة بعد الدعاء للخليفة وولى العهد .

أما الجهاد الذى اتخذه حجة للسير الى الشام فانه لم يمنعه عند وصوله الى الثغور من أن يفاوض مندوبى الروم ويعقد معهم صلحا .

وفضلا عن ذلك فان المجلس الذى جمعه فى دمشق والقرار الذى استصدره بعزل الموفق والجهاد ضده لانقاذ المعتمد ، كل

---

(١) مكيافيلى هو صاحب كتاب « الامير » الذى قدمه الى امير فلورنسا . وتوفى ميكافيلى فى القرن السادس عشر الميلادى . ويدور كتاب « الامير » حول فكرة أساسها أن الغاية تبرر الواسطة ، وأن الامير يجيز لنفسه الوصول الى تثبيت حكمه وسياسة امته بأية وسيلة من الوسائل بغض النظر عن قربها أو بعدها من المثل الاخلاقية العليا .

ذلك لم يمنعه من أن يكون مستعدا ، قبل وفاته بزمن قصير ، لأن يعترف بالموفق اذا قبل الموفق أن يعترف بسلطانه وما حصل عليه من فتوحات ، أو كما يقولون statu quo

وقد ذكر كثير من المؤرخين أن أحمد بن طولون كان رجلا ذكيا بعيد النظر صادق الفراسة وأيدوا ذلك ببعض النوادر التى نجد أن معظمها من النوع الذى يرد كثيرا فى التاريخ الاسلامى منسوبا الى غير أحمد بن طولون من الرجال . كما ذكر ابن الداية نقلا عن تركان بن أحمد بن طولون ان صاحبنا كان يعس بالليل ، أو يتنكر ويطوف فى انحاء القطائع والفسطاط ، كما قيل عن عمر ابن الخطاب فى المدينة وهارون الرشيد فى بغداد ثم الظاهر بيبرس فى القاهرة .

أما أعظم صفات أحمد بن طولون أثرا فى حياته السياسية فكرمه الحاتمى الذى استطاع بوساطته أن يكسب رجالا ما كانوا يترددون فى الانضمام الى خصومه . ونذكر فى هذه المناسبة أن الخليفة المعتمد كان يضايقه من أخيه الموفق رقابته على بيت المال أكثر من اغتصابه سلطانه ونفوذه . والظاهر أن المعتمد كان لا يجد دائما مايحتاج اليه من مال . وقد كتب المؤرخ ابن الأثير فى هذا الصدد أن المعتمد « كان فى خلافته محكوما عليه ، قد تحكم عليه أخوه أبو أحمد الموفق وضيق عليه حتى انه احتاج فى بعض الأوقات الى ثلاثمائة دينار فلم يجدها ذلك الوقت ، فقال :

أليس من العجائب ان مثلى يرى ماقل ممتنعـــا عليــه
وتؤخذ باســمه الدنيا جميعا وما من ذاك شىء فى يــديه
اليــه تحمــل الأموال طــرا ويمنع بعض ما يجبى اليه »

وأدرك ابن طولون هذا الموقف وعمل على الافادة منه فكان يرسل الى الخليفة الهدايا والأموال سرا حتى نال عنده مــكانة عظيمة وقد حزن المعتمد لوفاة أحمد بن طولون وذكر الكندى أنه رثاه بالأبيات الآتيــة :

الى الله اشـــــكو أسى عــرانى كوقع الأســـل (1)
عــلى رجـــــل أروع يرى فيــه فضــل الرجـــل
شــهاب خبـــا وقـــده وعـــارض غيث أفـــل
شــكت دولتى فقــــده وقـــد كان زين الـــدول

ولم يكن أحمد بن طولون كريما مع الخليفة ورجاله فحسب بل كان يحب الاحسان والعطاء لذاتهما وليظهر غناه وثروته .وقد ذكر ابن سعيد ان أحمد بن طولون أرسل الى المعتمد وتصــدق فى أربع سنوات بمبلغ مليونين ومائتى ألف دينــار ، وأنه كان يتصدق شهريا بألفى دينار ، وبلغت نفقات مطابخه وحيواناته الف دينار . وكان يوزع الأطعمة على الفقــراء ويقيم المآدب الكبيرة للفقراء على نحو ما تفعل الحكومة الآن وبعض الهيئات فى بعض الأعياد الدينية أو الوطنية .

---

(1) الاسل : الرماح والنبل .

ومن الصفات التى جلبت لأحمد بن طولون محبة الكثيرين واعجابهم ما امتاز به فى بعض الأحيان من جميل الشعور وتقدير الخصوم . وحسبنا دليلا على ذلك قصته مع عبيد العمرى الذين قتلوا سيدهم ابتغاء مرضاة ابن طولون فلم يلقوا منه الا العقاب والاعراض . ومن ذلك أيضا قصته مع الجاسوس الذى كشفه فى الفسطاط من عيون الموفق وأتباعه ، فان ابن طولون طلب من الجاسوس المذكور أن يترك الموفق ورجاله وأن يشتغل لابن طولون نفسه فرفض الجاسوس قائلا انهم ضموه اليهم قبل أن يتصل به ابن طولون وانه لايستطيع أن يكون عليهم بعد أن كان لهم وأضاف الجاسوس الى ذلك انه لن يعترف بشىء ولو أوقع به ابن طولون أشد العذاب لأنه يفضل ان يموت مخلصا على أن يعيش خائنا . وقد أعجب ابن طولون بسلوك هذا الجاسوس وخيره بين الاقامة فى أملاكه بدون أن يعمل ضده ففضل الجاسوس أن يعود الى العراق ، وظل يذكر ابن طولون وكرم أخلاقه .

على أن كثيرا من مثل هذه الحوادث كان الحكام وكبار الرجال يرمون به الى كسب قلوب الناس ، ولاسيما اننا نعرف عن ابن طولون وعن غيره انهم كانوا فى كثير من الأحيان يؤثرون أن يكونوا عمليين وان يضربوا خصومهم بيد من حديد .

هذا وقد كان ابن طولون مدينا بقسط وافر من نجاحه الى مهارته الادارية ، واستطاعته أن يبعث فى قلوب اتباعه ومعاونيه

الروع والاحترام ، وبراعته فى كشف أعدائه والعمل على احباط خططهم .

وقد ذكر المؤرخون قصصا للدلالة على ذلك ، وهى كثيرة بطبيعة الحال لأن ابن طولون لم يكن يريد أن يلجأ الى القوة الا اذا أعيته الحيلة وأصبحت المسألة بالنسبة له مسألة حياة أو موت . ولقد كان شعاره فى ذلك ما اعتاد قوله من أنه يدفع بماله عن رجاله ويدفع عن نفسه برجاله .

وقد روى تابع من اتباع أحمد بن طولون فى سامرا أن سيده جعل عند كبار التجار فى تلك المدينة مبلغا وافرامن المال يقرضون منه الى كبار القواد ورجال الادارة ، وكان الموفق اذا عرض على أولئك القواد منصب الحكم فى مصر وقبله أحدهم أسرع اليه التجار مطالبين بأموالهم وقائلين له ما معناه « اذا أردت السير الى مصر فادفع دينك أولا فان الذى يذهب لقتال مائة ألف فارس لا ينتظر أن يرجع سالما » فكان فى ذلك مدعاة لخوف المرشح لمنصب الحاكم وباعثا له على القعود عن السفر . وهكذا بمثل هذه الحيلة وغيرها كان الموفق لا يستطيع ان يجد من يقبل منازعة ابن طولون فى حكم مصر . ويروى أن طيفور الذى كان عينا لابن طولون عند الموفق كتب اليه يوما يلفت نظره الى مولى من الموالى اشتهر بطعنه فى ابن طولون وسبه اياه وسعيه به . فأرسل ابن طولون الى طيفور كتابا لهذا المولى فيه انه (أى ابن طولون) ظل يبحث

زمنا طويلا عن شخص يتولى رئاسة عيونه فى العراق ، وانه لم يجد أصلح منه لما اشتهر عنه من ميوله للطولونيين،وبعث اليه ابن طولون فضلا عن ذلك بألفى دينار . وعمل على أن يثير به الشبهات عند الموفق حتى سجنه وتخلص ابن طولون من هذا العدو بنفس الطريقة التى تخلص بها معاوية من قيس بن سعد حاكم مصر من قبل على بن أبى طالب حين أثار حوله الشبهات حتى عزله على بن أبى طالب وهو من أشد المخلصين له .

كذلك كان أحمد بن طولون شديد الحذر من أعوانه وكتابه . وكثيرا ما كان يضيف بيده الى المكاتبات الرسمية التى يكتبونها ما يشعر بلزوم المحافظة على كتمانه ، مما جعل ابن عبد كان يلاحظ فى بعض الأحيان ان بعض الردود على المكاتبات الرسمية تشير الى موضوعات ومسائل لم ترد فى تلك المكاتبات كما حررها بنفسه ، ولم يكتشف طريقة الأمير فى هذا الصدد الا بعد مدة طويلة .

واذا أضفنا الى ذلك كله ما امتاز به ابن طولون من الشجاعة والنشاط والعلم فهمنا كيف اتفق المؤرخون على ان ابن طولون كان رجلا ممتازا . ولكننا نذكر فى هذه المناسبة انهم يصورونه لنا صورة نلمح فيها الرغبة فى الاعلاء من شأنه ، ولا نرى فيها من الدقة والتحليل ما يرمى اليه فى العصر الحاضر من يتصدون للترجمة للعظماء ترجمة علمية صحيحة .

على ان ابن طولون ليس مدينا بنجاحه الى مهـارته وصفاته الشخصية فحسب ، لاننا نذكر حالة الخلافة وتفككها عند قيامه وحروب الزنج التى منعت الموفق من ان يكرس نفسه لاخضاعه وفضلا عن ذلك فان مصاهراته أفادته فى التقدم . وكم كان سعيد الحظ فى أن يرى مصر تقطلع الى قائد تركى تزوج والدته ثم الى قائد آخر كان والد زوجته . وقد تزوج ابن طولون بعـد ذلك بخديجة ابنة الفتح بن خاقان الذى كان صاحب الاقطاع فى مصر مدة من الزمن قبل أن يقتل مع الخليفة المتوكل . واذا صح ما ذكره ابن سعيد نقلا عن ابن الداية فان الخليفة نفسههو الذىقام بهذا العقد ثم صحب محمد بن خاقان أخته العـروس الى مصر سنة ٢٥٩ هـ (٨٧٣م) .

الخاتمة

رأينا فى الفصول السابقة كيف قامت فى مصر على يد أحمد ابن طولون أول دولة عربية اسلامية . وكان هذا الاستقلال الذى نالته مصر على يديه أول استقلال لها منذ أن قضى الرومان على دولة البطالسة سنة ٣٠ ق . م فى العصر القديم . وعلى الرغم من أن عمر هذه الدولة التى أسسها أحمد بن طولون كان قصيرا لم يزد على ٣٨ سنة (٢٥٤ ـــ ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ ـــ ٩٠٥ م) الا أن الديار المصرية أخذت فى الشطر الأول من هذا العهد القصير ، أعنى فى عهد مؤسسها أحمد بن طولون ثم ابنه خمارويه من بعده ، بقسط وافر من التقدم .

والحق أن تاريخ العصر الطولونى هو تاريخ أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة ثم تاريخ خمارويه من بعده .

وكانت الدولة الطولونية تمثل الانتقال من عصر التبعية الى عصر الاستقلال ، من عصر الوالى الذى يمثل سياسة الخلفاء ويأتمر بأمرهم ، الى عصر الحاكم القوى الواسع السلطان الذى يسنده الشعب ويسنده الجيش والاسطول والذى يعمل بما فيه الخير والمصلحة للبلد وابنائه .

وكان أحمد بن طولون مؤمنا بأن مصر للمصريين فكان كريماً مع أبنائها . ولم تشغله مشاريعه فى الاستقلال وفى تكوين امبراطورية مصرية عربية ، عن خدمة البلد وعن القيام بمشاريع كثيرة ينتفع بها أبناء مصر وبدأ فى عهده وادى النيل حياته لنفسه فى مجموعة الأمم الاسلامية ولعب العصر الطولونى الكثير فى حضارة مصر الاسلامية . وأصبحت مصر امبراطورية واسعة تمتد الى برقة غربا والى الشام وتخوم العراق شرقا والى حدود مملكة الروم شمالا والى النوبة جنوبا .

وأفادت مصر من حكم الأسرة الطولونية وساد فيها الرخاء وأصبحت الخلافة العباسية تخشاها . وخطب البيزنطيون ودها بارسال الهدايا النفيسة واطلاق الاسرى المسلمين .

وأصبحت أموال مصر تنفق فيها بدلا من أن تحمل الى الخلافة أو ينهبها الولاة وأصحاب الاقطاع . وظهر البلاط الطولونى فى مستوى لايقل عن مستوى بلاط الخليفة بل كان ينافسه فى كثير من الأحيان .

وبدأ المصريون يشتركون فى جيش بلادهم وأغلب الظن انهم هم الموالى الذين ذكرهم المؤرخون . وشعر المصريون لأول مرة بعد قرون طويلة بأن بلدهم أصبحت لهم وتعلقت قلوبهم بأحمد ابن طولون كما تعلق هو بهم . بل انه تزوج بواحدة من بنات المصريين فذكر ابن سعيد انه اتخذ زوجة من بنات الموالى يقال

لها أسماء . وحين مرض ابن طولون مرضه الأخير خرج المصريون مع نسائهم وأولادهم يدعون له بالشفاء فخرج المسلمون الى المساجد وخرج كذلك المسيحيون يدعون له كما خرج اليهود أيضا .

وكان أسف المصريين على وفاة أحمد بن طولون عظيما . وكانت فجيعتهم أعظم يوم دكت قوات الخلافة العباسية صرح دولته وأحرقوا القطائع . والحق أن قائد العباسيين الذى قضى على الدولة الطولونية أخذ المصريين بمنتهى الشدة والقسوة . ويمكننا أن نفسر العنف الذى صحب سقوط الدولة الطولونية على أنه من الظواهر التى تصحب فترات الانقلاب ، ولكن يبدو أن هذا العنف كان بسبب تعلق المصريين بالدولة الطولونية وانهم كانوا يعتبرونها دولتهم . وتجلت الحسرة على ما حل بالطولونيين وزوال الدولة الطولونية من لهجة المؤرخين المصريين فى استهجان الفظائع التى ارتكبها القائد العباسى محمد بن سليمان وجنوده الخراسانية ، ومن رثاء الشعراء المصريين للدولة الطولونية . وقد بقيت ذكرى بنى طولون ماثلة فى أذهان المصريين يتحدث عنها المؤرخون والأدباء ويتناقلونها جيلا بعد جيل .

فهرس الموضوعات

صفحة

صفحة


الدار القومية للطباعة والنشر